يطرح هذا العدد قضايا مثيرة للجدل في مجالات مختلفة، في علاقة الفرد بالسلطة وفي السياسة الدولية، كما في مسائل تخص التطور الهائل في التكنولوجيا، وإشكاليات هذا التطور وصناعة الأسلحة والحروب، وبعض السيناريوهات للخروج من حالة انتشار الفقر في العالم.

يثير مقال «الأمريكي المنشق... الفردانية كقضية ضمير» مسألة بالغة الأهمية على علاقة بفكر الاجتماع السياسي، حيث يعالج إمكان تحول اختلاف الرأي مع السلطة إلى نهاية مدمرة لصاحبه. وإذا كان السجن، وربما الموت، هما النهاية التي تتبادر غالبا إلى الذهن كونها الأكثر حدوثا، إلا أن المقال يذهب إلى ما هو أعمق من ذلك وأخطر على نفسية الفرد وعلاقته بمحيطه، كأن يعتبر شخصا غير وطني أو معاديا للدين أو يصوَّر كعدواني ومتهور، وما إلى ذلك من الصفات التي تؤدي به إلى خانة المنبوذين في مجتمعه.

ويسلط موضوع «تقسيم الغنائم» الضوء على التساؤلات التي طرحت في أعقاب الحرب العالمية الثانية بشأن استسلام ألمانيا الهتلرية لقوات الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ومدى مطابقتها للتساؤلات التي تواجه الإدارة الأمريكية الآن بخصوص عراق ما بعد صدام حسين. كما يتضمن العدد مقالين آخرين في الشأن السياسي عن مشاكل حلف شمال الأطلسي في ضوء المواقف الأوروبية الأخيرة وانزعاج الولايات المتحدة منها، ومدى تأثيرها في قوة الحلف.

وفي سياق آخر، يعرض موضوع «الحياة بعد السيليكون» لآفاق تطور سرعة الحواسيب، وما إذا كان هذا التطور سيتوقف عند حد ما بعد أن يبلغ أقصاه الافتراضي - إذا جاز التعبير - وخاصة بعد بدء استخدام الضوء لزيادة تلك السرعة بواسطة السيليكون المشع.

أما موضوع «تخديم فقراء العالم بشكل مربح» فيستعرض مآسي الفقر في بعض بقاع العالم نتيجة الدور المدمر لصناعة الأسلحة والحروب في وقت يعجز فيه الفقراء عن مجاراة التقنيات العلمية الحديثة؛ ليطرح كاتب الموضوع بعد ذلك مشروع فكرة أو سيناريو للخروج من هذه الحالة، مفاده الدعوة إلى تحسين الظروف المعيشية



لمليارات الفقراء بشكل يعود على الجميع - بمن فيهم أصحاب المصلحة في الوضع الراهن - بالفائدة الاقتصادية، وذلك على قاعدة أن مخرجا كهذا يعتبر «عملا نبيلا» و«مربحا» في آن.

وبغض النظر عن مثالية هذه الأفكار، أو مدى قابليتها للتطبيق، إلا أن تسليط الضوء عليها كفيل بتصوير حجم الضغط الذي تشكله على المهتمين بأحوال البشرية ومصيرها، كما تعتبر بمنزلة نداء إلى الضمير الإنساني، من أجل البحث في السبل الآيلة إلى الخروج من معاناة تعيشها أمم بكاملها، وقارات شاسعة، فيما آخرون، وهم قلة في الغالب، يجنون الثروات الطائلة من آلة الحرب، ويستغلون العلم في إحلال الدمار والقتل والفقر.

إن مجلة «الثقافة العالمية»، وهي تطرح هذه القضايا المثيرة على صفحاتها، تسعى إلى أن يواكب القارئ العربي الأفكار والآراء الحديثة حيالها، من قبل مفكرين وباحثين وكتاب أجانب، وذلك في إطار تواصل نسعى إلى تعزيزه مع الثقافات والحضارات الأخرى.

رئيس التحرير
أ. بدر سيد عبدالوهاب الرفاعي





الأمريكي المنشق
الفردانية كقضية ضمير

بقلم: إدوارد هوجلاند

ترجمة: جعفر جميل أبو ناصر

العنوان الأصلي للمقال: The American Dissident - Individualism as a Matter of Conscience ونشر في مجلة Harper's Magazine عدد أغسطس 2003

عندما أتعرض للتفتيش في المطارات، أتساءل أحيانا عما قد يحدث لو كان بالإمكان قراءة الأفكار، لا لأن أفكاري تدور حول تدمير الطائرة، بل لأنه تخطر ببالي أفكار غير قانونية كلما رأيت صورة الرئيس على شاشة التلفزيون. فاختلاف الرأي، بدرجاته المتفاوتة، مثير للجدل، ولا يكسب صاحبه شعبية واسعة.

فلو حصل أنك انتقدت العبودية مثلا، أو توظيف الأطفال، أو دافعت عن حقوق المرأة في التصويت في مكان أو زمان غير مناسب، لتعرضت للسجن، وستكون محظوظا لو وقف الأمر عند هذا. ولقد مررت بمدن في ولاية لويزيانا في فترة كان من الممكن أن أتعرض فيها للضرب المبرح لو أنني انتقدت الفصل العنصري، وقد كانت لوحة سيارتي الصادرة في ولاية فيرمونت (1) تكفي حتى أتعرض للتهديد، حيث كان يطلب السكان مني الخروج من ولايتهم قبل مغيب الشمس. وكذلك تسببت حرب فيتنام في انقسام المجتمع، ولكن بشكل أقل حدة، حيث تمكنت من الاحتجاج عليها قانونيا، ودون التعرض للخطر. ولكنني أشعر بالخجل عندما أنظر إلى الماضي وأنا في السبعين من عمري، وأكتشف بأنني لم أتعرض للسجن ولو مرة واحدة في سبيل قضية ضمير. هنالك العديد من الأشخاص الذين أحترمهم، مثل جورج واشنطن وتوماس جيفرسون وعدد لا يحصى من الآخرين، عرّضوا أنفسهم لخطر أكثر مني. ولا أعتقد أن زماننا يخلو من القضايا التي تستحق العصيان، أو حتى أن القضايا الراهنة أقل خطورة من سابقاتها. ففي جميع الأماكن التي زرتها وجدت أن نسبة هائلة من الطبيعة تتعرض للتدمير. وسيكون هذا التدمير أبديا غير قابل للإصلاح. لكن هل كان خوفي من التعرض للحبس كافيا ليسكتني عن ذلك؟ يبدو أن هذا هو الحال. فالشرطة يقومون باعتقال أي كان إذا صدر لهم أمر بذلك، ولا يكترثون بالقضايا التي يناضل من أجلها هؤلاء. فمنظر المتظاهرين سخيف على أي حال، يحملون اليافطات ويهتفون الشعارات قبل أن يجروا إلى سيارات الشرطة. نقول لهم بأن «يدلوا بآرائهم في صناديق الاقتراع»، وكأن هذه الأقلية الحالمة لن تكون أقلية في صناديق الاقتراع.

أعدم «وليام تينديل» حرقا على الصليب عام 1536، لأنه ترجم أجزاء أساسية من نسخة الملك جيمس من الإنجيل، بهدف تمكين عامة الشعب من قراءته باللغة الإنجليزية. هل كانت تلك عقوبة قاسية؟ هكذا اعتقد جيمس عندما تسلم الحكم عام 1603، ولكن في عهد هنري الثامن لم يكن بإمكان البريطانيين أو الكاثوليكيين في أوروبا الاعتراض، ناهيك عن النبلاء الذين تبخروا بمحرقة تينديل الذي أثار سخطهم الشديد لكفره ووقاحته، مثل «سير توماس مور» (وهو نفسه تعرض للإعدام لاحقا بقطع رأسه لاعتراضه على موضوع آخر مختلف تماما). يمكن أن يكون الاحتجاج موضوعا خطيرا للغاية. وإذا لم يكن جدليا ومزعجا ولو بعض الشيء، لما أمكن اعتباره تمردا حقيقيا في الرأي. مرت 46 سنة قبل اعتذار أمريكا عام 1988 عن قيامها باحتجاز 80 ألف أمريكي من أصل ياباني في معسكرات اعتقال أثناء الحرب العالمية الثانية، وتخيلوا الاستقبال الذي كان سيلقاه متمرد متقشف اقترح

(1) فيرمونت ولاية في شمال الولايات المتحدة حيث التعصب العرقي أقل بكثير من الجنوب. أما لويزيانا، فهي في الجنوب، ولها تاريخ طويل من العبودية والعنصرية. المترجم.

الإفراج عنهم أو الاعتذار لهم في البار المحلي الذي يرتاده. فالذين كانوا يعترضون أيام شبابي على أمور الفساد أسميناهم «واشين»، واعتبرنا الإصلاحيين من سريعي الغضب الذين اهتموا بمصلحة الغرباء أكثر مما اهتموا بعائلاتهم. فقد كان الناس يستخدمون الدهان المليء بالرصاص، ويعزلون بيوتهم بمادة «الإسبست» ويدخنون بعد ممارسة الجنس، ويشربون كأسا أخيرة من الخمر «من أجل الطريق» قبل مغادرة الحفلات. كان الشذوذ الجنسي جريمة، والأقليات مثل البولنديين لم تكن تفكر بهم إلا إذا كنت أحدهم، أو كان أحد أفراد عائلتك متزوجا من أحدهم. أما بالنسبة «للملونين» فكنا نعتبره عملا لطيفا أن تناديهم بذلك المصطلح المؤدب، لكن الاعتراض على طريقة معاملتهم كان عملا فيه حماقة. ولمجرد أنني انتقدت اللاسامية (وعلى الرغم من أن معظم اليهود من البيض) اعتبرت شيوعيا من قبل زملائي في الجامعة، حتى إن والدي حرمني من جزء من إرثه، خشية أن أتمرد على ميثاق حارتنا، وأبيع منزله لشخص يهودي، حيث إن عملا كهذا كان سيتسبب في هبوط حاد في قيمة منازل أصدقائه.

التعرض للجلد علنا، والوسم على الجبين، وقطع الرؤوس، والإعدام، تصوروا الاحتقار الذي تعرض له من انتقد هذه العادات قبل الأوان؟ هل اعتقد ذوو القلوب النازفة(2) (وأعترف بأن هذا المصطلح ينطوي على مفارقة تاريخية)، بأنهم يحتكرون الحقيقة والفضيلة؟ العبودية ذكرت في «الإنجيل» فهل يجوز انتقادها؟ وكذلك تشغيل الأطفال، أليس عملا طبيعيا؟ والذين يطالبون أيامنا هذه بحقوق الحيوانات، لا بد أن عدم قدرة هؤلاء على التكيف مع محيطهم هو الذي تسبب في انزعاجهم. كنت أسأل «لماذا يقال عن المهاجرين المكسيكيين بأن أجسامهم مبلولة»؟ والرد «لأنهم أتوا إلى أمريكا بطريقة غير قانونية بعد أن قطعوا نهر ريوغراند سباحة». و«لماذا نعتبر الشواذ جنسيا لواطا؟»، فيقولون لي «لأنهم لواط أيها الغبي!»، أما عندما سألت «لماذا ننادي السود بالنيغر Niggers؟»، كان جوابهم «هذه الكلمة اختصار لنيجرو Negro أي زنجي، فهو لقب فحسب». و«ماذا بالنسبة للرجال الصينيين Chinamen؟»، وردهم «لأنهم من الصين». وتساءلت «لماذا لا يأكل الرجال السود في المطاعم نفسها التي نرتادها نحن؟ حتى في ولايات الشمال»، فيقولون لي «لأنهم بالتأكيد يفضلون تناول الطعام مع من هم مثلهم، حتى لا يتعرضوا للإحراج عندما يمضغون بأفواه مفتوحة، وعندما يسقطون الملاعق والشوك على الأرض، وعندما يضحكون بصوت مرتفع، وعندما يخطئوا بقواعد اللغة خلال حديثهم. فهذا أكثر لطفا منا، لأن مشاهدتنا لهم تسبب لهم حرجا».

هذه القضايا قديمة؛ لكن عندما عدت

(2) Bleeding Hearts (ذوو القلوب النازفة) هو مصطلح يشير إلى أولئك الذين يتعاطفون مع الفئات الأقل حظا، لكن الكاتب قصد «الذين لا يهتمون بالآخرين»، أي الذين قلوبهم عجزت عن التعاطف مع الآخرين. المترجم.

مؤخرا من السودان، وكتبت عن المجاعة في إفريقيا، تساءل الكثيرون عن السبب الذي دفعني للذهاب إلى إفريقيا ومشاهدة المجاعة عن قرب. ولم يسأل أحدهم بصراحة عما إذا كانت هنالك نزعة غولية سرية في نفسي، ولو أنهم قصدوا ذلك، لأن سؤالا كهذا لن يكون مؤدبا. ففي مجتمع كبير ومزدهر ومنغلق على نفسه مثل أمريكا، ما الذي يمكن أن يدفعك لاختبار مثل هذه الأمور في مصدرها؟ بإمكانك أن تحرر شيكا لجمعية أوكسفام الخيرية Oxfam، وأن تصوّت لصالح مرشح للكونغرس يمتلك جواز سفر حقيقيا، فلماذا تشغل نفسك - وتحيط نفسك - بمعاناة الآخرين مع أنه لا يمكنك فعل شيء؟ «امض قدما في عملك» بحيث تتجنب الجمود وإصدار الأحكام القيمية حول كل مشكلة، هذا شعار اليوم، مثل استخدام أدوية تحسين المزاج، والعلاج بالوساطة.

أما الخلاف في الرأي، وكون أنه يسبب الإزعاج، فهو أحيانا يحمل سمات الاستقامة والأمانة. وبجداله مع الرأي السائد، لا يكون الخلاف في مصلحة صاحبه، والذي قد يقال عنه إنه غير وطني، ومعاد للدين، وعدواني، وغريب الأطوار، ومجنون غير وفي وغير منطقي، أو مهووس ومتكبر، أو عاطفي ومتهور. وكثيرا ما يستمتع الآخرون بمهاجمة الأهداف الثابتة، وإذا اتخذت موقفا يتعارض مع موقف الأغلبية، ستصبح ذلك الهدف. ففي المظاهرات الجريئة والغربية، تكسر الرؤوس وتطلق الرصاصات باتجاه المتظاهرين - مع وجود مريب لرجال الأمن وجمهور غير مشارك وساخر من المتظاهرين - الآملين في الحصول على حق التفاوض الجماعي أو قانون حقوق التصويت.

وهؤلاء الناشطون غالبا ذوو شخصيات غير لطيفة، ومن الصعب التوصل إلى حل وسط معهم -وأعتقد أن مشاكل القرن المقبل ستكون أكثر سخونة من ذي قبل. وبذلك يمكن أن يسبب لك الخلاف دوارا في الرأس - مع أن العكس هو المتوقع، لأن التحول إلى المعاملات الرقمية الإلكترونية كان من المفترض أن ينظم النزاهة المالية ويضمن الدعم المالي للأطفال الذين طلقت أمهاتهم، ويصون حقوق المعاقين وما شابه ذلك، إلا أنه لا يقف عند هذا الحد، بل يقوم بكل المهام التي كنا ننجزها في السابق بكلمة شرف أو مصافحة فقط. لن نحتاج إلى اختبار قدرة الإنسان الذي تتعامل معه على النظر إليك مباشرة، للتأكد إذا ما كان نزيها أم لا. ولذلك، لن نحتاج من الآن فصاعدا إلى أن نستجوب شخصا حالما، مثل «جون أوف آرك Joan of Arc» (3)، أو التحقيق معها بالدقة المتناهية من أجل إدانتها، فما علينا سوى إعادة برمجتها.

كنا، نحن الأمريكيين، في بداية الأمر شعبا ثوريا في الدين والسياسة - غير متكيفين مع مجتمع أوروبا أو مغامرين متواضعين - وعبرنا البحار الشاسعة أملا

---

(3) جون أوف آرك امرأة كانت تلبس لباس رجل حتى تتمكن من المشاركة في المعارك، وقد أعدمت حرقا عندما اكتشف أمرها ـ المترجم.

في الوصول إلى مكان وحياة مختلفين. فالتصويت بأقدامنا(4) كان في الأساس تمردا، وكانت ديموقراطيتنا خشنة غير منضبطة منذ البداية، الصياد في مواجهة المزارع، وسكان الجبال الرعاة ضد سكان السهول المتحضرين، أبناء المزارع مقابل أبناء المدن. كان على الجيل الأول من المهاجرين دفع ثمن باهظ قبل أن يستطيع الجيل اللاحق أن يعيش حياة سهلة ميسورة، وأنا كنت أعرف امرأة قبل خمسين عاما، أطلقت على سيارات «الكاديلاك» اسم «سيارات مورفي» (5)، لأن عددا كبيرا من الإيرلنديين كانوا يقومون بشرائها، بدلا من العمل كمجرد سائق مأجور على واحدة منها، ولذلك تحولت، هي وغيرها إلى سيارات من طراز «لينكولن» حتى تتميز عنهم.

ولكن، لماذا قام أشخاص أغنياء من ملاك الأراضي مثل جورج واشنطن وجيفرسون - وكانوا قد وصلوا إلى طبقة النبلاء في العالم الجديد - بمشاحنة وقتال السلطات القائمة في زمنهم؟ فرانكلين روزفلت اعتبر «خائنا لطبقته»، ولكنه لم يقدم أيا من أمواله للفقراء، مثله في ذلك مثل جون كينيدي، وهو رئيس ليبرالي آخر أتى بعده، كما أن واشنطن وجيفرسون لم يحررا عبيدهما خلال حياتهما. فلو كانوا ثوريين إلى هذا الحد، لما تمكنوا من النجاح في الانتخابات (وبالمناسبة، أنا أستغرب كثيرا من الذين يفاجأوا عندما يكتشفوا أن شخصا مثل توماس جيفرسون - والمعروف بإنسانيته - كان على علاقة غرامية طويلة الأمد مع إحدى عبداته، لأنني أعتقد بأنها ستكون مفاجأة أكبر لو قام شخص كهذا بتجاهل مشاعره تجاهها بسبب لون بشرتها). حقيقة، أين الجاذبية في الدين المسيحي، والذي ولد في ظل الاضطهاد والتمرد، وعارض الغنى والسلطة، وولد مرة أخرى في البروتستانتية التنقيحية، كما ولد مؤخرا في الأصولية العمالية؟ ومع أن أغلبنا لا يرغب في الخلاف مع دوائر السلطة الأكثر قوة، أو تحدي الظلمات التي لم تقع علينا، إلا أن المشاكسة تبقى ممارسة أو نزوة يقوم بها أغلبنا، على الأقل أيام شيخوختنا، لتحقيق احترام الذات وللوصول إلى الانسجام. فنحن جميعا نقوم بالتقليل من شأن المظالم والتجاوزات التي نشهدها، من ارتفاع أسعار أدوية كبار السن إلى سوء معاملة العرب الأمريكيين في الوقت الحاضر. ونعلم أنه ما زال بإمكاننا التظاهر في باحة البيت الأبيض (وأنا شخصيا حصل أن أشرت للأسفل بإبهامي تجاه «سبيرو اغنيو Spiro Agnew» وهو في موكب يحتفل بفوزه بمنصب نائب رئيس الجمهورية عام 1969م، في إشارة لمعارضته، ورأيته يحملق بي). ولكنه عمل متعب ومحفوف بالمخاطر في فترة مضطربة

(4) التصويت بالأقدام يشير إلى مغادرة المهاجرين الأوائل من أوروبا إلى أمريكا. فقد احتجوا على الظلم الذي تعرضوا له بمغادرة البلاد (واختيار بلاد أخرى). المترجم.

(5) «مورفي» هو اسم شائع يطلق على الأيرلنديين. وهو أيضا اسم آخر للبطاطا، والتي اشتهر الأيرلنديون باستهلاكها (دلالة على الفقر). المترجم.

كالآن، فقد تعاقب بالسجن، ولذلك نحتاج إلى كم كبير من الفظائع حتى نتخطى حذرنا وخمولنا. يقوم إيقاع النشرات الإخبارية بالتخلص من نوبات غضبنا حال تبلورها، ويجعل بذلك الحصول على كتلة حرجة من الاحتجاج أمرا صعب المنال. فرئيس الجمهورية المنتخب بطريقة مشكوكة، والمدعي العام المخيف، ووزير الدفاع المحنك، كلهم مستفيدون من ضجيج التجديد، مع أن الشكوك تراود الجميع في اليمين واليسار. فالأمور لا تسير على ما يرام، وغدت الوطنية آخر ملجأ لا للأنذال فحسب، بل للفوضى بحد ذاتها.

أصبحت فقاعة السلطة محيرة للدرجة أننا لا نعلم أين هي: المحكمة العليا، آلية التصويت، كاتب النص الإخباري، غرفة الاجتماعات العسكرية، أم ديك تشيني؟ ولا يبدو أن إبداعاتنا الإلكترونية تسهل معاملاتنا اليومية، بل على العكس، فهي تقوم بتصعيب مهامنا وتعطيل عملنا. كيف يمكن للمرء أن يبدي اختلافا في الرأي في خضم هذه الفوضى؟ كيف يمكن لنا أن نميز شخصا مثل توم باين(6) من آخر مجنون، وأن نفرق بين آخر مثل جون أوف آرك ورجل متخف بزي امرأة يلقي خطبه الرنانة عند ناصية الشارع؟ هل عليها أن تنضم إلى القوات المسلحة الأمريكية، وأن يظهر توم باين على برنامج «ستين دقيقة»؟ هذا ليس سؤالا سخيفا. استطاع «ثيودور كازنيسكي»، الإرهابي(7)، أن يسمع الآخرين صوته بشكل مقتضب، وبفعالية لا نريدها. وقد أدى نوع مختلف من حب السلطة إلى إسكات خيرة المتكلمين، مثل بيلي غراهام(8). تابعت أقوال غراهام ومارتن لوثركنغ في فترة أوجهما (غراهام في الخمسينيات، وكنغ في الستينيات)، ولم يتميزا عن بعضهما بقوة العاطفة أو الكاريزما أو المهارات الخطابية، بل تميز كنغ بمدى عاطفي واسع وبنقاط ارتكاز مرجعية، وباختصار، بما يقول. أما غراهام، فلم ينطق بأي كلام قد يثير غضب رئيس الجمهورية في كرسي الحكم، ناهيك عن تعريض نفسه لخطر الاغتيال. كانت عباراته سلسة، كمسيرة فريق كرة قدم نحو الهدف. وتكلم بأسلوب جامد لينبهك للتوقف عن خيانة زوجتك، وليحصنك ضد كل الاحتمالات الضارة، ولتغادر ملعب كرة القدم وأنت مستعد لمواجهة برودة الجو. فلم يكونا استهزائيين أو قاسيين في كلامهما، مثلما هو حال جيري فالويل - والذي حضرت خطاباته أيضا، وفي قمته الاستهزائية، في عقد

(6) توم باين كان أحد الذين هاجروا من إنجلترا إلى أمريكا وناضل في سبيل الاستقلال الأمريكي. وهو من الذين ضغطوا من أجل إنشاء نظام جمهوري في أمركيا، وانتقد العبودية. عاد إلى بريطانيا وانتقد النظام الملكي، حتى اضطر للهروب إلى فرنسا. أشهر كتاب له هو «حقوق الإنسان The Rights of Man» والذي أدى إلى إنشاء مجلس العموم المنتخب في بريطانيا. المترجم.

(7) عالم أمريكي اشتهر بإرسال متفجرات لضحاياه عبر البريد. المترجم.

(8) قسيس مشهور من اليمين المسيحي المحافظ في أمريكا. تربطه صلات وثيقة بالحزب الجمهوير منذ 40 عاما، وقد كان من أشد المؤيدين للرئيس جورج بوش الأب. المترجم.

الثمانينيات، سواء في مسقط رأسه في فيرجينا، أو في أبعد الأماكن من ألاسكا. بل كان كلام غراهام عاطفيا وسطيا، مثل قسيس معجب بإيزنهاور أو نيكسون أو من هم في حراك اجتماعي لمراكز أعلى. أما كنغ، فقد اعتبر أن الحياة أكثر تعقيدا، وأنها ليست دائما بهيجة وبسيطة، وقد تبدو في بعض الأحيان كالأحجية. بينما فالويل، وبصفته أكثر قربا للسلطة، كان يبدو إما مخمورا أو مرهقا من السفر عندما أخذ يرشدنا حول كيفية التعامل مع زوجاتنا كثيرات الشكوى، وأخبرنا بأنه يسمح لزوجته بفعل ما تشاء في المنزل، لأن العالم خارج المنزل هو عالم الرجال.

الخلاف في الرأي يشبه إلى حد ما تصرف أحد القديسين بفظاظة في المعبد، ويشمل المشي على طريق الآلام(9) في ظل حكم العصابات والديكتاتوريات. فهو جدالي ومواجهاتي، ونادرا ما يكون طريقا يؤدي إلى الحصول على ترقية في العمل. يعتقد الوسطيون بأن أولويات هؤلاء معكوسة، ويضيعون جهدهم هباء، ويتباهون بحسن نيتهم، وأنهم يروحون عن أنفسهم بسبب معاناتهم من مشاكل في الشخصية، كما كان يفعل العديد من المشاكسين المتمردين الذين عرفتهم. الاستقامة في العديد من المجتمعات تعد قريبة جدا من ذلك، فهي موضوع حساس وشائك. فالإرهاب جعل كل شخص غريب الأطوار عرضة للشبهة عند بوابات المطار، وفي أماكن أخرى تزداد اتساعا يوما بعد يوم. والاحتقار الذي أبداه جماعة «الهيبيز Hippie»، أيام الستينيات ذهب أدراج الرياح، وكذلك السخرية تجاه «آباء السبعينيات و«الصور المتحركة لأطفالهم» وكذلك ما حصل في الثمانينيات من نبذ المثالية بكل ألوانها. فنحن الآن نرفع الأعلام ونلوح بها، ولكن ما هو التأثير الاجتماعي لذلك؟ بحوزتنا كم هائل من المعلومات، لكننا نعاني من دوار للنقص في معايير السلوك. فقواعد السلوك الرأسمالية والصداقة والدين: كلها أصبحت مؤقتة، ظرفية واختيارية، لدرجة أن كلمة معيار أو قاعدة سلوك قد تسبب ظلما أو تجنيا على البعض. لقد انتزع مجالنا المغناطيسي، والجاذبية نفسها تبدو ضعيفة، لكن انعدام الوزن ليس أمرا صحيا.

خذ معايير الولاء على سبيل المثال - هل تساءلت عن ذلك الطفل الذي كان يكبرك بقليل، والذي اتخذك صديقا أيام طفولتك ودافع عنك أمام المستأسدين عليك في المدرسة؟ هل لديك أي فكرة عما حدث له؟ والمسؤول عنك في وظيفتك الأولى الذي كان نافذ البصيرة ولطيفا معك - هل ما زال على قيد الحياة؟ تدور الحياة في أمريكا حول مبدأ التسلق، ويعني ذلك أنك دائما تترك وراءك أناسا تنسى أمرهم، وتترك لمحاميك

(9) «فيا دي لاروسا»، أو طريق الآلام، هو الطريق من بيت لحم إلى القدس، والذي اضطر السيد المسيح لقطعه مشيا على الأقدام وهو يحمل الصليب على ظهره حتى يتم صلبه ـ المترجم.

مهمة تولي نفقة زوجتك المطلقة ووصايا الأموات وصكوك نقل الملكيات العقارية. تبدو طبيعة الولاء أصلا كقضية ساكنة غير متحركة: مثل النكتة التي تقول إنك لو أردت الحصول على صديق في واشنطن فما عليك سوى شراء كلب أليف. أبناؤك هم ذريتك، وقد تكون محظوظا بوجود شريك لك في الحياة، لكن هل أنت مستعد للتضحية بنفسك في سبيل أحد غيرهم؟ هذا الفصل التام مذهل تاريخيا وإنسانيا، فالروابط بيننا أصبحت ضعيفة. ففي أيام العنصرية السوداء، لم يصافح الشخص أيا كان، فالمصافحة بالأيدي كانت تدل على مضمون ما. يشبه ذلك ما كان يعرف باسم «وضعية المبشر» (10) في المعاشرة الجنسية - فقد تعرضت للاستهزاء مؤخرا، لكننا لن ننسى أمرها في المستقبل القريب، كما هو حال مصافحة الأيدي. هنالك شخص أعرفه في مكان عملي يشبه «أورايا هيب Uriah Heep»، لكن هل من الممكن أن أتعرف عليه لو صادفته عبر صفحات الإنترنت؟ لا أعتقد ذلك، فعليك أن تتابع مشيته المنحنية إلى الإمام حتى تميزه. ولن يظهر ذلك عبر الصفحات الإلكترونية.

أنا أنتمي لليمين واليسار والوسط في آن واحد، لأنني من أتباع المذهب الطبيعي، ولذلك فأنا راديكالي سياسيا، لكنني محافظ اجتماعيا، مثل الكثيرين منذ زمن «ثورو Thoreau». وكون أنني ترعرعت في أوساط السلطة، حيث إن والدي كان محاميا، فقد توصلت إلى قناعة بأن السلطة ليست سيئة بالمطلق، حتى أنني شاركت في كتابة المقالات الافتتاحية لجريدة «نيويورك تايمز» بين فترة رئاسة «هال بورلند» و«فيرلين كليكينبورغ»، وكان هذا يعني حضور اجتماعات لجنة تحرير الجريدة إذا أردت. كانت هذه الاجتماعات مليئة بالمشاجرات، وتوقفت عن الحضور بعد مدة، لأنني أعاني من مشكلة في النطق ولا أستمتع بالنزاعات الكلامية، ولو أنني أحببت ماكس فرانكلين ونائبه جاك روزنزال، اللذين ترأسا الاجتماعات ثلاث مرات أسبوعيا وجلسا على طرفي الطاولة الطويلة واللامعة. كانا حليفين في عملهما وجارين في «ريفردايل Riverdale»، ويأتيان معا للعمل في سيارة الليموزين التابعة للشركة. وعلى الرغم من أنهما يشتعلان طموحا (فقد أشرف جاك في صفحة التحرير بعد ماكس، عندما ترقى الأخير للإشراف على بقية الجريدة) إلا أنهما كانا أكثر لطفا من بقية طاقم الجريدة. صحيح أنني تعرضت لاختبارات صعبة حتى حصلت على وظيفة عندهم، لكنني لم أشهد أحدا منهما يعامل الآخرين بفظاظة. وجاك أفضل محرر تعاملت معه على الإطلاق.

لم تناقش مقالات الجريدة في هذه الاجتماعات، بل كانت تتخذ القرارات الإدارية فيها، بالإضافة إلى إبرام الاتفاقيات الشفهية. فالمواضيع الشائعة، مثل العمال والعمل

(10) المقصود بوضعية المبشر وضعية المعاشرة الجنسية التقليدية التي يرضى عنها رجال الدين. المترجم.

والحكومة المحلية والفيدرالية والكونغرس والسياسة الخارجية والأمور الثقافية والقضائية، كلها كان لها اختصاصيوها، لكن أحدا لم يستطع الكتابة في موضوع تخصصه إلا بعد الحصول على موافقة عامة، أو على الأقل وساطة جاك أو ماكس عند تجهيز الجريدة للطباعة. وكان بإمكان الخصوم متابعة ما يحدث عن قرب، دارت النقاشات حول طبيعة وحدة موقف الجريدة من القضايا العامة، حتى يكون الموقف ذا تأثير وطني واسع. لم يكن بيننا أحد من السود أو اللاتينيين أو الآسيويين أو الشواذ جنسيا، وكان التركيز على مواضيع مثل «العمال»، على سبيل المثال، ينطوي على مفارقة تاريخية، لو أخذنا بعين الاعتبار خطر تفاقم مشكلة التشرد وانعدام الرعاية الصحية والضمان الاجتماعي، والذي كان أكبر من نشاط أي نقابة أو إضراب كان. لم ننشر في ذلك الوقت أية مقالات بيئية. كانت وظيفتي أن أكتب بإعجاب عن الطبيعة في الربيع - وعلى شكل نشوات بسيطة - لا أن أناضل في سبيل بقائها العالمي، فقد كان هذا التطور متروكا لمستقبل التايمز، كما تأجل الاعتراض على العنصرية العرقية إلى حين ظهور رجال بيض ليبراليين اتخذوا مواقف محترمة منها. (حتى جاك روزنيثال نفسه ذهب ذات ليلة ليسمع خطاب جيسي جاكسون في نيورك، قبل أن يعتبر عمل كهذا ضروريا).

ومع ذلك، كان لدينا عام 1979، عدد من النساء الناشطات في سبيل حقوق المرأة. كانت هذه القضية من القضايا الجديدة الوسطية، فلم تكن معقدة، بل سهلة الهضم. فبالإضافة إلى ناقدة الهندسة المعمارية البارزة آدا لويس هكستابل Ada Louise Huxtable - والتي كانت امرأة مثقفة حازمة، وأنيقة إلى أقصى الحدود، جلست بجانب ماكس أو جاك في الاجتماعات، وكأنها فوق الجدال والمواضيع الخلافية، وتعلم ما سيستقر عليه الأمر - بالإضافة إليها كان لدينا بعض المتحمسات، مثل سوما جولدن Soma Golden المشاكسة، والتي كانت مهووسة بالاقتصاد واقتربت شيئا فشيئا من مواقف تحرير المرأة الأكثر انفتاحا. جلس الحفلاء معا حول مائدة الاجتماعات. وعلي أن أعترف أنني جلست بادئ الأمر إلى جانب الرجال ذوي الشعر الأبيض والرؤوس الصلعاء، وعلى الطرف المقابل لسوما وماري كانتيل، والتي تحولت إلى كتابة المذكرات بعد ذلك بمدة. كنت أؤيد التطلعات التقدمية في السياسة، لكنني اتخذت مواقف أكثر محافظة مما يجب في الشؤون الاجتماعية، في زمن كانت فيه قضية المرأة، على حد قول إيمرسون «مشرفة لهذا العصر».

لم يطلع أي منا على النقاشات التي دارت بين ماكس وجاك وناشرهم سولز بيرغر، الملقب بـ «الملاكم». لكن جاك احتفظ بمجسم من الألمنيوم في مكتبه، على شكل بهلوانيين يتأرجحان على طرفي عمود أفقي في وضع متزن، لتذكره دائما بطبيعة عمله، والذي جعله يتلقى مكالمات هاتفية من سماسرة السلطة

الغاضبين أو الممتنين أو المراوغين صباحا، ثم يغلق هاتفه عصرا عندما يبدأ بالعمل على صفحة التحرير لجريدة اليوم المقبل. كان يغير لباسه، من بدلة فاتحة اللون إلى أخرى داكنة في اليوم الذي يلي عيد العمال من كل عام، وبغض النظرعن حرارة الجو. لم تكن جريدة التايمز مثل دفة السفينة العمودية، بل كانت كالعارضة الرئيسية الأفقية في السفينة، فالعارضة نحتاجها قبل الدفة(11). ومع ذلك، تحتاج كل سفينة بين الفينة والأخرى إلى تغيير اتجاه سيرها، وكنا نقوم بتوجيه دفة السفينة بطرق متباينة ومترددة في آن واحد. ازداد ميل الموظفين في الطابق العاشر، كلما تقدموا في العمر، نحو البقاء مع الجريدة، فهم من المدمنين على عملهم، وقد عمروا مع هذه المؤسسة، وهم صحفيون خبراء - وكانوا يوزعون حكمتهم التقليدية ويدونونها ويدعمونها، وفي عبارات حيوية قدر الإمكان، مع تعديلات بسيطة كلما لزم الأمر. يتساءلون: هل يمكن أن نقول هذا؟ متى سيكون بإمكاننا قول مثل هذا؟ - أي أنهم كانوا يحاولون تخفيف الصدمة إن أمكن. لم تكن هنالك فرصة لتعديل المسار الوسطي المثالي؛ ودارت الصراعات بين أفراد تمركزوا بطريقة آمنة في وسط النهر، ولم يتركوا المجال لغيرهم للوصول إلى مقر القيادة. حتى ماكس نفسه،كرئيس مكتب واشنطن، تفوق عليه صحفيان من الواشنطن بوست، هما وودورد وبيرنستين، في قضية «ووترغيت» لأنه تلقى تعليمات من كيسنجر نفسه بالتزام الصمت حيال الموضوع، كما أنه كان مترددا في تصديق الأمور السلبية التي تخص المسؤولين الكبار: وهي خلفية مثالية لوظيفة كاتب، والتي سينظر إلى ما كتبه بعد عقد من الزمان لتكتشف هزالته، وبعد جيل ليكتشف خلوه من المضمون. تغير «عرابو» التايمز من «أيب روزينثال» المريع (والذي لا تربطه صلة قرابة بجاك)، إلى ماكس عندما ترقى وحصل على المنصب الأعلى في المؤسسة، ومن ثم إلى شخص طيب النفس يهتم بالقضايا الإفريقية اسمه «جو ليليفيلد»، ثم إلى «هوبل رانيز»، قبل أن يعود ليليفيلد لتسلم قيادة الأمور مرة أخرى. وعلى الرغم من كل هذه التغييرات، كان بإمكان أي صحفي عادي أن ينقل إلى دائرة أخرى، أو أن ترفض مقالاته ويمنع نشرها، إلى أن يغير مواقفه من تلقاء نفسه ودون ضرورة فصله، إذا لم تكن تغطيته الإخبارية تتفق مع وجهة نظر الجريدة. فقد خلت هيئة الإدارة من المشاكسين المخالفين حين تركتها. وسألني جاك ذات مرة، عندما حلت الذكرى الخامسة والعشرون لتخرجه من جامعة هارفرد، عما يمكن أن يكتبه عن نفسه في الكتاب السنوي. أنا شخصيا أحببته، وقلت له ذلك صراحة، لكنني ازددت راديكالية نتيجة للدمار الشامل الذي حل بالبيئة، وتوقفت عن الكتابة الروتينية المقتضبة على طريقة أناشيد الربيع.

المخالفة في الرأي مثل الخميرة التي تجعل العجين جاهزا ليخبز، أو المظاهرة

(11) دفة السفينة العمودية rudder هي التي توجه سير السفينة، بينما العارضة الأفقية Keel هي التي تحفظ توازنها. المترجم.

الرعناء التي تطلق شرارة الإصلاح. لكنه ليس ملائما لمن يريد أن يسعى وراء لقمة عيشه. فهو يتسبب في الطلاق، ومعاناة الأطفال. وقد تكون له آثار مدمرة، فصناع السلام يتعرضون للاغتيال، بينما تعرض آخرون أقل مكانة منهم، وأكثر خطأ، للذم والقدح والإفقار ولأمراض القلب والقرحات المعوية. أما القضاة التابعون لنظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، والذين أرسلوا نيلسون مانديلا إلى السجن، كانوا بالتأكيد من الرجال الناجحين في عملهم، والمتزنين في شخصياتهم، مثلهم مثل القضاة الفرنسيين الذي أحرقوا «جون أوف آرك» في روين، والقساوسة الرومان الذين أعدموا عالم الفلك الفيلسوف جيوردانو برونز. أيامنا هذه، لا يأبه المسؤولون المنطقيون أننا قد ندمر نصف الأصناف الحيوانية والنباتية خلال العمر الزمني لإنسان واحد. وهل بإمكانهم تخيل ما الذي كان سيحصل لو أننا منحنا الجنود الثلاثة الذين أوقفوا مذبحة «ماي لاي» رغم تعريض أنفسهم للخطر - وبعد أن قتل زملاؤهم 400 فيتناني - وسام الشرف الأعلى في باحة البيت الأبيض، بدلا من تجاهلهم التام طيلة ربع قرن؟

الذين يقفون وأيديهم وراء ظهورهم هم الذين يحصلون على تلك المكافآت، بينما يتحول الآخرون إلى نكرات لو كان تكريمهم محرجا وغالي الثمن. ويمكن أن تشهد ذلك في المدارس الابتدائية وفي سن المراهقة وعندما تصل إلى الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من العمر. للنزاهة والاستقامة ثمن، فقد تعرض أغلب المناضلين الشرفاء الذي عرفتهم للخيانة. لا يعني ذلك أنك لا تستطيع الوثوق بأي أحد، لكن معظم رجال السلطة من الذين لا يمكن الوثوق بهم. «معادون للفاشية قبل الأوان» هو اللقب الذي أطلق على كتيبة «إبراهام لينكولن» من قبل الجيش الأمريكي عام 1942م، بعد أن بدأت الحرب الكبرى ضد النازية. ذهب هؤلاء إلى إسبانيا عام 1973م لمحاربة الجنرال فرانشيسكو فرانكو وتعرضوا للقصف المدمر من قبل سلاح الجو الألماني دون أن تأتيهم المساندات. وعندما عادوا والتحقوا بالخدمة العسكرية مرة أخرى بعد معركة بيرل هاربور عام 1941، كانوا قد أصبحوا عرضة للشبهة. ولذلك لم يسمح لهم بمغادرة معسكراتهم إلا قليلا، مع أنهم هم الذين تعرضوا للخيانة المطلقة في حملتهم الأولى في إسبانيا.

منع إيمرسون - وهو أيقونة الأدب الأمريكي - من إلقاء المحاضرات في جامعة هارفارد لمدة 30 عاما بعد أن ألقى محاضرة مثيرة للجدل تحت عنوان «خطاب مدرسة المطلق»، والتي يحتفل الآن بعبقريتها؛ بينما لم تتم دعوة «ثورو Thoreau» إطلاقا للحديث في هارفارد، مع أنه أيضا من خريجيها اللامعين ويسكن بالقرب منها. فقد كان اهتمامهما بالديانات الآسيوية أكثر بكثير مما ينبغي للغايات الأكاديمية، بالإضافة إلى أنهما ناصرا «جون براون»، واتخذا مواقف متطرفة أخرى، لدرجة أن إيمرسون تكلم في اجتماع

المؤتمر الوطني لحقوق المرأة عام 1855م. «الحياة نشوة»، حسبما كتب في كتابه «سلوك الحياة» والذي ما زال مبدأ ثوريا لأن إحساسنا بالاهتمام الذاتي أحيانا يظهر انغمارنا فيها. فالتعامل مع التألق صعبة للغاية. لا يريد أحدنا أن يظهر بمظهر «المختلف عن طريق الآخرين» لفترة طويلة. ومع مرور الزمن يمكن أن يشك الإنسان إذا ما كانت حياته ذات معنى أصلا.

أكاد لا أنظر إلى صورتي في المرآة منذ سنين (فأنا لا أستخدمها عند حلاقة ذقني)، فقد كونت صورة ذاتية عن نفسي، مثلما فعل الآخرون، أحملها معي أينما ذهبت. لا أقصد بذلك الشخص هويتي المعلنة - ذلك الشخص الكهل المنضبط الذي يتقن الظهور بمظهر زائف - بل قصدت ذلك الشخص الذي أتمنى أن أكون مثله، والذي يستعد للقاء خالقه في نهاية الأمر.. هل سأحتاج حينها إلى عكاز يدعم روحي، مثلما احتجت إلى جبيرة لعلاج مرض بأعصاب يدي؟ يبدو أنني مرتاح البال أكثر من ذلك، ولو أنني أتعثر في مشيتي أكثر من السابق. المرآة تذكرني بالمتاعب التي مررت بها، بالإضافة إلى ملامحي الساخرة. أعرف أنني أبالغ بعض الشيء؛ فالتقدم في السن أمر بيولوجي، ولا يقتصر على كونه خريطة للإهانات والمفاجآت التي تعرضت لها، أو اليأس الذي أحسست به. تحاكي تجاعيد الوجه الآمال غير المحققة، ولو أنها ليست نتيجة لها، ولا تعطي انطباعا صادقا عن الفرحة التي شعرت بها كل يوم طيلة حياتي (أو على الأقل صباح كل يوم). فالعديد من الذين ينتابهم شعور بالمرارة في منتصف عمرهم، يمتلكهم شعور بالامتنان عند بلوغهم سن السبعين لمجرد أنهم مروا بحياتهم بسهولة، رغم أن ما واجهوه في حياتهم أثقل كاهلهم، ويتكتمون على شعورهم بالفخر لأنهم لم يردوا على من أهانهم. ومع أنهم امتصوا هذه الصدمات، إلا أنهم لا يعتقدون أن الحياة يجب أن تخلو من الصعوبات. مثلهم في ذلك مثل توماس مان، الذي يقول في روايته الأخيرة إن علينا أن نعيش مثل الجنود، حتى لو لم نكن جنودا، وكيف يمكن أن تصبح جنديا دون المرور بمعسكرات تدريب قاسية؟

إذا أردت أن تكون جنديا ونصيرا في المقاومة في الوقت نفسه، فذلك يتطلب أن تتمرد أحيانا لأن الجيش يقتل أيا كان إذا صدر له أمر بذلك. والامتثال والخلاف لا يمكن اعتبارهما نقيضين متكافئين، لأن متمردا واحدا ليس بقوة عصابة مسلحة منسجمة. الحكمة التقليدية هي التي أدت إلى اعتقال والد ديكنز ودسه في سجن المدينين، وهي التي أدت إلى شنق نشالي لندن الصغار حتى 1860م. وهي نفسها التي تؤدي باستمرار إلى تشكيل العصابات المسلحة في بلادنا، وهي التي سمحت لأهالي تكساس وكاليفورنيا بتشغيل الأطفال المكسيكيين ساعات طويلة لدرجة لا تعقل. على المخالف أن يوقظ نفسه – ثم يوقظ ضمائرنا من سباتها – إذا أراد أن ينتبه

للأحداث، مثلما فعل جوزيف ديلش، وهو محامي من بوسطن، عندما هاجم جون مكارثي (12) لفظيا أيام الجلسات القضائية التي عقدها عام 1954م، بعد أن أثار الرعب من الشيوعية في أمريكا. فقد ظهر ويلش على شاشات التلفاز وصرخ بطريقة متلعثمة «ألم يتبق لديك ذرة من اللباقة يا سيدي؟ هل فقدت كل آداب سلوكك؟».

أصبح وجود الكاميرات متطلبا سابقا لتفعيل أعمال الضمير عندنا. فلولاها، لكان بإمكان رئيس شرطة بيرمغهام في ألابما - وهو بول كونور - أن يستمر في مهاجمة المتظاهرين بخراطيم إطفاء الحرائق كما يشاء. وكذلك حال الرهبان البوذيين في سايغون، والذين لولا وجود الكاميرات، لما حازوا على جمهور عالمي يشاهدهم وهم يحرقون أنفسهم احتجاجا على حكومة دييم Ngo Dinh Diem العملية. وبشكل عام، يمكن أن نقول إن المخالفين في مجتمعنا هم غريبو الأطوار الذين يشرفون على مخازن الأغذية والملاجئ التي تخدم الأقل حظا (13) في مجتمعنا المريض. فلو لم تدفعهم شكوكهم للعمل التطوعي، لتحولت جراح مجتمعنا إلى عاهات دائمة. وكما يمكن للضحك أن يكون مخالفة، كذلك يمكن أن تكون الجدية، بينما الامتثال للأعراف السائدة مثله كمثل طالب في إحدى الجمعيات الأخوية الطلابية، يتكلف الابتسامة من طرف فمه عندما لا يراه الآخرون، إلا أنه يبصق على الأرض ويتبول بين السيارات عندما يخرج من الكنيسة إلى موقف السيارات.

عندنا بالفعل تقليد باحترام حرية الرأي (فالرهبان الذين ضحوا بأراحهم في تيبت لم تنقل أخبارهم في الصحافة الصينية على الإطلاق)، بالإضافة إلى تجاوبنا المدني للمقاومة السلمية، بحيث أصبح بمقدور أشخاص مثل مارتن لوثر كينغ، وغاندي في الهند أيام الاستعمار البريطاني أن يظهروا عصيانا مدنيا رمزيا دون أن يتعرضوا للسجن المؤبد أو القتل على أيدي الشرطة. فلو كان هنالك شخص مثل غاندي في الجزائر أيام الاستعمار الفرنسي، أو في روسيا السوفييتية، أو صربيا تحت حكم ميلوسيفتش، لما تجاهلوا أمره بهذه السهولة. وعلى الرغم من أن المواطن العادي لا يحتفل بضماناته الدستورية (بل من المرجح أن يقوم بمهاجمة المسؤولين، أو عزلهم من مناصبهم بسبب آرائهم السياسية الرعناء)، فإن المحامين يتذكرونها باستمرار، ويذكّرون الشرطة بها صباح اليوم التالي، وبعض خريجي الجامعات وكذلك ذوي التعليم الذاتي. وأنا بالتأكيد لي آراء لن يتفق معها جيراني - ويجب أن يكون الأمر كذلك وإلا لما زلنا نعيش في الأدغال. وأنا متأكد من أن الأجيال القادمة ستوافقني الرأي، ألا تعتقد ذلك؟ عدد كبير منا هم مخالفون صامتون،

---

(12) مسؤول في مكتب التحقيقات الفيدرالية أثار مخاوف الأمريكيين من تغلغل الشيوعية سرا إلى أمريكا، وقد أدى ذلك إلى اتهام العديد من الأمريكيين بالتعاون مع المؤامرة الشيوعية ضد أمريكا، لدرجة أن بعضهم تعرض للمحاكمة. المترجم.

(13) الأقل حظا Walking wounded وتعني الذين يشتغلون رغم مرضهم. المترجم.

ونحن على علم بعلات الدنيا أكثر من الآخرين، ومع أننا لسنا مثل غاليليو أو جيوردانو برونو، إلا أنني متأكد من أن أي شخص يكسب من الحياة أكثر منا فهو خائن إلى درجة ما، ألا توافقني الرأي؟ مات توم باين بعد أن استهزأ به أمثال جون آدمز، بينما لقيت جون حتفها في المحرقة في روين عام 1431م، وقد تعرض أحد القضاة للسجن لأنه اعترض على محاكمتها، بينما حكم على الراهب بيير بوسكيه بأن يحرم من كافة المأكولات ما عدا الخبز والملح لمدة 8 أشهر، لأن أحدهم لاحظ أنه تحسر عليها عندما رآها تحترق، وهذا بعد أن تذلل واعترف بخطئه علنا.

لم يكن معظمنا ليعترض إلى هذا الحد، فالخطر كان سيخيفنا بالتأكيد. على الأرجح أننا كنا سنقول إنها جنت على نفسها هذا العقاب، مثلما فعل جون واكر ليند وغيره من المثاليين المشوشين. كانت جون ذات تأثير رئيسي، لا ثانوي، لكنها ذات شخصية وإلهام مبهمتين، لدرجة أن مثيلا لها مختلفا وأكثر صلابة قد نجده اليوم في تجاوبنا للمآسي العظيمة التي أخذت تتبلور أمام أعيننا، والتي في ظاهرها يبدو أنها ستستمر إلى الأبد، مثل وباء الإيدز وانتشار المجاعات في إفريقيا، والمحرقة العالمية التي أنزلنا بها على أشكال الحياة الأخرى عبر العالم. وفي كل مرة تحصل فيها مصيبة، لانستجيب. فنحن بدينون، نعمل في حدائقنا ومنازلنا، ولانبالي بالآخرين. ستفشل القنوات التلفزيونية فشلا ذريعا لو أنها أخذت تبث صور الأطفال المصابين بـ «الهزال الذين يموتون جوعا»، أو أشكال الحياة التي تتعرض للانقراض الجماعي، وكذلك لن تكون استجابتنا طيبة لمشاهد القصف السجادي لو أن تلك الصور التقطت من الأرض بدلا من تصويرها جوا بحيث تبدو كلعبة نينتيندو Nintendo الممتعة. ولن نستمتع بسماع أصوات ملايين البشر وهم يتعرضون للتعذيب من قبل دكتاتوريات حليفة لنا في دول العالم الثالث بناء على توصياتنا. بل نريد أن نستغرق في مقولاتنا الطنانة - فنحن أمة واحدة مؤمنة ومتوكلة على الله، نسعى من وراء اللذة كما نسعى من وراء الطيبة والصلاح. وللأسف أن حرية الكلام لاتعني بالضرورة أنك سوف تبدع شيئا جديدا في كلامك، كالتوصل لتعريف ما هي الطيبة أو الصلاح. ومع ذلك، ومن بين كل عشرة منا، تجد تسعة يعتقدون أنهم يعرفون ما هي. ونعلم أن الاحتجاج والتمرد متأصلان في الصدق والإيثار الغيري، فهنالك قوانين أكثر سموا. فالاستقامة لا تعني مجرد الالتزام بالمبادئ، ودفع رسوم النقابة (كان بعض الشعراء اليديشيين من أصحاب مذهب «اللا أدرية» الدينية يجتمعون في نقابة عمال الطلاء في نيويورك). فنمو الاستقامة عملية مستمرة، ولا يخطط لها مسبقا، وعندما يكون حظك سيئا قد تجد نفسك في معركة سابقة لأوانها ضد الفاشية أو متطوعا مثل ثورو، متقدما على بقية الأمريكيين بقرن من الزمن ومسجونا لاتخاذك موقفا ما.

لا يمارس إلا القليل منا تعليمات دينهم، ونحن نعلم أن الديموقراطية الفجة ستكون

مفرطة لدرجة أنه يجب كبح جماحها، ومع ذلك يصل العديد من السفهاء إلى المناصب العليا وينصبون سفهاء آخرين مثلهم بمناصب تمنحهم سلطة لا يتمتع بها سوى القليل من المسؤولين المنتخبين من قبل الشعب، وبذلك نجد أنفسنا مستبعدين من قبل أشخاص مثل روبرت مكنامارا (14)، والذين يعتذرون عن أفعالهم لاحقا. ويمكن أن تتشعب السلطة في الديموقراطيات بطريقة مثيرة للسخط، فالقلة من أصحاب المناصب كان سيتم انتخابهم لو أنهم صدقوا في حملتهم الانتخابية. ونحن نفترض مسبقا أنهم أوغاد على المسرح - بمكياجهم وتمثيلهم. وبذلك يمكن أن نعتبر أن نظام قضائنا يجسد الديموقراطية الحقة إلى حد أكبر، ولو أن المحامين يتقاضون أجورا أعلى من اللازم، لأن الذين يصدرون الحكم هم اثنا عشر شخصا اختيروا عشوائيا (15)، لا يتقاضون أجرا يذكر. وفي السياق نفسه، لا نثق بهيئة المحلفين إذا امتنعت عن إصدار حكم لعدم قدرتهم على الاتفاق، فهم يذكروننا بالذين يتكاسلون عن جز عشب منازلهم في حارتنا لدرجة أن منظر شارعنا يصبح قبيحا. ورغم هذه الاستثناءات، إلا أننا نجد أنفسنا في الأنظمة الديموقراطية ميالين للفرد الذين يضرب فيه المثل كأقلية من شخص واحد فقط، صاحب الأفكار التي يصعب التنبؤ بها. فقد لا نعجب بغروره أو اهتمامه بالشكليات، مثل تذمره المعتاد وانتقاداته الزائدة على حدها، ورؤيته العالم من خلال عدسة المخالفة وحدها. لكن هذه العدسة تصبح عظيمة الأهمية كنظارة القراءة عندما تكشف لنا أكاذيب الآخرين، والكذب هو ما نريد تجنبه منذ البداية.

طلبت مني «أونغ سان سو كي Aung San Sue Kyi» أن أحضر لها موسوعة لمساعدتها في قضاء وقتها أثناء سنوات حبسها العشر، ويا لها من مكافأة مبتذلة في أن تصبح مشهورة في المستقبل بسبب سنوات من الصمت والسجن. كما أن شهادتها على معاناة شعبها وثيقة الصلة في الموضوع. يمكن اعتبارها الأكثر شهرة بين عشرات الآلاف من مساجين الضمير غير المعروفين حول العالم، والذين كلما نقص عددهم بسبب الموت أو العفو، احتجز عدد آخر ليحل محلهم. ونحن نعلم طبيعة السجانين، كما أننا نعلم أن هنالك وفرة من الواشين والمتآمرين الذين يمكن أن يكشفوا للسلطات مخبأك مقابل 100 دولار - إضافة إلى الصحافة المروضة التي لن تذكر شيئا عن الموضوع. فالعبيد القمعيون عديمو الرحمة يمكن أن تجدهم في كل مكان، وكذلك الصحافيون المبتذلون. ونعترف جميعا بالصمت الجبان الذي نلزمه للحفاظ على وظائفنا.

أنا لا أثق بصدق السلطة وعدالة الرأي العام. ولكن لو استثنيت الحثالة التي تطفو

(14) روبرت مكنامارا كان وزير الدفاع الأمريكي أثناء حرب فيتنام. كذب على الشعب الأمريكي حول عدد القتلى من الجنود الأمريكيين، حتى يخفف من حدة الاحتجاجات الشعبية. وقد اعتذر عن ذلك بعد أن انتهت الحرب. المترجم.

(15) المقصود بالاثني عشر شخصا أعضاء هيئة المحلفين في نظام القضاء الأمريكي، والذين يتم اختيارهم عشوائيا، ومن عامة الشعب. المترجم.

على سطح المجتمع، والتي منهم يأتي السجان ورجال الدعاية، لوجدت أن الأناس العاديين على المدى الطويل يغمرهم إصرار حميد وحتى بهيج، إصرار هو محرك الديموقراطية حين تعمل. على مدى مئات السنين، تعرض النشالون الصغار للشنق علنا، وبحضور رجال الدين، وهم يبكون، إلى أن اهتم آباء وأمهات الأطفال الآخرين، ليتقدموا وإن بتردد بشكاوى مرتبكة وخائفة، ولقد تخلينا عن أساليب التعذيب الأخرى التي انتشرت في السابق (مع أنني لا أعتقد أن التعذيب أقل أنتشارا في العالم الآن، كما أن عدد الأطفال الذين يموتون موتا أكثر إيلاما وبطئا في المجاعات يفوق عدد الذين أعدموا في «تايرن هيل» بآلاف الأضعاف). لكن إصلاح الدمار الذي ألحقناه بالبيئة أكثر إشكالية من ذلك، فعندما نصل إلى مرحلة الكتلة الحرجة من التدمير، سيكون الأمر كما لو توقفنا عن إعدام الأطفال بعد أن قتلناهم جميعا.

الخلاف في الرأي جوهري - فهو يتخلص من الجراثيم ويصفي الأرواح - حتى لو جاء متأخرا. فلا تتردد في الثورة والهيجان - بل أطلق صرختك بطريقة الذين أنشأوا مؤسسة «الأرض أولا» للحفاظ على البيئة، فهذا جزء من الحياة. تعرض جيوردانو بورنو للصلب والحرق بعد أن ربط لسانه بأداة تعذيبية حتى يتأكدوا من أنه لن ينطبق بالحقيقة كما يراها للجمهور في «كامبو دي فيوري»، بينما اشتعلت النيران في أغصان الأشجار، (ولم يكن ذلك لتفادي جرح شعور الآخرين). لكن الخلاف أداة للإحسان أيضا، فنحن لا نريد أن يعدم المعاقون عقليا وأن يموت المهاجرون غير القانونيين عطشا في الصحراء، أو نقضي على سلاحف البحر لنستمتع بكوكتيل الإربيان، أو أن نطور طائرات بلا طيار تمكننا من اغتيال أي شخص بمجرد التعرف على تركيبته النووية DNA . فنحن نخالف القسوة والجشع، والذاتية والعدمية، ومحبي الحروب ومقتلعي الأعين (وأقصد بهم الذين يدمرون المناظر الخلابة الطبيعية التي تتغذى بها أعيننا).

لن تستطيع المخالفة والاحتجاج إذا لم تربطك علاقة حميمة بمعتقداتك. أما بعد الحصول على ذلك، تغدو المخالفة رهنا لمزاجك. والمواقف ثنائية السلبية - مثل ألا تعجب بأشجار السيكوية أو الكاتدرائيات، ثم تعارض التخلص منها - تؤدي إلى إبطال ادعائك بالخلاف. فالموت، على سبيل المثال، سيكون لغزا لي و لغيري. ولا أتوقع أنه المسيح أو حتى مجرد كيمياء حيوية. (ولا أستطيع أن أتخيل ما هو المخلوق المسكين الذي يمكن أن يتمنى أحدنا أن يعود إلى الحياة على شكله بعد وفاته). أنا أعتقد أنه أكثر من مجرد وفاة أو عظام مجردة في قبر. وهذه القناعة هي التي تدفعني للسعي وراء الحفاظ على الألغاز والأسرار والجمال والتعقيدات في عالمنا هذا.





تقسيم الغنائم

بقلم: مايكل بيسكلوس

ترجمة: شادي عمران بطاح

العنوان الأصلي للمقال: **Dividing The Spoils** ونشر في مجلة **Smith-sonian** عدد ديسمبر **2002**



كتاب جديد، يعيد المؤرخ مايكل بيسكلوس الحياة إلى مؤتمر بوتسدام الذي عقد عام 1945، والذي أظهر فيه هاري ترومان قدراته الرئاسية وحدد فيه شكل أوروبا ما بعد الحرب.



ستقسم برلين (والتي تقع إلى الشمال بالنسبة لبوابة براندينبرج التي تظهر في يسار الصورة الملتقطة في يوليو 1945) إلى قطاعين غربي وشرقي متساويين تقريبا، مما سيشعل صراعا امتد لنصف قرن. اجتمع تشرشل و ترومان و ستالين في مدينة بوتسدام التي تقع على بعد 22 ميلا من برلين.

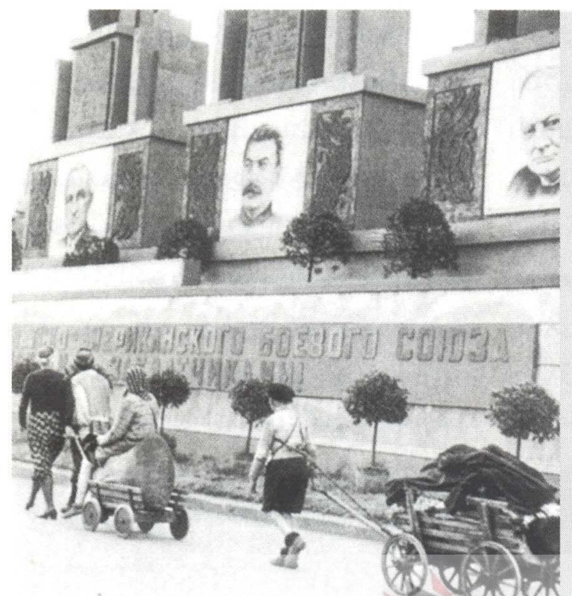
في مطلع فبراير من عام 1945، وعندما أصبحت هزيمة ألمانيا نتيجة محتومة أخيراً، اجتمع الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت، ورئيس الوزراء وينستون تشرشل، والرئيس جوزيف ستالين في مدينة يالطا الواقعة على البحر الأسود بهدف دراسة مستقبل أوروبا والتحضير لاجتماع لاحق في مدينة بوتسدام الألمانية، والذي سيصبح اسمه (يقصد لقاء بوتسدام) مرادفا لأعلى مراتب فن ممارسة الحكم.

في يالطا، أكد قادة الثلاثة الكبار أنهم لن يقبلوا بأقل من استسلام ألماني غير مشروط، ومطالبة ألمانيا بدفع تعويضات للمنتصرين، وتقسيم الدولة المهزومة إلى أربع مناطق محتلة من قبل الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، والاتحاد السوفييتي على التوالي. لم يعش روزفلت، والذي كانت إرادته الحازمة حاجة ملحة لصياغة تلك الاتفاقيات، حتى يرى نهاية الحرب. في 12 إبريل، وقبل أقل من ثلاثة أسابيع على إقدام هتلر على الانتحار واستسلام ألمانيا، توفي روزفلت في وورم سبرينغز في جورجيا. بعد ذلك، أدى نائب الرئيس هاري إس ترومان، والذي كان ذا خبرة ضئيلة في شؤون السياسة الخارجية، اليمين الدستورية ليصبح رئيس الولايات المتحدة.

يستند المؤرخ مايكل بيسكلوس في كتابه «الفاتحون: روزفلت، وترومان، وتدمير ألمانيا الهتلرية، 1945-1941» إلى وثائق أمريكية وسوفييتية تم الكشف عنها حديثاً، ويستخدمها ليصف المناورات الدوبلوماسية. يعتقد بيسكلوس وهو مؤلف ستة كتب أخرى، أنه كان على روزفلت وترومان الإجابة عن سؤال جوهري: «هل افترضا أن الألمان، الذين أذلوا بهزيمتهم، سيتحولون قريبا إلى أدولف هتلر آخر؟ أم هل أنهما خاضا الحرب العالمية الثانية وهما يعتقدان بإمكانية تحويل مسار التاريخ الألماني باتجاه ديموقراطية دائمة؟». يواجه سؤال مشابه الإدارة الأمريكية الحالية وهي تبني تصورها لعراق ما بعد صدام حسين.

تصور المقتطفات التالية من كتاب بيسكلوس الرئيس ترومان، الواثق بنفسه بشكل متزايد، وهو يتشاحن مع ستالين وتشرشل في بوتسدام (وهو موقع انعقاد مؤتمر الـ 17 يوما في يوليو وأغسطس) حول تنقيح مقررات مؤتمر يالطا.

لم يسبق لترومان أن قابل تشرشل أبدا قبل بوتسدام. لقد ذكر ترومان في دفتر يومياته أنه عندما عرج عليه رئيس الوزراء تشرشل في فيلته صباح الاثنين 16 يوليو: «ذكر لي الكثير من الهراء عن مدى عظمة بلدي، وعن مدى حبه لروزفلت، ونيته أن يحبني». وكما تذكر ترومان عام 1945 قائلاً: «لقد أحببته منذ البداية...أعتقد أنه كان متفاجئا ومسروراً عندما قابلني. لقد تم إعلامه مسبقاً بكل تأكيد أنه سيتعامل مع رئيس غير كفء، ولكنني أعتقد أنه غيّر رأيه».



لقد ذكر منظر أهل برلين الذين طردتهم القوات الروسية ترومان بجدته المطرودة.

تم إخبار ترومان أن ستالين سيصل بوتسدام متأخراً. لقد وفر ذلك له بعض الوقت، وقرر الرئيس التجول في برلين. عكف الفاتحون مثل جنكيز خان ويوليوس قيصر، والذين قرأ عنهم ترومان بنهم شديد عندما كان صبياً، على تنظيم مواكب عظيمة يستعرضون فيها الأراضي المهزومة من على صهوات خيولهم. لو تسنى لروزفلت أن يحقق حلمه في التجول في برلين المهزومة، لوصل بلا شك إلى عاصمة هتلر ترافقه المظاهر الاحتفالية.

ولكن ترومان كان أكثر تواضعا. لقد استقل بكل بساطة المقعد الخلفي لسيارته الـ «كرايزلر» المكشوفة، يرافقه كل من وزير خارجيته الجديد جيمس بيرنز ورئيس طاقم الرئاسة ويليام ليهي، وطلب من سائقه الانطلاق بها. وعلى امتداد جانب الطريق رأى ترومان موكبا لا نهاية له من رجال ونساء وأطفال يحدقون جميعهم إلى الأمام، ويحملون ما استطاعوا من مقتنياتهم، بعد أن طردهم الروس من منازلهم، متحركين بلا هدف محدد.

لقد ذكر منظر الألمان المهزومين وضحاياهم ترومان بجدته «الكونفدرالية» وعائلتها بعد الحرب الأهلية الأمريكية. لقد تجولوا لأسابيع على طول طرقات ميسوري الحارة، بعد أن أجبروا على ترك مزرعتهم امتثالاً لقوانين الشماليين، حتى وجدوا مكانا آمنا للإقامة لقد فكر بملايين البشر الذين يمرون بالظروف ذاتها في أوروبا ذلك الحين.

في أثناء تجوله في أطلال برلين، وصلت إلى أنف الرئيس الجديد الرائحة الكريهة المنبعثة من الجثث المتعفنة، وشاهد الرايخستاج (مبنى البرلمان الألماني) المسود. وقال عن ذلك المشهد الكئيب: «إنه لشيء فظيع، ولكن هذا ما جناه الألمان على أنفسهم». لقد تخيل ما كان يمكن أن يفعل هتلر المنتصر بواشنطن دي سي. لقد شعر ترومان بالامتنان لأن الأمريكيين لم يتعرضوا لهذا الدمار الهائل.

توقفت السيارة عند مبنى الاستشارية الهتلري بالقرب من مخبأ هتلر الحصين تحت الأرض. رفض ترومان دخول المبنى، وبرر ذلك بعدم رغبته بأن يعتقد أي من هؤلاء الناس البؤساء أنه يشمت بهم. ولكنه غمغم بشكل لاذع إلى بيرنز بأنه كان غير متأكد من أن الألمان قد تعلموا أي شيء من النهاية البائسة للنازيين.

عاد ترومان إلى فيلته ذاك المساء مكتئبا بشدة. وكتب لزوجته بس قائلاً: «إنه مكان جهنمي. مدمر، وقذر، ومنتن، و أناس بائسون ومروعون يبدون وكأن أحدهم قد جرجرهم في الوحل. لم يسبق لأحد أن شاهد مدينة مدمرة تماما بهذا القدر». وكتب في دفتر يومياته أن التدمير التام لبرلين كان «نتيجة لحماقة هتلر الذي تجاوز حدوده بمحاولته الاستيلاء على بقعة كبيرة جدا من الأرض. لقد كان شخصاً عديم الأخلاق، وقد سانده شعبه».

في ظهر يوم الثلاثاء 17 يوليو، كان الرئيس يعمل حين رفع عينيه عن المكتب ليجد ستالين واقفا في المدخل.... «لقد تناولنا الغداء معا، وتبادلنا حديثا اجتماعياً، وقد أدينا عرضاً حقيقياً لشرب الأنخاب بصحة كل فرد، والتقطت لنا صور في فناء المبنى. أستطيع التعامل مع ستالين إنه صادق، ولكنه متقد الذكاء».

على الغداء، سأل بيرنز (الذي انضم إلى الرئيسين) ستالين عن الكيفية التي يعتقد أن هتلر قضى بها. توقع المارشال أن يكون الفوهرر حيا، ومختبئا في إسبانيا أو الأرجنتين. ربما اقترح ستالين فكرة بقاء هتلر حيا ليجيز اتخاذ إجراءات أكثر قسوة ضد ألمانيا أو ليحرف الانتباه عن طموحاته العدوانية الخاصة، كما يرى المؤرخ ألونزو هامبي.

لقد أخبر ترومان ستالين أنه كان متلهفاً لتهيئة الوضع الألماني للبدء بالعمل ليتمكن مجلس قيادة الحلفاء من حكم ألمانيا بالكامل.

عقدت أول جلسة رسمية في المؤتمر عند الساعة الخامسة مساء من يوم 17 يوليو في قصر سيسيلينهوف الذي شيد عام 1917. ولإظهار تكافؤهم، ولج ترومان وستالين وتشرشل إلى القاعة في آن واحد من ثلاثة أبواب منفصلة، كأنهم يؤدون مينيوويت(1) القوى العظمى.

استذكر ترومان، وهو جالس مع حلفائه

(1) هي رقصة رزينة ذات إيقاع بطيء - المترجم.

على طاولة مستديرة ذات ستائر خمرية اللون، مأساة مؤتمر فرساي عام 1919، عندما تسببت المقررات الانتقامية بإفقار الألمان وإحساسهم بالمرارة، مما فتح الطريق لصعود هتلر إلى سدة الحكم، حسب ما يعتقد الكثيرون. قال ترومان إن أي مؤتمر سلام نهائي بشأن ألمانيا يجب أن يعد مسبقا من قبل المنتصرين هذه المرة. واقترح أن تعد أعمال المؤتمر الأساسية من قبل مجلس لوزراء خارجية الثلاثة الكبار- الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا - بالإضافة إلى فرنسا والصين.

اشتكى ستالين من خضوع الفرنسيين للسيطرة الأمريكية، ومن عدم وجوب إقحام الصينيين في المشاكل الأوروبية. توصل ترومان وتشرشل إلى حل وسط بإقصاء الصين عن المشاركة. ذكر ستالين ممازحا أنه إذا قام وزراء الخارجية بكل الأعمال فلن



في انتظار وصول ستالين، تجول ترومان في أطلال برلين مع وزير الخارجية بيرنز، في الوسط، و مساعده ليهاي، الى اليمين. 16 يوليو 1945.

يتبقى لهم ما يعملونه. ذكر ترومان أنه لا يريد مجرد المناقشة، بل يريد الخروج بمقررات. أمل ترومان أن يتمكنوا من البدء بالأعمال اعتبارا من صباح اليوم التالي. ورد تشرشل مخاطبا ترومان بمرح واعدا بإطاعة أوامره.

أراد ستالين أن يعرف إذا ما كان البريطانيون يرغبون بتقاسم الأسطول الألماني مع الروس، على اعتبار أن تشرشل كان بمثل هذا المزاج المطيع. قال تشرشل: «ربما يجب تدمير الأسلحة، فأسلحة الحرب أشياء مرعبة». اقترح ستالين اقتسام الأسطول وقال: «إذا رغب السيد تشرشل فإنه يستطيع إغراق حصته».

مساء يوم الأربعاء 18 يوليو، تنبه تشرشل إلى أن رفاقه واصلوا استخدام كلمة «ألمانيا». فسألهم قائلاً: «ماذا تعني كلمة «ألمانيا» الآن؟ هل نفهم هذه الكلمة بنفس معنى ما قبل الحرب؟». لقد بدأ الجدال حول حدود ألمانيا بعد الحرب. لقد اتفق ستالين وروزفلت وتشرشل في يالطا، قبل ستة أشهر، على أن يشكل الخط الذي تم ترسيمه بعد الحرب العالمية الأولى الحدود الشرقية لبولندا مع الاتحاد السوفييتي. كما قرر الزعماء الثلاثة أيضا أنه يجب تعويض بولندا من جهة حدودها الغربية باقتطاع أرض ألمانية ذات مساحة كبيرة.

شعر ستالين أن بولندا تستحق كل الأراضي الألمانية الواقعة إلى الشرق من نهري أودر ونييس، إن ذلك سيدفع ملايين الألمان إلى الرحيل غربا، ويسلب ألمانيا بعضا من أغنى أراضيها الزراعية. بالنسبة لستالين، كان هذا أمرا واقعا، و قال: «إن ألمانيا الآن هي ما أصبحت عليه بعد الحرب».

ولكن ترومان رفض أن يعتبر المسألة منتهية، وقال: «لماذا لا نقول إن ألمانيا الآن هي كما كانت عليه قبل الحرب، أي عام 1937؟». أجابه ستالين: «بل كما هي عليه عام 1945». ذكر ترومان ستالين بأن ألمانيا خسرت كل شيء عام 1945، وأن الثلاثة الكبار قد اتفقوا في يالطا على تأجيل مناقشة هذه المسائل إلى حين انعقاد مؤتمر سلام نهائي بشأن ألمانيا.

كتب ترومان في مفكرته وقد نفد صبره: «لن أبقى في هذا المكان الرهيب طوال الصيف فقط لأستمع إلى خطابات. سأعود إلى مجلس الشيوخ في الوطن إذا ما أردت ذلك».

يوم الجمعة 20 يوليو، انضم ترومان للجنرالين دوايت إيزنهاور وعمر برادلي لحضور مراسيم رفع العلم الأمريكي رسميا على القطاع الأمريكي من برلين. أخبر ترومان، الذي كان يتكلم مرتجلا، حشود الجنود الأمريكيين أن أمريكا لا تحارب من أجل الغزو، ولا تريد أي شيء من هذه الحرب، لا أرضا ولا تحقيق مكاسب مالية.

مرت سنة واحدة بالضبط منذ أن حاول الكولونيل في الجيش الألماني كلاوس فون ستوفينبرج قتل هتلر وفشل. إذا ما تذكر أي من الأمريكيين هذه الحادثة فإنه بالتأكيد لم يعلن ذلك على الملأ. فالأمريكيون في ذلك الوقت كانوا يحاولون خلق إحساس جمعي بالذنب اتجاه أهوال هتلر، ولم يريدوا تشويش الصورة بتذكير العالم بأن بعض الألمان خاطروا بحياتهم لإيقاف الفوهرر، على الرغم من أن ذلك جاء متأخرا ولأي سبب كان.

في اليوم التالي، السبت 21 يوليو، أحضر سكرتير الحرب هنري ستيمسون رسالة عاجلة لترومان. لقد نجحت قنبلة البلوتونيوم الاختبارية التي تم اختبارها في ألاموجوردو في صحراء نيومكسيكو قبل خمسة أيام نجاحا فاق أكثر التوقعات تفاؤلا. لقد أخبر ترومان مساعده أن هذه الأخبار منحته إحساسا جديدا بالثقة. أدرك ترومان أن انفرادا أمريكيا بامتلاك قنبلة ذرية ناجحة سيسمح بحسم الحرب على الجبهة اليابانية بسرعة دون الحاجة إلى مساعدة سوفييتية أو بريطانية، مما سيعطي أمريكا القدرة على فرض إرادتها على عالم ما بعد الحرب. في ذلك المساء، اشتكى ترومان لستالين من قيام السوفييت بتخصيص قطاع من ألمانيا لبولندا دون التشاور مع الحلفاء. هل سيقوم القادة الثلاثة بالتبرع بألمانيا قطعة قطعة؟ لقد حذر ترومان ستالين من صعوبة الاتفاق على التعويضات المالية وغيرها التي ستدفعها ألمانيا للحلفاء المنتصرين إذا ما قسمت ألمانيا قبل مؤتمر السلام.

أجابه ستالين قائلا: «نحن مهتمون بشأن التعويضات، ولكننا مستعدون للمجازفة». لقد أصر ستالين على أن إعطاء أراض ألمانية لبولندا لن يخلق أية مشكلة لأنه لم يبق أي ألماني في تلك الأراضي. همس ليهاي إلى ترومان قائلاً: «بالطبع لم يبق أحد. فقد قتلهم البولنديون جميعاً».

أضاف تشرشل أن 2-3 ملايين ألماني ما زالوا يقطنون في المنطقة التي يريد ستالين منحها لبولندا. إن سلخ تلك المنطقة عن ألمانيا يعني سلخ ربع الأراضي الزراعية الألمانية والتي يفترض أن تشكل المصدر الرئيسي للغذاء الألماني والتعويضات.

قال ترومان: «تريد فرنسا إقليمي السار والرهر». فقال تشرشل محذرا: «ماذا سيتبقى؟». إذا افتقرت ألمانيا إلى ما يكفيها من غذاء: «فقد نواجه ظروفا كتلك التي كانت في معسكرات الاعتقال الألمانية، ولكن على نطاق أوسع بكثير». فقال ستالين: « دع الألمان يشترون المزيد من الخبز من بولندا!».

طالب تشرشل بأن تكون مصادر الغذاء في كل ألمانيا، حسب حدودها عام 1937، متاحة لكل الألمان بصرف النظر عن قطاعات الاحتلال. لقد شكا تشرشل من أن بولندا قد بدأت بالفعل ببيع الفحم الألماني إلى السويد بينما يواجه البريطانيون شتاءً مريرا قارساً

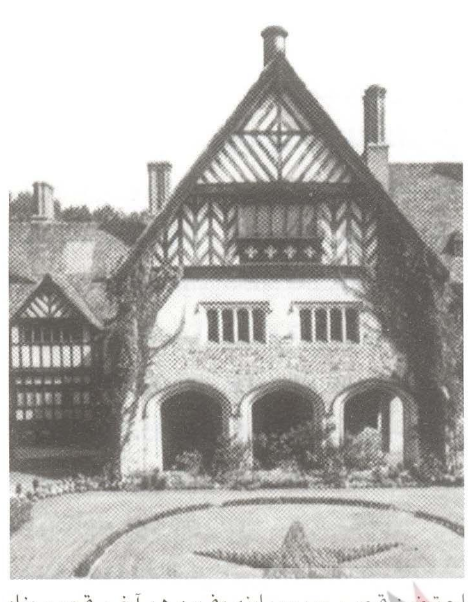
أسوأ مما خبروه أثناء الحرب.

عقب ستالين على ذلك بأن الأيدي العاملة البولندية هي التي تستخرج الفحم. أما بالنسبة للألمان، يقول ستالين: «إننا لا نملك إلا القليل من التعاطف مع هؤلاء الأنذال ومجرمي الحرب». فأشار تشرشل إلى ما ذكره ستالين سابقا بأن مرارة الماضي لا يجب أن تؤثر على قراراتنا. فذكره ستالين قائلا: «كلما قللنا من القدرة الصناعية الألمانية، كان هناك أسواق أكثر لسلعكم».

حذر ترومان من أنه لا يستطيع أن يوافق على جعل اقتطاع الجزء الشرقي من ألمانيا مانعا لمساهمة ذلك الجزء في الاقتصاد الألماني ككل. وكتب لاحقا لزوجته بس: «لقد التهمت روسيا وبولندا قطعة كبيرة من ألمانيا وتريدان من بريطانيا ومنا أن نوافق على ذلك لقد رفضت ذلك بشكل قاطع».

عزا تشرشل جرأة الرئيس ترومان إلى الأخبار المنعشة من ألاموجوردو وقال رئيس الوزراء لستيمسون: «عندما وصل إلى الاجتماع بعد قراءة هذا التقرير، كان رجلا مختلفا. لقد أخبر الروس متى أصابوا ومتى أخطأوا ، وسيطر على الاجتماع بوجه عام».

أصبح الرئيس ترومان أقوى رجل على وجه الأرض بعد انفراد أمريكا بامتلاك القنبلة الذرية. وربما كان أكثر الرجال



احتضن قصر سيسيلينهوف، و هو آخر قصر بناه الهوهينزوليرنز، قادة الثلاثة الكبار.

حنينا للعودة إلى الوطن. لقد كان تواقا للعودة إلى أمريكا وإلى زوجته حتى قبل أن تأتيه أخبار النجاح من الاموجوردو. أراد ترومان، والذي كان يغلي من دفاع ستالين عن «انتزاع البلاشفة للأراضي» من نظرائه الموافقة على خطة تعاقب الألمان، وتقمع قدرتهم على بدء حرب عالمية أخرى، وفي الوقت نفسه توفر الغذاء والدفء لكل الأوروبيين.

الآن، ومع وجود القنبلة الذرية في ترسانته، طلب ترومان من بيرنز أن يضغط لإنهاء اجتماع بوتسدام في أقرب وقت ممكن. كان ترومان يدرك أن وزير خارجيته الجديد كان يشعر بأنه يجب أن يكون هو الرئيس بدلا من ترومان، ولكنه اعتقد أن

بيرنز سيكون مساوما دبلوماسيا بارعا وبطلا نيابيا قويا لبرامج ترومان ما بعد الحرب إذا استطاع ترومان إخضاعه لسلطته.

أصبح بيرنز، وهو كاثوليكي من مواليد تشارليستون في كارولاينا الجنوبية عام 1882، عضوا في مجلس الشيوخ عام 1930. لقد كان بيرنز حليفا قديما لروزفلت، وكان أحد مؤيدي الرئيس في مجلس الشيوخ، وساعد روزفلت على تمرير قانون الإعارة والتأجير(2) ومعونات أخرى لبريطانيا. لقد كافأه روزفلت بمقعد في المحكمة العليا، حيث شعر بيرنز على الأغلب بأنه مقيد وبائس. بعد حادثه بيرل هاربور، أخذه روزفلت من المحكمة العليا وعينه في منصب معبئ الحرب الرئيسي. لقد قام بايرنز، والذي منحته الصحافة لقب «الرئيس المساعد» (وهو لقب أزعج روزفلت) بتجنيد التجارة الأمريكية لدعم المجهود الحربي.

لقد كان بيرنز يشك في استمرار الرئيس روزفلت في الحكم لدورة رابعة وكان راغبا ومتحمسا ليخلفه. لقد خطط بيرنز للحصول على منصب نائب الرئيس عام 1944. لقد أبدى روزفلت إعجابه ببيرنز، ولكنه كان يخشى من ذكائه وعزيمته ومكره. في يوليو 1944، قال روزفلت لبيرنز بازدواجيته المعتادة، إن الأخير كان الرجل الأكثر كفاءة في الطاقم كله. وأضاف قائلا: «لا يجب أن تخرج من السباق (للحصول على منصب نائب الرئيس). إذا بقيت فلا شك أنك ستفوز».

أخبر بيرنز من قبل بعض الأشخاص أن روزفلت كان ينوي حقيقة دعم ترومان أو قاضي المحكمة العليا ويليام أو دوجلاس، فدفع بيرنز الأمور باتجاه تسوية حاسمة مع الرئيس في اتصال هاتفي أجراه مع هايد بارك. وبينما تكلم روزفلت، كان بيرنز يختزل الحديث كتابة لكي يحمي نفسه في حال شوه الرئيس ما كان قد قاله سابقا. أصر روزفلت على أنه لم يكن يدعم ترشيح ترومان أو دوجلاس و أضاف قائلا: «جيمي، كل ذلك غير صحيح... لقد أخبرتك أنني لا أفضل أحدا على أحد.... هلا استمررت في السباق؟ برغم كل شيء فأنت مقرب مني شخصيا ... إنني بالكاد أعرف ترومان».

بعد تسمية ترومان نائبا للرئيس، كان بيرنز حانقا تجاه نفاق روزفلت، ولكنه أمل رغم ذلك بأن يعينه روزفلت في منصب وزير الخارجية خلفا لكورديل هل. قام روزفلت، والذي كان متوترا من تصميم بيرنز، باختيار إدوارد ريلي ستيتينيس السهل الانقياد، باصطحاب بيرنز معه إلى مؤتمر يالطا في محاولة لإرضاء كبريائه المجروح، ولكن بيرنز أدرك أنه كان مستبعدا من اللقاءات

(2) قانون صدر في 11 مارس 1941، قدمت الولايات المتحدة الأمريكية بموجبه ضروب المساعدات المادية إلى الدول الحليفة المحاربة لألمانيا وإيطاليا - المترجم.

الحاسمة، فاشتكى قائلا: «أنا لم آت إلى هنا للتنزه». لقد رضخ روزفلت أخيرا. وعندما شاهد ستالين بيرنز للمرة الأولى على طاولة المؤتمر صرح أنه اعتقد بأن بيرنز كان أكثر لصوص الخيول براءة في المظهر (دلالة على مكره الشديد).

بدافع الإحساس بالواجب، عقد بيرنز مؤتمرا صحفيا عند عودته إلى واشنطن، ومدح مؤتمر يالطا بعد ذلك، قدم بيرنز استقالته من الحكومة مؤكدا لروزفلت أنه لم يكن غاضبا من أحد بشأن مسألة نيابة الرئيس. وبعد أن أصبح ترومان رئيسا وتحت تأثير انبهاره الشديد بأداء بيرنز في يالطا ومتيقظا لما يملكه من مكانة في مجلس الشيوخ، قام ترومان بتعيين بيرنز عضوا في اللجنة المؤقتة السرية التي كلفت دراسة الطريقة التي يمكن من خلالها استخدام قنبلة ذرية ناجحة. كان بيرنز منتشيا بالسلاح الجديد، وقال للرئيس إن هذا السلاح الجديد «قد يضعنا في موقع يؤهلنا لإملاء شروطنا عند نهاية الحرب». عندما بدأ ترومان الإعداد للمؤتمر قام بتعيين بيرنز في منصب وزير الخارجية. أدى بيرنز اليمين في 3 يوليو، قبل أسبوعين فقط من مغادرته إلى بوتسدام.

الاثنين، 23 يوليو، عبر بيرنز عن قلق ترومان حيال موضوع التعويضات لوزير الخارجية السوفييتي فايتشيسلاف مولوتوف. اقترح بيرنز أن تأخذ كل قوة تعويضات من المنطقة التي تسيطر عليها، وأن البريطانيين والأمريكيين يميلون لإعطاء نصيبهم إلى ضحايا النازية. تبرع مولوتوف بتخفيض المطالبات السوفييتية بنسبة 20٪ مقابل تمكين السوفييت من اقتطاع جزء من غنائم منطقة الروهر الغنية صناعيا.

يوم الأربعاء 25 يوليو، أخبر ستالين ترومان و تشرشل أنه إذا ما بقيت أراضي الروهر ألمانية فإنها كفيلة بتزويد ألمانيا كلها بحاجاتها الصناعية. امتعض الأمريكيون من ذلك. وحذر تشارلز بوهلين (وهو مترجم اللغة الروسية في الوفد الأمريكي) سرا من أن ستالين سيستخدم مثل هذا التأثير لشل الاقتصاد الألماني ودفع الدولة المهزومة نحو الشيوعية.

توقف المؤتمر مؤقتا في 25 يوليو حيث عاد تشرشل إلى لندن لانتظار إعلان نتائج الانتخابات البريطانية.

طار ترومان إلى فرانكفورت لزيارة إيزنهاور في مقر القيادة السابق ل آي جي فاربن وهو أحد المشاريع الحربية الألمانية التي كان ترومان نفسه قد أجرى عنه تحقيقا عندما كان عضوا في مجلس الشيوخ، في أثناء الحرب كتب ترومان لأمه وأخته ماري التالي: «لقد دمرت المدن الكبيرة مثل فرانكفورت ودارمشتات بينما بقيت المدن الصغيرة على حالها. إنه لأمر فظيع أن ترى ما فعلته القنابل في المدن



لقد جعلت التقارير عن أول اختبار ناجح للقنبلة الذرية في ألاموجوردو في نيو ميكسيكو ترومان أكثر شجاعة.

وطرق السكة الحديدية والجسور. لقد قتل الملايين من الروس والبولنديين والإنجليز والأمريكيين بسبب حماقة ارتكبها شخص مجنون وأناني يدعى هتلر. أتأمل ألا يتكرر ذلك».

على الرغم من الدور الذي لعبه تشرشل في إنهاء الحرب الأوروبية، صوت المقترعون في لندن (والذين كانوا يركزون الآن على المشاكل المحلية) لصالح حزب العمال، وأصبح كلمنت أتلي رئيس الوزراء الجديد. اشتكى مساعدو تشرشل من جحود الشعب الإنجليزي. ولكن تشرشل، وعلى الرغم من إحساسه باليأس، أجاب بشكل أبوي قائلا: «لن أسميه جحودا. لقد مر الناس هنا بأوقات عصيبة جدا».

السبت 28 يوليو: قام مولوتوف بتذكير بيرنز بالاتفاق الذي تم في يالطا والذي يقضي بأن يأخذ السوفييت من الألمان أكبر قدر ممكن من التعويضات. قال بيرنز إن



كان ترومان (ظهره الى الكاميرا) مصرا على ألا يكون انتقاميا قائلا: «أعلم ماذا تعني الخسارة».

الأمور قد تغيرت: فالدمار الذي أصاب ألمانيا فاق بكثير التصورات السابقة. وأشار إلى أن السوفييت قد قاموا بالفعل بمنح بولندا قطعة كبيرة وثمينة من الأراضي الألمانية.

الأحد 29 يوليو، كتب ترومان لزوجته أنه سينهي هذه المشاجرة ويعود إلى الوطن إذا ما تمكن من التوصل إلى تسوية معقولة بشأن التعويضات والحدود الألمانية- البولندية.

الأحد 29 يوليو: نقل مولوتوف إلى بيرنز أن السوفييت أرادوا نسبة من الثروة الألمانية في المناطق التي لا تخضع لسيطرتهم بالإضافة إلى ما قيمته ملياري دولار أمريكي من المعدات الصناعية في منطقة الروهر. لم يرغب بيرنز في تحديد قيمة معينة لأي من التعويضات، وعرض عوضا عن ذلك نسبة من المعدات في الرهر يقايضها السوفييت بصادرات من منطقتهم. مساء يوم الاثنين 30 يوليو، نقل بيرنز إلى

مولوتوف أن الولايات المتحدة ستوافق على إعطاء بعض الأراضي الألمانية لبولندا بشكل مؤقت، وأنها ستعترف دبلوماسيا برومانيا، وهنغاريا، وفنلندا. ولكن بيرنز لن يستسلم لمطالب ستالين بتحديد قيمة معينة للتعويضات بعد تقديمه للتنازلين السابقين.

ذكر ترومان في دفتر يومياته أن المحادثات قد وصلت إلى طريق مسدود تلك الليلة. وكتب لزوجته بس قائلا: «إن التعويضات هي العقبة الوحيدة. الروس لصوص بالفطرة طبعا، وقد تم نهبهم بشكل كبير من قبل الألمان وتكرارا، ولا نستطيع لومهم على موقفهم بشأن التعويضات. إن ما يهمني هو أن نحافظ على حقوقنا وأن لا نقدم أية تعهدات أخرى».

الثلاثاء 31 يوليو: أبلغ بيرنز مولوتوف أن الاقتراحات الأمريكية بخصوص الاعتراف الدبلوماسي بدول شرق أوروبا، والأراضي الألمانية الممنوحة لبولندا، والتعويضات الألمانية يجب أن ينظر إليها باعتبارها رزمة واحدة غير قابلة للتجزئة، ولا يمكن منحها قطعة قطعة. أجاب ستالين بأن الاتحاد السوفييتي يحتاج للمزيد من التعويضات لأنه عانى من خسائر فادحة في المعدات الصناعية خلال الحرب.

ذلك المساء، وقع ترومان سرا على موافقته إلقاء أول قنبلة ذرية على اليابان. بعد ثلاثة أيام من إعلامه بنجاح تجربة ألاموجوردو قام ترومان بإخبار ستالين بأن الولايات المتحدة تمتلك الآن سلاحا جديدا ذا قدرات تدميرية غير عادية. لم يعلم ترومان أن المخابرات الروسية كانت قد أطلعت ستالين بالفعل على معلومات تتعلق بمشروع مانهاتن والتجربة النووية الناجحة. لقد تمنى ستالين، مجيبا ترومان بكل بساطة، أن يستخدم الأمريكيون سلاحهم ضد اليابان. طلب ترومان أن يتم استخدام القنبلة والكشف عن هذا الحدث المدوي حال عودته هو وحلفاؤه بأمان إلى أوطانهم، وقال:« ألقوها حالما تكونون مستعدين، ولكن ليس قبل 2 أغسطس».

مساء الأربعاء 1 أغسطس، وفي أثناء مناقشة الأصول المالية الألمانية في الخارج، تقدم ستالين باقتراح مشؤوم . لقد طرح ستالين على ترومان وعلى رئيس الوزراء العمالي البريطاني الجديد كلمنت أتلي، والذي حل محل تشرشل في بوتسدام اقتراحا يقضي باعتبار كل الجزء الغربي من ألمانيا واقعا تحت سيطرة الغرب، أما الجزء الشرقي فيخضع لسيطرة الاتحاد السوفييتي.

تساءل ترومان إذا ما كان ستالين يعني أن تقسم أوروبا إلى جزأين بخط يمتد من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتيكي. أجاب ستالين بالإيجاب. وأضاف: «بالنسبة للاستثمارات الألمانية في أوروبا فإنها تبقى معنا، والباقي معكم». تساءل ترومان قائلا: «هل ينطبق هذا على الاستثمارات الألمانية

في أوروبا أم في باقي البلدان أيضاً؟».

قال ستالين: «دعني أوضح ذلك بدقة: تذهب الاستثمارات الألمانية في رومانيا، وبلغاريا، وهنجاريا، وفنلندا لنا ويذهب الباقي لكم... في كل البلدان الأخرى مثل أمريكا الجنوبية وكندا كل ذلك لكم. إننا لا نحارب بريطانيا أو الولايات المتحدة».

انتقل الحديث بعد ذلك إلى جرائم الحرب. اشتكى ستالين، والذي ساوره الشك بأن الولايات المتحدة ستحاول محاباة الألمان وخاصة كبار الرأسماليين منهم، من عدم رغبة الأمريكيين في الإعلان عن قوائم طويلة من مجرمي الحرب الألمان وقال: «ألن نتحرك ضد أي صناعي ألماني؟ أعتقد أنه يتوجب علينا ذلك». وعلى سبيل المثال ذكر ستالين سلالة كروب ذات التاريخ المعروف في صناعة الأسلحة الألمانية وقال: «إذا لم يكن هذا المثال كافيا، فلنسم آخرين». قال ترومان إنه لا يحب أيا منهم. فضحك رفاقه. قال الرئيس إن ذكر بعض الأسماء وحذف أسماء أخرى سيجعل الناس يعتقدون بعدم رغبتنا في محاكمتهم.

كما فعل سابقا في يالطا، قرص ستالين البريطانيين عندما ذكر تابع هتلر القديم رودولف هس المسجون في برج لندن، وقال: «من المدهش أن هس في بريطانيا، حيث يتوفر له كل شيء ولا يقدم للمحاكمة». أجاب أرنست بيفن (وزير الخارجية البريطاني الجديد) قائلاً: «إذا كان هناك أي شك فيما يتعلق بوضع هس فإننا على استعداد لتسليمه وتقديم فاتورة بمصاريفه!».

قال ستالين إنه سيكون راضيا بحصر أسماء ثلاثة فقط من مجرمي الحرب الألمان. اقترح أتلي والذي تم اطلاعه على رأي ستالين باحتمال أن يكون هتلر حيا بأن يبدؤوا بهتلر. فرد ستالين بأن هتلر ليس في قبضتهم، ولكن لا مانع من البدء به. اتفق الثلاثة الكبار أخيرا على إعلان قائمة بكبار مجرمي الحرب الألمان خلال شهر.

في الساعة العاشرة وأربعين دقيقة من ذلك المساء وقع ترومان وستالين وأتلي إعلان بوتسدام والذي قال: «لقد بدأ الشعب الألماني يكفر عن الجرائم الفظيعة المرتكبة على يد القيادة التي اختاروها وأطاعوها طاعة عمياء في ساعة نجاحها». لم يرغب المنتصرون في «تدمير واستعباد الألمان»، بل رغبوا في مساعدتهم على «الاستعداد لإعادة البناء النهائي لحياتهم على أسس مسالمة وديموقراطية». إن سياسات الحلفاء تجاه الألمان ستكون موحدة بقدر الإمكان أثناء الاحتلال، «ستعامل ألمانيا كوحدة اقتصادية واحدة». ستأخذ كل قوة محتلة تعويضاتها من المنطقة التي تخضع لسيطرتها. بالإضافة إلى ذلك، سيحصل السوفييت على 15٪



بعد بوتسدام، اقتنع ترومان بقدرته على التصدي لمهام الرئاسة (الصورة التقطت أثناء نزول ترومان في نيوبورت في فرجينيا).

من المعدات الصناعية التي لا تلزم اقتصادا ألمانيا مسالما وسيقايضون ذلك بالغذاء والفحم وبضائع أخرى. سيحصل السوفييت أيضا على 10٪ كنسبة مجانية. سيضع مجلس وزراء الخارجية مسودة لمعاهدة السلام التي ستوقع عليها حكومة ألمانية مناسبة لهذا الغرض عند تشكيلها.

بعد توقيع الوثيقة من قبل القادة الثلاثة، أعلن ترومان عن فض المؤتمر بانتظار المؤتمر القادم والذي تمنى عقده في واشنطن. ابتسم ستالين وقال: «إن شاء الله!».

كتب ترومان لوالدته قائلا: «لا يمكن ان ترى أبدا أناساً عنيدين مثل الروس. آمل أن لا أحتاج إلى عقد مؤتمر آخر معهم. ولكن لابد أن يحدث ذلك». لقد كان مخطئاً. لم يجتمع ستالين وترومان بعدها أبدا بسبب الحرب الباردة التي كانت آخذة في التعمق.

الاثنين 6 أغسطس، كان ترومان يعبر

الأطلسي ثانية على متن السفينة الحربية أوغستا عندما تسلم رسالة أثناء الغداء. لقد ألقيت قنبلة ذرية على هيروشيما وكانت ناجحة بكل المقاييس. قال ترومان: «سنفوز بالحرب ضد اليابان قريبا». وأضاف: «هذا أعظم شيء في التاريخ». بعد أن تسلم ترومان تقريراً ثانيا يؤكد النجاح الكامل قفز ترومان على قدميه وأخبر بيرنز: «حان الوقت للعودة إلى الوطن!».

بعد ثلاثة أيام، يوم الخميس 9 أغسطس، اختتمت الولايات المتحدة انتصارها على اليابان بإلقاء قنبلة ذرية أخرى على ناجازاكي اعتماداً على أوامر مسبقة. قرر الإمبراطور هيروهيتو سرا على أن يتحمل مالا يمكن تحمله ويوافق على مطالب الحلفاء باستسلام ياباني غير مشروط.

لم يكن ترومان على علم بذلك بعد. في ذلك المساء وجه ترومان خطاباً إلى الأمريكيين بشأن رحلته الأوروبية وقال: «لقد عدت للتو من برلين، المدينة التي أراد الألمان أن يحكموا العالم منها». لقد أبلغهم أن عاصمة هتلر أصبحت الآن مدينة أشباح ...كم أنا سعيد بعودتي إلى الوطن... وكم أنا ممتن للإله العظيم على أن أرضنا تجنبت مثل هذا الدمار!».

لقد قال ترومان إن الإعلان الذي تم توقيعه في بوتسدام كان يهدف إلى إزالة النازية والأسلحة وصناعات الحرب وهيئة الأركان العامة الألمانية وكل تقاليدها العسكرية. وفي الوقت نفسه إعادة بناء الديموقراطية بالتحكم في التعليم الألماني وبإعادة تنظيم الحكومة المحلية والقضاء، وتشجيع حرية الكلام والصحافة الحرة وحرية الدين وحق العمال في التنظيم. سيتم توزيع الصناعات الألمانية بشكل لا مركزي بحيث يتم الاستغناء عن تمركز القوى الاقتصادية في كارتيلات واحتكارات. لن يمنح الألمان مستوى معيشياً أفضل من ضحاياهم السابقين.

قال ترومان إن حلفاء الحرب قرروا أن يبذلوا استطاعتهم لجعل ألمانيا أمة لائقة تستطيع أن تجد طريقها ثانية وتعود إلى العالم المتحضر.

لقد أخفى خطاب ترومان بشكل كبير المسائل المستعصية والتسويات الصعبة التي كانت ميراث بوتسدام. سيحصل السوفييت على تعويضات، ولكن لا يزال على المنتصرين أن يتفقوا على تفاصيل وشروط دقيقة. ستعتبر ألمانيا وحدة اقتصادية واحدة ولكن ستتمتع كل قيادة بسيطرة كاملة على منطقتها. لن تقسم الدولة المهزومة وانتقال الأراضي إلى بولندا سيكون مؤقتاً فقط.

و كما ذكر السياسي والمفكر الأمريكي دبليو . آر . سمايسر عام 1999 فإن كل جانب في مؤتمر بوتسدام قدم كل ما

يستطيع أن يقدمه في سبيل الحصول على الشيء الذي أراده. حصل ستالين على ربع مساحة ألمانيا تقريبا ما قبل الحرب العالمية الثانية لصالح بولندا. ووفرت بريطانيا وأمريكا، بمطالبتهما أن يأخذ كل منتصر حصته من التعويضات من المنطقة الخاضعة لسيطرته، على ألمانيا التعويضات الهائلة والدين الثقيل الذي جلب التضخم والبطالة و هتلر إلى السلطة في العشرينيات. لقد أعدوا أيضا وسائل لحماية ألمانيا الغربية من التعدي السوفييتي.

لقد أدرك مساعد سكرتير الحرب جون مكلوي أن تدهور العلاقات السوفييتية الأمريكية سيجعل الجرح بين السوفييت والعالم الغربي أكثر من فكرة مجردة. لقد كتب في مفكرته: «إننا ننجرف نحو خط يمر في منتصف ألمانيا».

في أعقاب بوتسدام، قسمت ألمانيا وأوروبا لمدة نصف قرن تقريباً، حيث كان الاتحاد السوفييتي والغرب منشغلين بحرب باردة مريرة. أعيد توحيد شرق وغرب ألمانيا في أكتوبر 1990 بعد هدم حائط برلين. لقد وعد المستشار الألماني كول قادة العالم بأن السلام فقط سينبعث من التراب الألماني في المستقبل. أصبح قصر سيسيلينهوف اليوم متحفاً بعد أن كان محجوزاً خلف الحائط القبيح. إن الشيء الوحيد الذي يشد الانتباه في هذا القصر هو الطاولة المستديرة المصنوعة من خشب البلوط، والتي جلس عليها ذات يوم ترومان، وستالين، وتشرشل ليقرروا مصير العالم.



بقلم: فيليب هـ . غوردن*
ترجمة: رامي عبدالرحيم الزبدة
مراجعة: ناي الحناوي

العنوان الأصلي للمقال: **Bridging the Atlantic Divide** ونشر في مجلة **Foreign Affairs** عدد يناير ـ فبراير **2003**



المتحدة وأوروبا لهما مواقف متباينة تجاه السلطة والقوة العسكرية، ورؤيتهما لمعنى الاستقلال والسيادة مختلفة.. وهوة الخلاف ما زالت تتسع.

* فيليب غوردون، أستاذ مشارك في دراسات السياسة الخارجية، ومدير المركز المختص في الولايات المتحدة وفرنسا في معهد بروكنفر.

(1) من روح التضامن إلى حرب الاتهامات

عقب الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر 2001 مباشرة، فاجأت الولايات المتحدة وأوروبا بعضهما بعضاً بطريقة إيجابية. إذ إن الرئيس الأمريكي جورج بوش، الذي واجه انتقادات واسعة خلال زيارته الأولى لأوروبا في صيف العام ذاته، والذي كان يوصف على نطاق واسع بأنه «رجل الكابوي قليل المعرفة» دحض توقعات الأوروبيين بصبره وحذره وعمله المتناسب في أفغانستان.

والأوروبيون بدورهم تجاوزوا ردة فعلهم النمطية، فأيدوا العمل العسكري بقوة، ليس ضد شبكة القاعدة فحسب، بل أيضاً ضد حركة طالبان التي استضافتها. وأعلن القادة الأوروبيون «تضامنهم اللامحدود» مع الولايات المتحدة، وفي غضون ساعات وضع حلفاء الناتو البند الخامس من فقرة الدفاع المشترك في معاهدة شمال الأطلسي موضع التنفيذ. وفي نقلة نوعية لم يكن أحد يتوقعها قبل الحادي عشر من سبتمبر، وفي غضون شهر من الأحداث الإرهابية كانت الولايات المتحدة تقود حرباً كبيرة على الجانب الآخر من العالم، وكانت المشكلة الكبرى للحلفاء الأوروبيين هي أنهم أرادوا إرسال قوات عسكرية أكثر مما وافقت عليه واشنطن.

ولكن، منذ ذلك الحين، تدهورت العلاقات بين حلفاء الأطلسي بشكل حاد، فأوروبا الآن تتهم الولايات المتحدة بشكل متواصل بتبني مقاربة تبسيطية للسياسة الخارجية تختزل كل شيء إلى الجوانب العسكرية من الحرب على الإرهاب. ورد الأمريكيون بامتعاض على عدم رغبة الأوروبيين في دعم الجهود الأمريكية للتعامل مع الدول المعادية مثل العراق. وفي الشرق الأوسط دفعت الجولة الحالية من العنف بين الإسرائيليين والفلسطينيين أوروبا إلى اتهام واشنطن بالدعم غير المشروط لرئيس الحكومة الإسرائيلي آرييل شارون، كما دفعت الأمريكيين إلى اتهام أوروبا بالتساهل مع الإرهاب وحتى بمعاداة السامية. وقد كانت الخلافات العميقة حول معارضة الولايات المتحدة قبول القيود التي تحد من سيادتها المطلقة داخل المنظمات الإقليمية. كما تبين من انسحاب الولايات المتحدة من محكمة الجنايات الدولية، ومن بروتوكول كيوتو عن تغير المناخ، ورفضها الحظر الدولي على الألغام الأرضية، واعتراضها على الإجراءات التفتيشية الخاصة بمعاهدة الأسلحة البيولوجية، وغيرها من المبادرات العالمية. كل هذه الخلافات كانت سبباً في زيادة تآكل العلاقات.

إن الخلافات الأمريكية - الأوروبية في مسائل السياسة والاستراتيجية العالمية، وفي الحكم والسيطرة ليست أمراً جديداً بالتأكيد، ولكن ما يلفت الانتباه اليوم هو أن عدداً من المراقبين الجادين قد بدؤوا يستنتجون أن الأساس الثقافي والبنيوي الجوهري لتحالف

عبر الأطلسي آخذ في التآكل. ويتكلم المؤلف فرانسيس فوكوياما - والذي كان قبل 13 عاماً يصرح أن انتصار المؤسسات والقيم الأوروبية - الأمريكية المشتركة هو «نهاية التاريخ» - يتحدث الآن عن «الخلافات العميقة» ضمن المجتمع الأوروبي - الأطلسي ويجزم بأن الصدع الأمريكي - الأوروبي «ليس بمجرد مشكلة عابرة». ويتحدث جيفري جيدمين Gedmin - مدير جمعية آسبن في برلين As-pen Institute Berlin والتي كانت يوما معقلاً لـ «الروح الأطلسية» - يتحدث عن «علة» أوروبا فيما يتعلق باستخدام القوة، ويحاول أن يبرهن أن وجهات النظر الأمريكية والأوروبية في مفهوم الأمن أصبحت الآن مختلفة لدرجة أن «الحلف القديم لا يملك إلا القليل من الأمل في التأثير على تفكير الولايات المتحدة الاستراتيجي الدولي». وليس المحرر تشارلز كروثامار Krautham-mer وحيداً في جزمه أن الناتو (منظمة حلف شمال الأطلسي) والتي كانت يوما حجر الأساس في التحالف عبر الأطلسي - قد أصبحت الآن بحكم «الميتة».

ولكن لم ينجح أحد في إبراز النظرية التي مفادها أن الأمريكيين والأوروبيين قد أخذوا بالانشقاق أكثر من المحلل روبرت كيغان، والذي بدأ مقالة في المجلة النقدية السياسية Policy Review في عدد صيف 2002 «بفرضية جريئة»: «لقد حان الوقت لنتوقف عن التظاهر بأن الأوروبيين والأمريكيين يمتلكون النظرة نفسها إلى العالم، أو أنهم يعيشون في العالم نفسه». وفي التحليل المطول والمميز الذي تلا ذلك حاول كيغان أن يبرهن أن التباين في موضوع القوة بين الولايات المتحدة وأوروبا قد ازداد إلى حد كبير، فعندما تصل الأمور إلى مرحلة «تقرير الأولويات القومية، وتحديد المخاطر، وتعريف التحديات، وصياغة وتنفيذ السياسات الخارجية والدفاعية، فإن الولايات المتحدة وأوروبا تسلكان طرقاً مختلفة». كما أن فرضية كيغان بأن «اليوم الذي لم يعد يبالي فيه الأمريكيون ببيانات الاتحاد الأوروبي (EU) أكثر مما يبالون ببيانات منظمة دول جنوب شرق آسيا (ASEAN) أو ميثاق الأندياز قد يأتي «لا شك أنها لفتت انتباه الأوروبيين. فما إن نشرت المقالة حتى أخذت بالانتشار على قوائم البريد الإلكتروني، واقتبست منها عشرات بل مئات المقالات الصحفية حول العالم. ولقد تم إعادة طباعتها أو الاقتباس منها في كل من دوريات «Le Monda» و«Die Zeit»، بالإضافة إلى «International Herald Tribune» و«Commentaire»، كما وزعت على موظفي الاتحاد الأوروبي عن طريق مدير السياسة الخارجية للاتحاد خافيير سولانا. وربما يجب ألا نفاجأ بأن المقالة قد أصابت وترا حساسا، خاصة في أوروبا والتي دفعتها سياسات إدارة بوش إلى الإيمان بأن الولايات المتحدة لم تعد تنظر إلى أوروبا

كحليف ذي قيمة واحترام.

إن النظرية القائلة إن «الأمريكيين من المريخ، والأوروبيين من الزهرة» توضح بدقة بعض الاختلافات الحقيقية والمشاكل السائدة في العلاقات عبر الأطلسي. فالفجوات الثقافية والبنيوية التي كانت موجودة لفترة طويلة قد توسعت مع الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة ومع الأزمة في الشرق الأوسط، وإذا تم التعامل مع هذه الاختلافات بشكل سيئ، فإن النتيجة قد تكون انقساماً عبر الأطلسي أعمق من أي خلاف في السنوات الخمسين الأخيرة. وعلى الرغم من ذلك، فإن البنية ليست قدراً محتوماً، وسيكون تضخيم الهوة بين الولايات المتحدة وأوروبا على الدرجة نفسها من الخطأ تماماً كتجاهلها. إذ رغم كل الخلافات حول سياسة «الحرب على الإرهاب»، تبقى القيم والمصالح الأمريكية والأوروبية في العالم متشابهة إلى حد كبير. إن اختلاف مواقف الحلفاء تجاه اللجوء للقوة لم تمنعهم فيما مضى من استخدام القوة معاً، وآخر الأمثلة على ذلك هي في البلقان وأفغانستان، وربما لن تمنعهم من فعل الأمر ذاته في المستقبل، وربما قريباً في العراق. ولا يجوز لأحد الاستنتاج أن وجود أكثر الحكومات الأمريكية محافظة على المستوى الاجتماعي وأكثرها أحادية على المستوى العالمي في أكثر من عشرين سنة (بعد أشد الانتخابات تنافساً في التاريخ) تمثل تغييراً جوهرياً في الثقافة أو القيم «الأمريكية». والأهم من ذلك، فإنه من الخطأ أن تبنى السياسة الخارجية الأمريكية على الافتراض أن المساندة الأوروبية للسياسة الأمريكية لم تعد ممكنة أو ضرورية، والتصرف على أساس الافتراض المبدئي الخاطئ بأن واشنطن ليست بحاجة إلى حلفاء - أو أنها ستجد حلفاء آخرين أكثر أهمية ومصداقية - قد يكلف الولايات المتحدة في النهاية دعم وتعاون من سيكونون على الأغلب الأكثر فائدة في عالم يزداد خطورة.

(2) هل هي اختلافات غير قابلة للمصالحة؟

هناك أسباب كثيرة لاختلاف المواقف الأمريكية والأوروبية تجاه القوة والسيادة والأمن، ولظهور هذه الاختلافات بشكل حاد في هذه الآونة. و«فجوة القوة» التي حددها كيغان هي بالتأكيد عامل في ذلك. إنه من الطبيعي جداً أن نتوقع قيام دولة بالإمكانات التكنولوجية والعسكرية والدبلوماسية للولايات المتحدة لمحاولة أن «تصلح» المشاكل - سواء كانت أزمة البلقان، أو التهديدات الصاروخية، أو الدول المارقة، في حين تحاول الدول ذات الإمكانات الأقل أن «تتدبر» هذه المشاكل. إن قوة الولايات المتحدة العسكرية الضخمة، وبراعتها التكنولوجية الفائقة، وتاريخها الحافل بالإنجازات منقطعة النظير قد طبع الأمريكيين بالإحساس المتفائل بالقدرة على عمل أي شيء تجاه العالم، تتناقض تماماً مع التشاؤمية النسبية التي

تعرف في أوروبا بـ «الواقعية»، والتي جاءت من التجارب التاريخية الأشد تعقيداً وتناقضا التي خاضتها دول وبلدان أوروبا التي تفوق الولايات المتحدة في القدم بكثير. إن قوة الولايات المتحدة، مقرونة بقدرة أقل على احتمال التعرض للخطر، والذي ينبع من النعمة الجغرافية وهي كون الدول المجاورة دولا صديقة، قد جعلت الأمريكيين أكثر استعدادا بكثير من الأوروبيين للمجازفة، وإنفاق الأموال للتعامل مع التهديدات كانتشار الصواريخ أو العراق.

ومع ذلك، لا بد من الملاحظة أن الضعف النسبي في القوة العسكرية لأوروبا مقارنة بالولايات المتحدة نتيجة بالقدر ما هو سبب لاختلاف الثقافة الاستراتيجية بين الطرفين. بوجود عدد سكان إجمالي قوامه 377 مليون نسمة وإنتاج يصل مجموعه الإجمالي إلى 8,5 تريليون دولار أمريكي، فإن الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي هي بالطبع قادرة على تطوير قوة عسكرية هائلة، ولكنها اختارت ألا تفعل ذلك - على الأقل في الوقت الراهن. وكما نوه كيغان فذلك يرجع - ولو بشكل جزئي - إلى تجربة أوروبا في الحرب خلال النصف الأول من القرن العشرين مقابل السلام والاندماج في النصف الثاني من القرن نفسه. إن هاتين التجربتين المتناقضتين قد تركتا معظم الأوروبيين مقتنعين أن تبادل الآراء والأفكار والسعي للتطور هي أساليب أكثر فعالية للحفاظ على الأمن من القوة العسكرية والتسلح، وهي قناعة مفهومة يحاول الأوروبيون - وإن بسذاجة أحياناً - الترويج لها في أجزاء أخرى من العالم.

إن قلة اهتمام أوروبا النسبية بتطوير القوة العسكرية هي أيضا إحدى العواقب السلبية للوصاية الأمريكية التي أسستها الولايات المتحدة عبر الناتو خلال الحرب الباردة. ومع الاستثناء الجزئي لبريطانيا وفرنسا - واللتين شجعت تجاربهما السابقة ومقاعدهما الدائمة في مجلس الأمن لديهما طموحات عسكرية أكثر ثباتاً - فإن قيادة الولايات المتحدة للناتو قد أعفت الأوروبيين من الحاجة للتفكير أكثر فيما يتعلق بالأمن الدولي خارج حدود أوروبا. وقد كانت الاستراتيجية العسكرية العالمية أمرا يتم التعامل معه بشكل رئيسي من قبل الولايات المتحدة، مما ترك للأوروبيين التركيز على المهمة الصعبة في بناء منطقة ذات أمن داخلي ورخاء اقتصادي وازدهار بشكل غير مسبوق. وكانت النتيجة انقساماً بائن التناقض في المهمات: فبينما باتت العادة أن ينشغل الأمريكيون بالقلق حول وضع العراق، والصواريخ في كوريا الشمالية والاجتياح الصيني لتايوان، نجد الأوروبيين أكثر قلقا على سلامة الأغذية والارتفاع المطرد في الغذاء وحرارة الأرض.

وأخيراً، فإن التاريخ والجغرافيا، والتفاضل في القوى قد خلفت جانبي

الأطلسي على طرفي نقيض في المواقف تجاه السيادة - والتي تشكل بوضوح مصدر كل نزاعاتنا الحالية في القضايا الإقليمية مثل اتفاقيات الحد من الأسلحة، والأمم المتحدة، ومحكمة الجنايات الدولية. إذ إن الولايات المتحدة بقوتها والحرية المطلقة التي تمتلكها في التصرف عبر العالم لا تشعر بحماس كبير تجاه أي آليات جديدة للعمل قد تكبح هذه الحرية. أما الأوروبيون - في الجهة المقابلة - فقد أمضوا خمسين عاماً يتقبلون تدريجيا - وبطريقة مؤلمة وغير كاملة إلى حد ما بالنسبة لبعضهم - فكرة العيش في «مجتمع عالمي»، وقبول القيود على سيادتهم. وبالتالي، فلن يكون مدهشا أن تكون الدول الأصغر والأضعف في قارة مكتظة، أكثر اهتماماً وقدرة على التعايش مع قوانين واتفاقيات عالمية ملزمة من القوة العظمى الوحيدة، والتي تمتد إلى قارة ضخمة.

ولذلك، فليس من شك أن الولايات المتحدة وأوروبا لهما مواقف مختلفة تجاه السلطة والقوة العسكرية، وتجاه الاستقلال والسيادة، وأن هذا الانقسام ما زال يتسع. ولكن السؤال - على أية حال - وهو ما إذا كانت هذه الاختلافات الآن جوهرية إلى الحد الذي يمكن أو يلزم الولايات المتحدة أن تستغني عن تحالفها مع أوروبا باعتباره غير ذي أهمية، وما يستنتج من ذلك القرار بأنها لا تحتاج إلى حلفاء، أو أنها قد تجد حلفاء أفضل في مكان آخر، والإجابة هي بالنفي.

(3) التشابه أكثر من الاختلاف

على الرغم من كل الحديث عن الصدع في شمال الأطلسي في عالم مابعد 11 سبتمبر، فإن الحقيقة أن القيم والمصالح الأمريكية والأوروبية الأساسية لم تتباعد - وأن الديموقراطيات الأوروبية هي بالتأكيد حليف أقرب للولايات المتحدة مما يمكن أن يكون عليه سكان أي منطقة أخرى، سواء الآن أو في المستقبل القريب. وعلى الرغم من أن تكتيكهم يختلف في بعض الأوقات، يشترك الأمريكيون والأوروبيون إلى حد كبير في الطموحات الديموقراطية والليبرالية نفسها لمجتمعاتهم ولبقية العالم. فلديهم اهتمامات مشتركة في سبيل تجارة عالمية حرة، ونظام اتصالات منفتح، مع حرية وسهولة الحصول على موارد الطاقة العالمية، واهتمام في منع انتشار أسلحة الدمار الشامل، ومنع المآسي الإنسانية، واحتواء المجموعة الصغيرة من الدول الخطرة التي لا تحترم حقوق الإنسان، وذات النظرة العدائية لهذه القيم والمصالح الغربية المشتركة.

ومن المؤكد أن «التكساسي» جورج بوش وأعضاء الإدارة المحافظين جدا الذين يحيطون به، ومن ضمنهم نائب الرئيس ديك تشيني، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، والنائب العام جون آشكروفت، يتفقون في أمور قليلة جدا مع نظرائهم الأوروبيين. وباستخدام مصطلحات كيغان فإن فريق بوش يمثل منظورا أمريكيا خاصا. فهم فيما يتعلق

بمواضيع مثل الدين، والإجهاض، والحد من السلاح، والدفاع ضد الصواريخ، واستخدام القوة، والتعددية الدولية، والبيئة، تقريباً أبعد عن المواقف «الأوروبية» مما يمكن أن يصل الأمريكيون إليه. وهكذا فمن العقلانية أن يكون وصولهم إلى السلطة قد قرئ كخطوة نحو ازدياد «أمركة» أمريكا، وأن سياساتهم اللاحقة - والتي تلقت جرعة دعم إضافية بتحدي الإرهاب العالمي - قد بلورت الفروقات الواضحة عبر الأطلسي.

ولكن الأقل وضوحا هو أن انتخاب بوش هو ما مثّل تغيراً جوهرياً في نظام القيم الأمريكي، أو أن هذه القيم أصبحت أكثر «أمركة» عبر الزمن بمقدار ما أصبحت أوروبا أكثر «أوروبية». ففي النهاية يبقى أن منافس بوش في الانتخابات الأخيرة آل غور قد حصل على حوالي 540 ألف صوت أكثر مما حصل عليه بوش، وقد فعل غور ذلك عبر برنامج انتخابي هو أقرب بكثير في أغلب المواضيع للمعايير الأوروبية. وقد كانت انتخابات الكونغرس لعامي 2000 و2002 مقسومة بما يقارب النصف بين الديموقراطيين والجمهوريين، مما يوحي بتغير ضئيل جدا في توازن الولايات المتحدة السياسي والأيديولوجي، على الرغم من النقلة الدراماتيكية في توجه الزعماء الوطنيين. وليست الفكرة هنا هي الإيحاء بأن مقاربة بوش للشؤون الداخلية أو العالمية لا تلاقي دعماً واسعاً في الولايات المتحدة، ولا بأن أغلب الديموقراطيين ليسوا أكثر «أمريكية» في نظرتهم للأمور من أغلب الأوروبيين. بل الفكرة هي التوكيد على أن صورة الانقسام الأمريكي - الأوروبي المزعوم كانت ستظهر بصورة مختلفة تماماً لو أن غور انتزع المزيد من الأصوات في فلوريدا قبل سنتين، أو لو أن المحكمة العليا اتخذت رأياً مختلفاً في إعادة الفرز في فلوريدا. وستبقى هناك خلافات حقيقية حول الشرق الأوسط، وحول البيئة، والعراق - كما كان الحال في عهد كلينتون، ولكن يصعب التصديق بأنها ستكون وحشية إلى الحد التي هي عليه الآن.

وبالتأكيد، فإن نظرة أشمل إلى المنظور والقيم الأمريكية والأوروبية - على المستوى الشعبي على الأقل - توحي بأن الميل للتقارب يطغى بدرجة كبيرة على التباعد. ففي سبتمبر 2002 على سبيل المثال أظهر أكبر استفتاء شامل للمواقف السياسية الخارجية الأمريكية والأوروبية على أن «أوجه الشبه أكثر من الاختلاف في الكيفية التي ترى بها المجتمعات الأمريكية والأوروبية بقية العالم» على حد قول راعي الاستفتاء كريغ كينيدي، مدير صندوق مارشال الألماني في الولايات المتحدة. فقد اعتبر الأمريكيون والأوروبيون مواضيع متشابهة جداً (تتضمن الإرهاب العالمي، وأسلحة الدمار الشامل في العراق، وارتفاع حرارة الأرض)، ضمن اهتماماتهم الأساسية على صعيد السياسة الخارجية،

بالإضافة إلى إدراك وفهم متشابه لمن هم لأصدقاء والحلفاء، وعبروا عن الصلات القوية بينهم. فقد أظهر الأمريكيون عدم ارتياحهم لأحادية الجانب، مع تفضيل 61% منهم مسلكاً متعدد الأطراف في معالجة مشاكل السياسة الخارجية، ورؤية 65% أن على الولايات المتحدة ألا تجتاح العراق إلا إلى عربي بموافقة الأمم المتحدة ودعم حلفائها. وحتى في قضايا استخدام القوة كان الأوروبيون مستعدين من حيث المبدأ على الأقل مثل الأمريكيين للموافقة على استعمال القوة لدعم القانون الدولي (80% إلى 76% على الترتيب)، ولمساعدة شعب يعاني من المجاعة (88% إلى 81%)، ولتحرير الرهائن (78% إلى 77%)، أو حتى لتدمير معسكر للإرهابيين (75% إلى 92%).

وقد أظهرت استطلاعات أخرى في مواضيع متعددة تشابهاً في المواقف الشعبية في أوروبا وأمريكا يفوق بكثير ما يمكن أن يوحي به الخلاف الحكومي المرير بين القادة الأوروبيين وإدارة بوش. فعلى سبيل المثال يعتبر 75% من الأمريكيين ارتفاع حرارة العالم «مشكلة خطيرة»، وتؤمن الأغلبية المطلقة منهم أنه يتحتم على الولايات المتحدة أن تشارك الاتحاد الأوروبي في المصادقة على بروتوكول كيوتو. ويدعم 71% من الأمريكيين المصادقة على معاهدة تأسيس محكمة الجنايات الدولية، وتختلف الأغلبية مع موقف الرئيس بوش حول هذه القضية. كما أن 81% يدعمون المصادقة الأمريكية على معاهدة الحظر الكامل على التجارب النووية، وحتى في موضوع الكائنات المعدلة جينيا - والتي طرحت كمثال على المواقف المتباعدة بشدة بين طرفي الأطلسي تجاه العلم والتكنولوجيا - فإن الأكثرية من الأمريكيين - مثل الأوروبيين - يؤمنون أن الكائنات المعدلة جينيا «ستجعل الغذاء أكثر سميّة»، ويعتقد 86% أن على الحكومة أن تفرض وضع علامة مميزة عليها، كما هي سياسة الاتحاد الأوروبي في هذا الموضوع. إن الخلافات الأمريكية - الأوروبية في هذه المواضيع وغيرها من المواضيع المهمة موجودة، ولكن البيانات فيما يتعلق بالمواقف الشعبية لا تبدو أبداً كدليل على أنهما مجتمعان «يعيشان في عالمين مختلفين».

ويفترض أكثر النقاد الأمريكيين قسوة أنه مهما كانت مشاعر الأوروبيين من الناحية النظرية، فإنهم في الغالب لن يكونوا حلفاء مفيدين عندما يلزم الأمر - أي عندما يجب التهديد بالقوة العسكرية أو استخدامها. ولا شك حول حقيقة أن المواقف فيما يتعلق بالقوة تختلف، وللأسباب كلها التي سبق ذكرها فإن الأوروبيين ميالون أكثر بكثير لتجربة الأساليب الديبلوماسية في حل الصراع. ولكن ملف التسعينيات وأوائل العقد الحالي

لا يتفق مع كاريكاتور لأوروبا مسالمة وفاقدة للحيلة إلى أبعد الحدود، بحيث يترك لا خيار لمحبي الحرب الأمريكيين إلا مناشدة الحلفاء الآخرين أو العمل وحدهم. إن الأوروبيين في حرب الخليج عام 1990-91 كانوا غير متحمسين أبدا للحرب (شأنهم في ذلك شأن 47 سيناتورا أمريكياً وعدد من الجنرالات الأمريكيين البارزين)، ولكنهم في النهاية ساندوا العملية العسكرية في الأمم المتحدة، وقدموا عشرات الآلاف من الجنود وساهموا بمليارات الدولارات في الجهود التي قادتها أمريكا لطرد القوات العراقية الغازية من الكويت. أما في البلقان فقد أخذ الأمر من الولايات المتحدة أعواماً للتغلب على معارضتها للعمل العسكري، وفي االبوسنة وكوسوفو كانت كل من المملكة المتحدة وفرنسا في مرات عدة أكثر استعدادا من الولايات المتحدة للتهديد بالقوة أو استعمالها، أو المخاطرة بنشر القوات على الأرض. وقد اشتركت أوروبا والولايات المتحدة في آخر المطاف بفعالية في تنفيذ أول المهمات العسكرية الحقيقية للناتو، والتي شنت فيها القوات العسكرية الأوروبية المئات من الغارات، ووفرت قواعد حساسة ودعما في نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم، ولعبت دورا محوريا في القتال وفي حفظ السلام فيما بعد. والعبرة في سلسلة الأحداث هذه ليست أن أوروبا لا ترغب في استخدام القوة ولا أن مشاركتها لا تضيف شيئا، بل إنه عندما تظهر الولايات المتحدة القيادة فإنها قادرة على جمع الحلفاء حولها ولو إلى ساحة الحرب.

ومؤخرا، عندما قامت الولايات المتحدة بعمل عسكري في أفغانستان للانتقام من إرهابيي القاعدة فضلا عن إسقاط نظام طالبان الذي يستضيفهم، كان الدعم الأوروبي والرغبة في المشاركة وطيدين. ففي أكتوبر 2001 عندما كان القتال جاريا، أظهر استطلاع للرأي أن الأغلبية في 11 من 15 دولة أعضاء في الاتحاد الأوروبي قد «أيدت العمل العسكري الأمريكي»، وأن الأغلبية كانت مهمة وجوهرية في الدول الأكبر (فرنسا: 73٪، ألمانيا: 65٪، المملكة المتحدة: 68٪). كما أن أغلبية المواطنين الأوروبيين قد أيدوا حتى مشاركة دولهم في القتال - فقد أقر البرلمان الألماني ذو الأغلبية اليسارية إرسال 3.900 جندي مقاتل - بل إن غضب بعض القادة الأوروبيين لم يكن من حقيقة أن الولايات المتحدة تستخدم القوة، بل من أن عروضهم للمشاركة بقواتهم قد تم رفضها من البنتاغون الذي فضل القيام بالعملية وحده. وعلى الرغم من ذلك ففي مطلع العام 2002 شاركت القوات الأوروبية في قذف القنابل، والاستكشاف، وتحرير وتنظيف الكهوف، وعمليات للقوات الخاصة. وقد أخذت الدول الأوروبية (أولا المملكة المتحدة ومن بعدها تركيا)، الدور القيادي في قوات

الأمن الدولية المساندة (ISAF) التي تم إنزالها لحفظ السلام، ويتوقع أن تكون قيادة القوات المساندة هذا العام بيد ألمانيا وهولندا مع مساندة مخططي الناتو العسكريين. ومع بداية صيف عام 2002 كان عدد القوات العسكرية الأوروبية في أفغانستان يساوي عدد القوات الأمريكية.

وحتى في موضوع مثير للخلاف مثل العراق، فإنه من الخطأ الافتراض بأن المواقف الأوروبية والأمريكية قد تباعدت بشكل نهائي، أو أنه ليس لدى الأوروبيين ما يقدمونه في ما يخص احتواء صدام حسين أو عزله. في ألمانيا - بالطبع - استغل المستشار جيرهارد شرويدر الشكوك الشعبية العميقة فيما يتعلق بحرب وقائية في إدارة حملته الانتخابية في سبتمبر 2002 ضد اجتياح العراق. ولقد قلب قرار شرويدر الأحادي للأسف توجها في ألمانيا عمره عشر سنوات نحو دعم الاستخدام المسؤول للقوة - من عدم المشاركة في حرب الخليج إلى أدوار قتالية في كوسوفو وأفغانستان. وعدا عن ذلك، فإن الدعم الأوروبي لعملية عسكرية محتملة هو قريب المنال في حال أحسنت الولايات المتحدة تهيئة الوضع بعناية تامة. وقد أعلنت الحكومة البريطانية من الآن دعمها الشديد، ورئيس الوزراء توني بلير هو أكثر «أمريكية» بكثير في هذا الموضوع من كثير من الأمريكيين. وفي فرنسا التي نظر إليها لفترة طويلة كمعادية للمصالح الأمريكية في العراق، اقترح الرئيس جاك شيراك أن بلاده سوف تدعم استخدام القوة إذا أقرت الأمم المتحدة ذلك، وأن باريس ستبقي الباب مفتوحا للمشاركة في حرب محتملة. كما أن الحكومات في إيطاليا وإسبانيا وعدد من دول أوروبا الوسطى قد أوضحت أيضا أنه في الظروف المناسبة فإنها ستساند الولايات المتحدة إذا وقعت الحرب في العراق. وإذا بذلت واشنطن جهدا أكثر للتأكد من الشرعية والدعم العالمي لاستخدام القوة في العراق، فربما تجد أن المهمة الصعبة لإعادة بناء هذا البلد بعد اجتياحه سيكون مشروعا مشتركا رائعا وسيفعل الكثير لإعادة التحالف عبر الأطلسي إلى مساره الصحيح.

(4) إما أن تتحدوا أو أن تنفصلوا

ربما لا يعيش الأمريكيون والأوروبيون في عالمين مختلفين، ولكن من الصعوبة إيجاد مواطن لتحقيق الرضا لدى الطرفين. فأحداث 11 سبتمبر، وانتخاب بوش، والأزمة الإسرائيلية - الفلسطينية، والجدل حول العراق، كلها فاقمت الفروقات الثقافية والبنيوية التي كان من الممكن دائما التعامل معها في الماضي. ولكن المهم هنا هو عدم السماح بتحول إمكانية حدوث الانفصال بين طرفي الأطلسي إلى نبوءة تحقق ذاتها، إذ إن الافتراض الخاطئ أن الأوروبيين والأمريكيين مصممون على السير في طرق

منفصلة سيكون الطريق الأمثل لتأكيد حدوث هذه النتيجة بالذات. وللأسف فإن هذا تماما ما يبدو أن الكثيرين في إدارة بوش، وعددا من منتقديها الأوروبيين - يقومون بفعله.

لقد جاءت إدارة بوش إلى السلطة عازمة على التغلب على ما اعتبرته ميلا لدى الإدارة السابقة للحلول الوسط باسم التقارب مع الآخرين. والرئيس الجديد - كما أظهر طاقمه بوضوح - سيتولى القيادة بناء على تعريف دقيق للمصالح الأمريكية، وربما - بل من المؤكد - أن الحلفاء الأوروبيين سيتذمرون من الأحادية الأمريكية، ولكنهم في النهاية سيقدرون السياسة الجديدة القادرة على الحسم من واشنطن، والنتيجة ستكون أفضل للجميع، وسيكون دعم الحلفاء طيبا ولكنه بالتأكيد لن يكون أمرا لا غنى عنه للولايات المتحدة التي تعتبر نفسها بلا منازع الدولة الأقوى على مدار التاريخ. وكما أشار إلى ذلك وزير الدفاع دونالد رامسفيلد في معرض الحديث عن العراق: «أن نحصل على الإجماع أقل أهمية عندنا من اتخاذنا القرارات الصائبة، وفعلنا الأمر الصحيح، على الرغم من أن هذا قد يشعرنا بالوحدة في بادئ الأمر». ولقد رسخت الوثيقة الأمريكية الجديدة للاستراتيجية الأمنية الدولية والتي نشرت في سبتمبر 2002 هذه الملاحظة بقداسة : أن هذا الأمر يرجع للولايات المتحدة في تقرير ما هو صائب وفي استخدام قوتها غير المسبوقة لتحقيق أهدافها.

يمكن قول الكثير عن القيادة الأمريكية الحاسمة وكما أظهرت التطورات خلال العقد الماضي - من الخليج إلى البلقان إلى وسط آسيا - فإن رغبة واشنطن في القيادة تبدو كأنها الطريقة الوحيدة لدفع بقية المجتمع الدولي للعمل. ولكن يتضح أيضا أنه عند التمادي في تلك الرغبة، فإن القيادة الحاسمة هذه يمكن أن تنقلب بسرعة إلى أحادية متغطرسة، وإلى الحد الذي يجعل الآخرين المتعضين أقل استعدادا للسير وراء قيام الولايات المتحدة. وقلة هم الذي استطاعوا أن يبرزوا هذا الخلاف أكثر من المرشح بوش الذي حذر في أكتوبر 2000 من أن الحلفاء المحتملين حول العالم سوف «يرحبون» بأمريكا متواضعة، ولكنهم سوف «يمتعضون» من أمريكا متغطرسة. ولكن سياسات طاقم بوش تبدو حتى الآن على أنها قد بنيت بشكل كبير على عكس تلك المقدمة. إذ إن القول للحلفاء إن عدم دعمهم للطريقة التي تقارب بها واشنطن الحرب على الإرهاب يعتبر وقوفا «مع الإرهابيين»، وكذلك الاستخفاف بحلفاء الولايات المتحدة الأمريكية الرئيسيين في الناتو (كما بحلف الناتو نفسه) في أفغانستان، ومع رفض أي تشاور حقيقي قبل اتخاذ القرارات المهمة، كل ذلك يبدو

على أنه يعزز الامتعاض أكثر مما يحشد الدعم. ومهما تكن ميزات معارضة الإدارة للقائمة الطويلة من الاتفاقيات الإقليمية التي حاربتها منذ تسلمها السلطة - وكثير من هذه الاتفاقيات كانت تعاني من خلل حقيقي - إلا أنه كان واضحا أنه ليس من المنطقي أن تعلن الولايات المتحدة فجأة أن بروتوكول كيوتو «ميت» وأن تسعى إلى تقويض محكمة الجنايات الدولية، وترفع التعرفة على الفولاذ وتزيد الإعانات الزراعية الحكومية، وتعارض سلسلة من اتفاقيات الحد من الأسلحة، من دون أن يكون لهذه التصرفات أثر تراكمي على مواقف القادة والشعوب الأوروبية تجاه الولايات المتحدة والانتخابات الألمانية في سبتمبر 2002، حيث حدث للمرة الأولى في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أن استنتج أحد المرشحين الرئيسيين أن مكاسب انتخابية عظمى يمكن أن تجنى من معارضة الولايات المتحدة، يجب أن تفهم كتحذير من أن الأحادية الأمريكية سوف يكون لها بالتأكيد ثمن ما.

يجادل البعض أن دعم ألمانيا وميزانيتها الدفاعية التي قوامها 28 بليون دولار أمريكي ليس أساسيا بالنسبة للولايات المتحدة. وفي الحقيقة فإن الولايات المتحدة بميزانيتها العسكرية الضخمة وبعد عقد من النمو الاقتصادي المذهل تبدو في موقف لا يسمح لها بالانفراد أكثر من ذي قبل. إلا أن هذا التوجه في التفكير قصير النظر لأبعد الحدود. فالولايات المتحدة تبقى بحاجة للحلفاء الأوروبيين، ليس لمساهماتهم العسكرية بشكل أساسي - على الرغم من أن هذا أيضا قد يتغير في أعوام قليلة إذا استمرت واشنطن في عجزها المالي الضخم، واستمرت في نشر التزاماتها العسكرية حول العالم. ولكن الحقيقة أنه حتى أمريكا العظيمة لن تستغني عن مساندة أوروبا السياسية، وقواعدها العسكرية، وتعاونها في المنظمات الدولية، وتحتاجها في قوات حفظ السلام والشرطة، وفي الأموال، وتحتاج مساعدتها في التعامل الديبلوماسي مع الآخرين، وفي النوايا الحسنة بشكل عام. إن «الحرب على الإرهاب» المعلنة من قبل الولايات المتحدة لن تكون معركة عسكرية قصيرة الأمد، بل ستكون كفاحا يمتد عدة عقود، شأنها في ذلك شأن «الحرب الباردة»، ولن تقل فيها «القوة اللينة»، والديبلوماسية، والشرعية، والحلفاء، واستخدام الذكاء، والقدرة على كسب القلوب والعقول في كل أنحاء العالم، لا تقل كل هذه الأمور أهمية عن القوة العسكرية. كما أن عدم فعل الحد الأدنى لضمان بقاء الأوروبيين ميالين بشكل إيجابي للأهداف الأمريكية - أو حتى أسوأ من ذلك تحفيز أوروبا للقيام بدور «موازنة القوى» - سيكون تفريطا في ميزات محتملة كموقع مهم للقوة.

لقد حافظت الولايات المتحدة بشكل ناجح فيما مضى على نوع من «الإمبراطورية الأوروبية»، لأنها كانت كما يسميها المؤرخ جير لوندشتاد Geir Lundested «إمبراطورية ببطاقة دعوة» - إذ إن الولايات المتحدة كانت مسيطرة دوما في الشؤون الأوروبية لأن الأوروبيين أرادوها كذلك. والولايات المتحدة تخاطر اليوم بتنفير من هم على الأرجح أكثر من تحتاجهم كحلفاء للقرن الحادي والعشرين. إن التعاطف والدعم الأوروبي للولايات المتحدة لن يختفي بين عشية وضحاها، ولكن مع مرور الوقت واستمرار معاملة الحلفاء كأنهم ليسوا ذوي أهمية قد يؤدي إلى هذه النتيجة السيئة بالذات، وستجد الولايات المتحدة نفسها أمام اتحاد أوروبي كامل يشبه التصور الأمريكي عن فرنسا: ممتعض من القوة الأمريكية، ممانع لتقديم الدعم السياسي، وساع لمقاومة المصالح الأمريكية في كل مكان.

للأوروبيين دور بنفس أهمية دور الولايات المتحدة لتفادي هذه النتيجة، فكلما رفضوا أن بعض المشاكل العالمية لا بد من التعامل معها بالقوة، دعموا الاستنتاج عند بعض الأمريكيين بأن التشاور ليس إلا مضيعة للوقت وأن واشنطن يجب أن تعمل لوحدها. فعدنما ينتقص الأوروبيون من أهمية القلق الأمريكي إزاء مواضيع مثل الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، فإنهم بذلك أيضا يتصرفون بطريقة تنفع تلك المجموعات الموجودة في الولايات المتحدة والتي تحاول برهنة أن لا جدوى من محاولة استمالة الأوروبيين. إن حجة الأوروبيين بأن توجه بوش إزاء الإرهاب وحديثه عن «محور الشر» هو «منطق تبسيطي» هي حجة تتمتع بميزة المصداقية، ولكنها لا توفر خطة بديلة لمجابهة التهديدات التي تواجه الأمريكيين الأوروبيين. كما أن «إصرار» أوروبا المتكرر (قبل الحرب) على أن صدام حسين كان عليه أن يتعاون مع حلول مجلس الأمن ويسمح لمفتشي الأسلحة بالرجوع إلى العراق - من دون الإسناد بالقوة العسكرية الممكنة - كان تهديدا فارغا لا فرصة له بأن يحقق أي نتيجة.

وعلى الدول الأوروبية أن تعزز قدراتها العسكرية أيضا إذا أرادت أن تؤخذ على محمل الجد - في واشنطن وفي كل أنحاء العالم. وإن لم تفعل ذلك فستجد القوات الأوروبية نفسها غير قادرة على العمل إلى جانب الولايات المتحدة، مما يعزز نوعا من عدم التكافؤ في تقاسم العمل وذلك يقوض الشعور بالمخاطر المشتركة التي يتطلبها أي تحالف. إن خطة تشكيل قوة أوروبية للرد السريع - والتي استهلت بالتفاخر منذ ثلاث سنوات - قد كانت مبادرة ذات احتمالات مهمة، وإثباتا على أن بعض الأوروبيين على الأقل يلاحظون أن على أوروبا أن تصبح أكثر جدية فيما يتعلق بالأمن والدفاع. ولكن تطور هذه المبادرة كان حتى الآن بطيئا جدا ولم يتم توفير الدعم المادي اللازم لها. كما أن

ممانعة بعض الدول الأوروبية في دعم قوة للناتو المقترحة من الولايات المتحدة، وهو أيضا علامة مقلقة تدل على أنهم قد استنتجوا أنه حتى لو كانت عندهم جيوش أكثر قوة، فإن الولايات المتحدة لن تكون مهتمة باستخدامها أو مشاركتها في اتخاذ القرار. إن إعلان فرنسا مؤخرا عن زيادة مقدارها 90 بليون دولار أمريكي في الإنفاق على المعدات الدفاعية خلال الأعوام الستة المقبلة - لاستخدامها في عدة مجالات من مصادر إظهار القوة، تتضمن حاملة طائرات جديدة، وصواريخ كروز، وطائرات قاذفة مقاتلة - هذا الإعلان هو بلا شك مؤشر إيجابي، ولكن ما زال هناك شوط طويل يجب قطعه.

وإذا كانت إحدى نتائج تحليل كيغان أنه حفز الاتحاد الأوروبي - والذي يصر على ألا ينظر إليه كنسخة غنية من حلف الأنديز - ليصبح أكثر جدية إزاء الدفاع، فإن ذلك التحليل يكون قد استحق أن يكتب لهذا السبب فقط.

وعلى الأوروبيين - نهاية - أن يفطنوا لحقيقة أن أمنهم الحالي يعتمد أكثر من أي وقت مضى على تطورات تحدث خارج حدودهم. وأحد أسباب التباعدات الأطلسية الحالية أنه في حين تركز واشنطن على التطورات العالمية، فإن الأوروبيين - وبتفهم تام - مشغولون بالتحديات الهائلة لإتمام التكامل السلمي لقارتهم، من خلال توسيع الاتحاد الأوروبي، واليورو وتحقيق ميثاق دستوري. وهذه المشاريع بلا شك مهمة، وهي بذاتها مساهمات رئيسية في تحقيق سلام العالم واستقراره، ولكنها لم تعد كافية أبداً. وبحلول العام 2004، عندما ينضم على الأغلب عشرة أعضاء جدد للاتحاد الأوروبي، ويوضع دستور جديد فإن على أوروبا الجديدة أن توجه أنظارها إلى أبعد من حدودها إذا أرادت أن تحافظ على علاقة الشراكة العالمية الحميمة مع الولايات المتحدة، والتي يحتاجها كلا الطرفين.

ليس قدرا على الأوروبيين والأمريكيين أن يسلكوا طرقا مختلفة. ولكن من الممكن أن ينتهوا إلى هذه النتيجة إذا عمل صانعو السياسة على طرفي الأطلسي على أساس الافتراض بأن نظرات مختلفة جوهريا إلى العالم سوف تجعل التعاون الذي يعود بالفائدة مستحيلا في الوقت الحالي. والحقيقة أنه على الرغم من كل الخلافات - وفي عصر العولمة والإرهاب على نطاق واسع - فلا توجد منطقتان في أي مكان من العالم تملكان عددا من القواسم المشتركة أكثر من هاتين المنطقتين، أو يمكن أن تخسرا أكثر لو فشلتا في المضي يدا بيد في الجهود لتعزيز القيم والمصالح المشتركة حول العالم ليس هذا بالوقت المناسب للبدء بالتظاهر أن أيا من الولايات المتحدة أو أوروبا يمكنهما أن يعزفا منفردين.



اعتلال عبر الأطلسي

بقلم: صامويل إف ويلز*

ترجمة: فرج الترهوني

العنوان الأصلي للمقال: **Transatlantic Ills**
ونشر في مجلة **The Wilson Quarterly** عدد شتاء **2003**

تولد قدر لا بأس به من الابتهاج على جانبي المحيط الأطلسي في شهر نوفمبر الفائت عند مصافحة الرئيس جورج دبليو بوش للمستشار جيرهارد شرويدر، وعندما ابتسما لكاميرات التصوير في أثناء انعقاد قمة منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) في براغ.

❖ صامويل إف ويلز الابن: مدير مشارك في مركز وودرو ويلسون وقد ألف وحرر 10 كتب، بما فيها الكتاب الأخير بعنوان «البحث عن النمو المضطرد» حالات جنوب شرق آسيا وجنوب شرق أوروبا (1999).

لم تكن المصافحة بحد ذاتها هي الشيء الملحوظ الوحيد ولكن حقيقة أن هذه الذكرى البسيطة (والمراء الواضح) للصداقة والتفاهم بين قائدي أكبر قوتين أطلسيتين، قد نُظر إليه على أنه حدث جدير بالملاحظة وبينت ردة الفعل كيف أن العلاقات عبر جانبي الأطلسي قد ساءت خلال السنوات المنصرمة.

كان السبب المباشر في توتر العلاقات الألمانية - الأمريكية هو الموقف المتشدد ضد الحرب في العراق الذي اتخذه شرويدر أثناء الانتخابات الألمانية الأخيرة، ومما لا شك فيه أن النفور الشخصي قد أضيف إلى الاختلاف في السياسة. لكن المشكلة ليست محصورة بين رجلين أو بين أمتين، لأن العلاقات بين الولايات المتحدة وأوروبا واقعة في مأزق وتبدو السياسات والرؤى المشتركة أقل وضوحا مما كانت عليه في أي وقت منذ الحرب العالمية الأولى.

رغم كل الأحاديث الطيبة التي جرت في براغ، وبينما قدم حلف الناتو دعوات تاريخية للعضوية لثلاث دول كانت ذات مرة جزءا من الاتحاد السوفييتي، فقد غادرت الولايات المتحدة القمة دون الحصول على التزام مهم من قبل حلفائها حول المجابهة في العراق. لقد أعلن حلف الناتو أن على صدام حسين أن ينزع أسلحته، لكن لم يكن هناك أية وعود بإقصائه عن الحكم إن لم يفعل، وليست المسألة العراقية إلا تجليا واضحا لصعوبات أكثر عمقا.

ربما تكون القضية الأكثر تعرضا للنقاش من بين هذه الصعوبات هي التفاوت الخطير بين القدرات العسكرية والاستخبارية بين الأوروبيين والأمريكيين، وباستثناء بريطانيا فليس لأي بلد أوروبي القوات والمعدات التي يمكنها العمل مع الأمريكيين. ولهذا السبب بالذات تصرفت الولايات المتحدة بشكل منفرد في أفغانستان ردا على هجمات سبتمبر الإرهابية. فقد استعانت بالقليل من الوحدات الخاصة والطائرات البريطانية، وعدا ذلك لم تطلب مساعدة أية دول أخرى عدا تلك المجاورة للمنطقة المستهدفة. وأعلن المؤرخ بول كينيدي من جامعة ييل الذي اشتهر بتحذيره للولايات المتحدة في الثمانينيات حول التمدد الإمبريالي المبالغ فيه بأن «حسب الشروط العسكرية فإن الدرس الأكبر من حرب أفغانستان هو أنه لا يوجد إلا لاعب واحد يعتد به في الميدان».

لقد فاقمت الأحادية الأمريكية من الاختلافات الأساسية مع أوروبا حول قضايا الأمن ومنها الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، ومراقبة التسلح والحد من انتشار الأسلحة، ومختلف أوجه القانون الدولي، كما أن هناك خلافا حول البيئة، وسلامة الأطعمة، ومساعدات التنمية، والثقافة، والتجارة، واندماج الشركات الكبرى، وكذلك حول تطبيق عقوبة الإعدام.

وفي مقالة جديرة بالاهتمام في مجلة الموقف السياسي Policy Review خلال

الصيف المنصرم أعلن روبرت كيجان التابع إلى منحة مؤسسة كاريجي للسلم العالمي بكل صراحة «لقد حان الوقت للتوقف عن التظاهر بأن الأمريكيين والأوروبيين يتقاسمون نظرة مشتركة للعالم، أو حتى أنهم يعيشون في العالم نفسه. ففي مسألة القوة بالغة الأهمية - فعاليتها، حدود فعاليتها ومدى الرغبة فيها - تختلف الرؤى الأمريكية عن الأوروبية... وبالنسبة للمسائل الاستراتيجية والعالمية الكبرى في هذه الأيام، يبدو وكأن الأمريكيين من كوكب المريخ والأوروبيين من كوكب الزهرة».

كتب مراقب آخر: تميل الشكاوى الأمريكية للتركيز على مناطق ثلاث اعتقادا بأن الأوروبيين لا يتحملون حصتهم الكاملة من أعباء الدفاع؛ والانطباع بأن هناك موجة تجتاح أوروبا؛ ثم الارتياب في أن أوروبا تتوقع أن يتحمل الأمريكيون ككل... المخاطرة. أما بالنسبة للأوروبيين فهم ليسوا سعداء بما يظهر عن وعي تام في السياسة الخارجية للولايات المتحدة من نغمة حادة وخصامية، كما يميلون للاعتقاد بأن الولايات المتحدة تفضل المواجهة بدلا من التفاوض، ويستاؤون من أنه لا يبدو أن الأمريكيين يقدرون الأعباء التي تتقاسمها معهم أوروبا الغربية.

إن المقولة سابقة الذكر لم تأت من قبل أحد العلماء المعارضين ولكن من الجنرال برنارد روجرز، القائد الأعلى للحلفاء في أوروبا وقد كتب ذلك منذ أكثر من عشرين عاما في مجلة الشؤون الخارجية، وتعد تحليلات روجرز تذكارا مفيدا بأن الحلفاء الغربيين قد جابهوا الكثير من العواصف في الماضي.

ومع ذلك فيمكن القول أيضا إن التوترات الحالية تعد مختلفة من أوجه عديدة مهمة عن تلك التي حدثت أثناء الحرب الباردة، وذلك لأن التهديدات والتكتيكات نفسها التي تواجه الولايات المتحدة وأوروبا تعد مختلفة، ومنها على سبيل المثال الأسلحة البيولوجية، والأسلحة الذرية القذرة، وأسلحة الرعب التي في حوزة مجموعات «غير رسمية» مبهمة، والهجمات التي تتعرض لها البنية التحتية لاتصالات منظومة معلوماتنا الكونية؛ والتفجيرات الانتحارية وفوق كل هذا فإن غياب العدو الرئيسي مثل الذي كان لدينا أثناء الحرب الباردة يحرم الحلفاء الغربيين من التماسك الضمني الذي دعم الروابط الأطلسية خلال الأزمات السابقة. أما اليوم فليس حتى من السهل الاتفاق على من يكونوا أعداءنا، فما بالك بمقابلة التحديات التي يمثلونها. وفي هذه البيئة الجديدة ستضطر أوروبا والولايات المتحدة للعمل بقوة أكثر لتعزيز التعاون بينهما ومواجهة الخصوم بنجاح.

لم تساعد حقيقة أن كثيرا من الأوروبيين لا يحبون الرئيس جورج دبليو

بوش، وهو الذي غالبا ما يذكرهم برئيس أمريكي ثان كانوا يزدرونه هو رونالد ريجان. وفي معرض تأكيده على الحرية في أمريكا وفي الخارج بصفتها الهدف الرئيسي للعمل السياسي فإن بوش على سبيل المثال يحمل تشابها مذهلا لريجان. وبعد تدمير برجي مركز التجارة العالمي أعلن بوش أن الحرية نفسها تتعرض للهجوم، وأثناء خطاب حالة الأمة في يناير 2002 أعلن أن «مع أن ثمن الحرية والأمن مرتفع إلا أنه لا يعد مرتفعا للغاية». ولم يكن من قبيل المصادفة ما قاله المرشح بوش خلال خطابه الأول حول السياسة الخارجية في نوفمبر 1999 في مكتبة ريجان الرئاسية في كاليفورنيا.

ومثل ريجان من قبله يعد بوش ملتزما بتفوق القوة العسكرية لتحقيق المصالح القومية للولايات المتحدة ولتوسيع رقعة الحرية. فكلا الرجلين أدار حملته على أساس التعهد بإعادة القوة العسكرية الأمريكية إلى سابق عهدها وتحتوي مطالب إدارة بوش لميزانية الدفاع في عام 2003 الزيادة الأعلى (12٪) منذ البناء العسكري في الثمانينيات. فضمن قائمة ميزانيات الدفاع العشر الأكثر ارتفاعا في العالم اليوم، تعد ميزانية الولايات المتحدة البالغة 397 مليون دولار هي الأكثر من مجموع ميزانيات البلدان التسع الأخرى.

مع ذلك فهناك فارق مثير بين موقف الرئيسين تجاه الأسلحة النووية، ورغم أنه تم الإبقاء على هذا الأمر هادئا بشكل نسبي خلال الأعوام الأولى من إدارته، إلا أن رونالد ريجان أراد التخلص من الأسلحة النووية، وضغط للوصول إلى هذا الهدف خلال اجتماعاته كافة مع ميخائيل جورباتشوف وغيره من القادة السوفييت، ومن جهة أخرى يبدو جورج دبليو بوش ملتزما بتوسيع الإمكانات النووية على الصعيد التكتيكي فهو يؤيد بكل قوة تطوير رؤوس حربية نووية جديدة مصممة لمهاجمة أهداف صعبة أو مدفونة في العمق. وقد لمح بعض أعضاء الإدارة إلى أن هذا سيؤدي إلى إلغاء الاتفاقات الحالية الخاصة بوقف التجارب النووية.

لقد أحس كثير من الأوروبيين الذين فطموا على السياسة الواقعية بالإحباط جراء ما حواه البعد الأخلاقي للرئيسين من لغة طنانة. وقد كانت ملاحظات ريجان عن الاتحاد السوفييتي بوصفه «إمبراطورية الشر» بمثابة إلهام لحديث بوش عن «محور الشر» وتوصيفه لأعضاء الطالبان والقاعدة بأنهم «فاعلو الشر». بعد اختطاف الإرهابيين لطائرة TWA في العام 1985 ادعى ريجان بأن إيران، وليبيا، وكوريا الشمالية، وكوبا، ونيكاراجوا تشكل شبكة إرهابية، وأعلن أن الولايات المتحدة ستتصرف بشكل منفرد في حالة الضرورة، وعلى أن الإرهاب لم يكن له ملجأ في أي مكان من العالم، ثم أضاف بأننا لن نتسامح

على وجه الخصوص مع هذه الهجمات الصادرة عن دول مارقة يديرها أغرب تجمع من المجانين وأصحاب المزاج العكر وأحقر المجرمين منذ قيام الرايخ الثالث. كما هو متوقع فقد كان للقادة السياسيين الأوروبيين نفس ردة الفعل المريرة والمشكلة مسبقا تجاه هذين الرئيسين الجمهوريين اللذين يتحدثان بكل صراحة وترددت في أنحاء العواصم الأوروبية عبارات الرفض من قبيل - «متهور»، «راعي البقر»، «غِرّ»، «الأهبل».

في الوقت نفسه، وطبقا لنظرة واشنطن للعالم فقد أصبحت مهمة تقدير التهديدات والتعرف على الشركاء أكثر تعقيدا بكثير مما كانت عليه طوال نصف قرن من الحرب الباردة. فقادة الولايات المتحدة مهتمون على وجه الخصوص بالتهديدات على النطاق العالمي مثل تلك التي تمثلها جماعة الطالبان وتنظيم القاعدة، والمجموعات الإرهابية في كولومبيا (التي تتلقى المساعدات من الجيش الإيرلندي ومن جهات أخرى) وفي الفيليبين (التي لها ارتباطات في جنوب وجنوب شرق آسيا) وفي اليمن، وشرق إفريقيا، لكن مصادر التهديدات التقليدية - العراق وإيران وكوريا الشمالية - تعد مصدرا مقلقا أيضا. من وجهة نظر واشنطن والحلفاء والشركاء المتوفرون للمساعدة في التعامل مع هذا الهائل من التهديدات فهم يعدون مجموعة في غاية الصعوبة.

ثمة حلفاء متصلبون مثل إسرائيل، وحلفاء متذمرون ومتضاربون في المواقف مثل السعودية ومصر وباكستان، وحلفاء حذرون مثل الصين التي لا يخفف من دعاواها القومية إلا رغبتها في التحول إلى النظام الاقتصادي العالمي. ثم هناك أفضل صديق جديد لواشنطن، فلاديمير بوتين رئيس روسيا التي تبذل مجهودا كبيرا لدعم كفاح واشنطن لمكافحة الإرهاب، كما تحاول المساعدة في الحفاظ على استقرار سوق النفط العالمية. لكنها تملك أيضا بنية عسكرية تحتية تبعث على القلق، وتزود دولا قد تكون معادية ببعض عناصر أسلحة الدمار الشامل.

كيف يمكن لصناع السياسة الأمريكيين توصيف أوروبا عند تقييم هذا الخليط من الأصدقاء والأعداء؟ قد يكون الانكفاء على الذات هو التعبير الذي سيستخدمه الأغلبية من صناع القرار والمحللين. فالأوروبيون منشغلون ببناء الاتحاد الأوروبي وقضايا الإصلاح الاقتصادي المحلية، والهجرة، والخدمات الاجتماعية. وتتبع الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي منفردة سياسات خارجية هي في الغالب متباينة وغير مجدية دائما. ورغم أن كثيرين من القادة الأوروبيين يقولون إنهم يريدون دورا عالميا ومستقلا للاتحاد الأوروبي، إلا أن هذا الاتحاد يفتقر إلى الإمكانات والهدف والإرادة السياسية التي تجعل من تحقيق هذه الرغبة أمرا ممكنا.

وحتى بالنسبة لمسألة العراق العويصة ليس هناك أي إجماع في الآراء: فألمانيا لاتزال على حالها من معارضة لسياسة الولايات المتحدة، لكن فرنسا خففت من موقفها بعد حصولها على تنازلات ذات قيمة من واشنطن. أما دول أخرى وبالأخص إيطاليا وأسبانيا فقد كانت مؤيدة بكل هدوء لموقف الولايات المتحدة طوال الوقت، وبالطبع فقد عمل رئيس الوزراء البريطاني توني بلير بصورة لصيقة مع الأمريكيين. وكي تزداد الأمور غموضا فالاتحاد الأوروبي على وشك أن يضيف إلى عضويته عشر دول جديدة يعد أغلبها أقل التزاما بدور عالمي تجاه نفسها وتجاه الاتحاد الأوروبي من أقل الدول تحمسا من الأعضاء الخمسة عشر الحاليين. ولا غرو أن الكثير من المسؤولين في واشنطن يعتقدون بأن خيارات أوروبا السياسية وضعف قوتها العسكرية، بل وحتى الإرادة الأضعف لاستخدام هذه القوة مسؤولة بشكل كبير عن حالة الانسجام بين جانبي المحيط الأطلسي.

مع ذلك، وفيما لا يكاد يلاحظ وسط ضجيج العناوين الرئيسة فقد اقترحت الولايات المتحدة قائمة بالسياسات التي تنوي التعامل بها مع البيئة الدولية المتغيرة، ويعد الكثير من هذه السياسات جديد بالمرة.

وقد قدم ريتشارد هاس رئيس طاقم التخطيط السياسي في وزارة الخارجية الأمريكية خلال خطاب له أمام جمعية السياسة الخارجية في أبريل الفائت أفضل إعلان عن طموحات إدارة بوش في مجال السياسة الخارجية. ففي استعادة للماضي نحو سياسة الاحتواء للعدوان السوفييتي التي وضع أسسها جورج كيان عام 1947 طالب هاس بتطبيق عقيدة جديدة سماها الدمج Integration.

كان هدف سياسة أمريكا الخارجية في القرن الحادي والعشرين هو دمج منظمات أخرى ستمثل عالما متناغما مع المصالح والقيم الأمريكية وهو ما سيعزز إحلال السلام والرفاهية والعدالة في أكبر منطقة ممكنة. وعملية دمج شركاء جدد في ما نقوم به من مجهودات سيساعدنا في التعامل مع التحديات التقليدية للحفاظ على السلم في مناطق متباينة، بالإضافة إلى التهديدات عبر العالم المتمثلة في الإرهاب العالمي، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، كما أن هذا الأمر سيأتي بمن تركوا على الجانب في السابق نحو هذا العالم الذي تسود فيه العولمة. في هذا المجال يعد مصيرنا متداخلا مع مصائر الآخرين مما يحتم علينا اقتسام نجاحاتنا معهم.

بينما تعد مقولة هاس انعكاسا لأهداف وزارة الخارجية ولجميع المؤيدين للانفتاح على العالم داخل الولايات المتحدة، ولكن ليس للمتشددين في إدارة بوش. فقد سعى الرئيس

بوش منذ خطابه في سبتمبر أمام الأمم المتحدة للحصول على دعم مجلس الأمن حول مسألة إزالة أسلحة التدمير الشامل من العراق.

ثم ألقى هاس خطابا في وقت لاحق في لندن اقترح فيه نهج «مسار جديد» للعلاقات الأوروبية - الأمريكية، ونادى على وجه الخصوص بشراكة مع الأوروبيين لمكافحة الإرهاب والتعامل مع العراق، وتحدث عن أمور أخرى مثل انعدام الاستقرار في أمريكا اللاتينية وإفريقيا فقال: «نظرا لما تتمتع به أوروبا اليوم من أمن واستقرار نسبيين فلا يوجد إلا القليل مما يمكن أن تفعله أوروبا وأمريكا داخل أوروبا، ولكن يوجد المزيد الذي يمكنهما القيام به خارج أوروبا... وفقط عند التعامل مع هذه التحديات المناطقية والتحديات عبر طرفي الأطلسي يمكن للعلاقات عبر الأطلسي أن تكون موضوعية، وفقط بكونها موضوعية يمكنها أن تتحمل اختلافات الآراء وتشعباتها التي لا محالة واقعة».

تحقق بعض التقدم تجاه هذه الأهداف أثناء قمة براغ المنعقدة في الخريف الماضي عندما اتفق قادة حلف الناتو على ضم سبع دول شرق أوروبية إلى التحالف في المستقبل وهو ما سيرفع عدد الأعضاء إلى 26 دولة. كما وافقوا أيضا على تغيير استراتيجية الدفاع التقليدية للحلف، لتكون (قوة رد فعل سريع) للناتو تعد 21000 شخص، تملك أسلحة عالية التقنية وبإمكانها تحقيق الانتشار السريع في أي مكان من العالم كجزء من الحرب ضد الإرهاب. كما صادق زعماء الحلف الموسع على خطة تخصصية جديدة للمهام يلزم فيها الأعضاء أنفسهم بتركيز مواردهم من أجل تطوير إمكاناتهم في منطقة أو أكثر. مثل الدفاع ضد أسلحة التدمير الشامل، وتوصيل القوات والمعدات إلى أماكن بعيدة. وعندما يتم تنفيذ هذه الالتزامات سيكون لها أثر كبير في تبديد الكثير من أسباب تذمر الولايات المتحدة حول الإمكانات العسكرية المتدنية للحلفاء الأوروبيين.

باستثناء الحرب الفورية على الإرهاب فإن عناصر جديدة من استراتيجية الولايات المتحدة لها تأثيراتها المهمة على العلاقات عبر الأطلسية. واستحداث وزارة جديدة للأمن الداخلي، التي تعد في المرتبة الثانية من حيث الحجم لوزارة الدفاع فقط، سيعمل على إحداث تغيير في كيفية تعامل حلفائنا مع واشنطن. فعمليات تعزيز المقدرة على جمع وتحليل الاستخبارية للولايات المتحدة، وتحويل القوة العسكرية للقيام بمهام الانتشار السريع، والعمليات المتحركة - على الرغم من حتمية تعرضها للمساءلة داخل الحكومة - ستغير من طريقة تعامل الولايات المتحدة مع الحلفاء. ووراء نطاق هذه المبادرات المحلية ستحاول الإدارة دمج السياسات المالية والاقتصادية والسياسية

من أجل نمو الاقتصاد العالمي واستقراره. ومن أجل تمتين العلاقات مع الحلفاء عن طريقة زيادة المقدرة على القيام بعمليات وتعاون مشترك بين سلطات المالية، والشرطة، والاستخبارات.

لا يوجد جانب من سياسات إدارة بوش بعد الحادي عشر من سبتمبر تسبب في جدل أكثر من عقيدة هذه الإدارة العسكرية الخاصة بتوجيه الضربات الاستباقية للجماعات الإرهابية أو للدول الساعية إلى تطوير أسلحة الدمار الشامل، وقد اتضح أول تغيير في السياسة عن طريق خطاب الرئيس بوش عن حالة الاتحاد الذي ألقاه في 29 يناير 2002 «لن أنتظر الأحداث بينما الخطر يتجمع». وكان الرئيس أكثر وضوحا في كلية وست بوينت في يونيو عندما أعلن «سيتطلب أمننا من كافة الأمريكيين... أن يكونوا مستعدين للقيام بإجراء استباقي للدفاع عن حريتنا، والدفاع عن حياتنا عند الضرورة». لقد عبر الكثير من المحللين في أوروبا والولايات المتحدة عن قلقهم لما تتضمنه مثل هذه السياسة من خطورة؛ كما رآها عدد أكبر من المراقبين المتمرسين بأنها خطوة أخرى نحو تصعيد حرب الأعصاب بين إدارة بوش ونظام صدام حسين* ».

في النهاية فأسلوب الولايات المتحدة الاستراتيجي حيال هذا الأمر يصر على ضرورة وجود درجة قصوى من حرية التصرف، فالإدارة حذرة من الاختلاف والاتفاقات التي قد تحد من اتخاذ إجراءات مستقبلية (وهو السبب وراء إلغاء اتفاقية عام 1972 حول الصواريخ البالستية المضادة) وفي وقت قريب جدا أدت سياسة ضمان أقصى قدر من الحرية بالإدارة إلى تهديد حيوية كافة عمليات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من أجل الحصول على استثناء لقوات الولايات المتحدة من احتمال مثولهم للمحاكمة أمام محكمة الجنايات الدولية الجديدة. بالطبع فقد سارع النقاد في أمريكا وفي العالم في الإشارة إلى أن هذه السياسة تعارض بشكل مباشر السياسة التعاونية المطلوبة لتنفيذ الحرب الكونية ضد الإرهاب.

وبمعزل بعيد عما إذا كانت الخطة الاستراتيجية الجديدة متماسكة أو مترابطة منطقيا، فإن فرصها في النجاح تتعرض للخطر لوجود مشاكل في ثلاث مناطق مهمة، أكبرها هو الصراع طويل الأمد بين الجهات الديبلوماسية وسلطات الدفاع في الولايات المتحدة، وهي القضية التي تصاعدت حدتها في هذه الإدارة وخرجت

❖ لم تكن عقيدة الضربة الاستباقية هذه جديدة كما أعتقد البعض. ففي وثيقة أعدت عام 1997 بعنوان: «استراتيجية الأمن للقرن الجديد» كما جاء في ورقة كريستوفر كوكر بعنوان «العولمة وفقدان الأمن في القرن الحادي والعشرين: الناتو وإدارة الخطر» أعلنت إدارة كلنتون أن إحدى العناصر الرئيسية لسياستها الأمنية هي «منع وتعطيل وإحباط الأعمال الإرهابية قبل وقوعها».

عن نطاق سيرة وسيطها غير الحازم «مجلس الأمن القومي، ووزارة الخارجية المحاصرة دوما تجد نفسها في صراع ضد محور تشيني - رامسفيلد» القوي المكون لطاقم نائب الرئيس للسياسة الخارجية ووزارة الدفاع - مثلما كان عليه الخلاف أيام الرئيس ريجان بين وزير الخارجية جورج شولتز، ووزير الدفاع كاسبر واينبيرجر.

والذي يعقد أكثر من آفاق هذا الصراع هو ما جرت عليه العادة في الولايات المتحدة من الإحجام عن إعطاء تعليمات سياسية للقوات العسكرية بمجرد تكليفها بالمهام. ففي أفغانستان، على سبيل المثال، قررت إدارة بوش ألا تستعين بمساعدة أحد سوى البريطانيين والأفغان، ويعود السبب جزئيا في ذلك إلى إعطاء القادة العسكريين الأمريكيين حرية الحركة والسيطرة. ولكن كانت نتيجة رفض استخدام قوات أوروبية في الهجوم على تورا بورا أن هرب العديد من قادة الطالبان والقاعدة. كما أدت السيطرة العسكرية الأحادية إلى نشوء الخلاف حول القبض على مقاتلي القاعدة والطالبان وحبسهم - وهو الخلاف حول المسائل القانونية والعلاقات العامة الذي لم يحل بعد بطريقة لائقة.

الجانب الإشكالي الثالث والأخير لمسألة الحرب على الإرهاب هو الالتزام غير الكافي لمسألة «إعمار - الأمة»،وهو ما يعني مساعدات التنمية وجهود تطوير قضية التعددية السياسية، والمثال الواضح في هذا المجال هو رفض الحكومة تخصص موارد أكثر من أجل إعادة إعمار أفغانستان.

لن تتحسن العلاقات عبر الأطلسي إلا بخليط غاية في الحكمة من الواقعية والصبر، فالذي يفصل الولايات المتحدة عن أوروبا اليوم ليس فجوة عامة في القيم الثقافية، أكثر منه معتقدات معينة حول دور الحكومة، واستخدام القوى، ومقدار الوقت الذي يجب السماح به لحل المشكلات. فالولايات المتحدة ترغب في إعطاء أقل دور ممكن للحكومات في أمريكا أو في الخارج. (حتى أنه يدور بعض الحديث حول خصخصة بعض جوانب من منظومة السياسة الخارجية مثل الإدارة الأمريكية للتنمية الدولية)، وهي حساسة تجاه المشاريع متعددة الجنسيات، وتتجنب استخدام الأمم المتحدة قدر الإمكان، وترغب أيضا في التعامل مع المشاكل مباشرة، وحلها بسرعة، فالأمريكيون قوم غير صبورين. على العكس منهم، فإن الأوروبيين، وبسبب من تجربتهم وقناعاتهم، فإنهم على مستوى عال من التوجيه السياسي في كافة النشاطات العالمية، وخصوصا تلك التي تتعلق بالقوة العسكرية، ويفضلون حلولا متعددة الجنسيات واستخدام الأمم المتحدة للوصول إليها، ومستعدون كذلك للقبول بأنصاف الحلول

من أجل كسب الوقت أملا في تحسن الوضع الدولي.

عند وضع هذه الخلافات في الأذهان يمكن للمرء أن يتخيل برنامجا لتعاون أفضل عبر الأطلسي يتكون من عدة عناصر أساسية، أولها وجوب اعتراف قادة الاتحاد الأوروبي والدول الأعضاء في الاتحاد والولايات المتحدة بحاجة الحلفاء لشن الحرب على الإرهاب. ومن المفارقة أن إدارة بوش التي تعمل بكد من أجل إعادة تنظيم الحكومة الأمريكية لتحسين أداء أقسامها المختلفة في التعامل مع الأمن الداخلي لا ترى حاجة لتعزيز التعاون الخارجي مع حلفائنا التقليديين. من الضروري أن تكون هناك مشاورات أكثر تكرارا بين واشنطن والعواصم الأوروبية منفردة، ومع الاتحاد الأوروبي، ولا بد أن تركز هذه اللقاءات بشكل أقل حول المهام المباشرة وبصورة أكثر على تشكيل المجهودات المشتركة للتعامل مع القضايا العامة المعترف بوجودها. كما يجب زيادة عدد اللقاءات بين أعضاء السلطة التشريعية في الجانبين، فغالبا ما يحصر البرلمانيون تفكيرهم في مسائل الاحتياجات الوطنية ومتطلبات دوائرهم الانتخابية، ويتعين على المؤمنين بالتعاون الدولي أن يضعوا أمامهم البرهان القاطع بأن الحلول لكثير من المشاكل الداخلية سيجدونه في محيط دولي أفضل حالا. وأن إيجاد فرص أكثر لتبادل زيارات الأكاديميين ورجال الأعمال وممثلي الهيئات غير الحكومية ومجموعات المواطنين سيوفر منشطا خفيفا ولكنه في غاية القوة أيضا للعلاقات بين طرفي الأطلسي.

من أجل تحسين العلاقات في عالم الدفاع والاستخبارات يجب على الولايات المتحدة وأوروبا أن تعترفا بوجود المشاكل التي سببتها الفجوة في الثروة والموارد، وأن تطورا خطة للقيام بنشاطات مشتركة لا تفترض إنفاقا جديدا مرتفعا على الدفاع الأوروبي في وقت تخصص فيه كافة الموارد من أجل توسيع الاتحاد الأوروبي. ويضع التقسيم الجديد للمهام بين أعضاء حلف الناتو الذي أقر في براغ أسس برنامج عام في هذا المجال. بإمكان أوروبا أن تقوم بإصلاح قواتها الحالية لكي تكون اختصاصية في مهام معينة مثل نزع الألغام وحماية القواعد، وهو ما سيساعد في العمليات المشتركة. ولكن من أجل أن يحدث هذا التغيير يتوجب على كل بلد أن تتوقف عن دعم قواتها الجوية والبحرية والبرية. فأوروبا ليست بحاجة إلى 15 أو (كان الرب في عوننا) 25 فرقة مدفعية منفصلة، أو إلى العدد نفسه من الأسراب الجوية. وإذا أراد القادة الأوروبيون شراكة دفاع مع الولايات المتحدة والتمتع كذلك بقدرات مستقلة في حدود المستويات الحالية للميزانية، يتعين عليهم تطبيق برنامج براغ من أجل تحرير المصادر

للحصول على معدات جديدة يمكنها العمل في بيئة قتال تستخدم التقنية العالية.

أما مجموعة المبادرات الرئيسة الثانية، فهي تتعلق باستحداث آلية جديدة للتعاون من أجل مجابهة التهديد بأسلحة التدمير الشامل. وإحدى هذه المبادرات ستكون العمل سوية لتطوير تقنيات أفضل لتقييم التهديد وإعداد الرد.

وتعد مثل هذه الخطوة ضرورية لأن اتجاهات قوية مثل - الارتباط الكوني للاتصالات، الانسياب الحر للبضائع والمعلومات في أنحاء العالم، مقدرة الدول المتناقضة على السيطرة على جماعات الإرهاب أو اختراقها، والتزايد المستمر في حركة الناس - قد قللت كثيرا من إمكانات المحللين وصناع القرار في التوقع وزادت من إمكانات المفاجآت الاستراتيجية مثلما حدث في 11 سبتمبر.

ستكون المبادرة الأخرى في أن تقوم الدول المائة وسبع وثمانون الموقعة على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية بتعزيز المجهودات في مجال منع الانتشار. إن وجود نظام قوي لمنع انتشار الأسلحة النووية يطبق من خلال وكالة الطاقة الذرية الدولية بقيادة الولايات المتحدة، يمكن أن يوفر مساعدة كبيرة في وسائل التفتيش والحماية في الوقت الذي يتم فيه تعليم أعضاء جدد حول مسائل التفكير الاستراتيجي، وطرق حماية معداتهم ومنشآتهم النووية. يجب كذلك الاهتمام المكثف بالمحللين والباحثين في مجال الأسلحة البيولوجية، ويعتقد أغلب الخبراء أنه إذا كان باستطاعة الإرهابيين استخدام أسلحة التدمير الشامل، فعلى الأرجح ستكون هذه الأسلحة بيولوجية وليست نووية أو كيميائية. وخلال الأبحاث في المجال النووي، تعد الأبحاث في مجال التقنية البيولوجية خاصة وغير مركزة، وهو ما يخلق صعوبة في تتبعها والتعرف عليها. ولأن القليل فقط قد تحقق في هذا الشأن، فهي جاهزة على وجه الخصوص لمجهودات أوروبا والولايات المتحدة، ومع ذلك، فإن إدارة بوش لم تدعم بروتوكولا جديدا سيضيف سلطات تدعيم دولية لاتفاقية الأسلحة البيولوجية للعام 1972.

ستستفيد الولايات المتحدة وأوروبا من عملية تقسيم المهام حول المسائل غير المتعلقة بالدفاع مثل المساعدات للدول النامية، والحملة العالمية ضد مرض الإيدز، والتحديات الأخرى المتعلقة بالصحة، والأزمة الاقتصادية العالمية. لقد قامت أوروبا حتى الآن بدور ريادي في تقديم مساعدات التنمية وعلى الولايات المتحدة أن تسعى لكي تجد دورا إضافيا في كل واحدة من هذه المهام، وهناك حاجة كذلك لتعاون أكثر فاعلية عبر الأطلسي لتوفير دور قيادي في سياسات التجارة والمال على مستوى العالم.

هناك حالة تباعد بين أوروبا والولايات المتحدة حول عدد من القضايا العالمية وحتى عندما يكون لديهما هدف مشترك يكتشفان أن التعاون بينهما يزداد صعوبة، وتنبع هذه المشكلة بشكل أقل من انعدام المصادر المالية أكثر من كونها بسبب المواقف والسياسات التي تنظم استخدام هذه المصادر. ولهذا على الولايات المتحدة أن تقوم بإعادة تقييم مدى انطباق رؤاها التي تحبذ الحد من دور الحكومة وسن اللوائح المقيدة في مجالات الشؤون الدولية، بما فيها تلك التي تقود إلى اتخاذ إجراءات منفردة والرافضة للاتفاقات الدولية حول قضايا البيئة والحد من التسلح. وقد تملك الولايات المتحدة أكبر قوة عسكرية وأكثرها تأثيرا عبر التاريخ لكنها لا تستطيع تأمين سلامتها وأمنها في القرن الحادي والعشرين من خلال إجراءاتها هي فقط.

وبسبب هذا الجانب يتعين على أوروبا أن تستخدم مصادرها بشكل أفضل لتجنب الانزلاق نحو حالة من الجمود العقلي تجعل من مجرد الاختلاف مع الولايات المتحدة علامة فارقة في السياسة، كما سيتوجب عليها أن تنقل إلى الاتحاد الأوروبي سلطات مركزية متزايدة في مجال الأمن والسياسة الخارجية، ولا يمكن الوصول إلى المستوى المطلوب من التعاون وتقسيم المهام مع وجود هذا العدد الكبير من الحكومات الوطنية المنفصلة.

وليس الاعتلال الحالي عبر الأطلسي نهائيا أو دائما، لكن علاجه يتطلب مقاومة لضغوط سياسات المشايعة والمصالح الوطنية الضيقة، كما يتطلب إصلاحاً أساسياً لمواقف حول التعاون الدولي. وأكثر من ذلك فهو يتطلب من الأطراف التي بها العلة أن تستجمع إرادتها من أجل الشفاء.

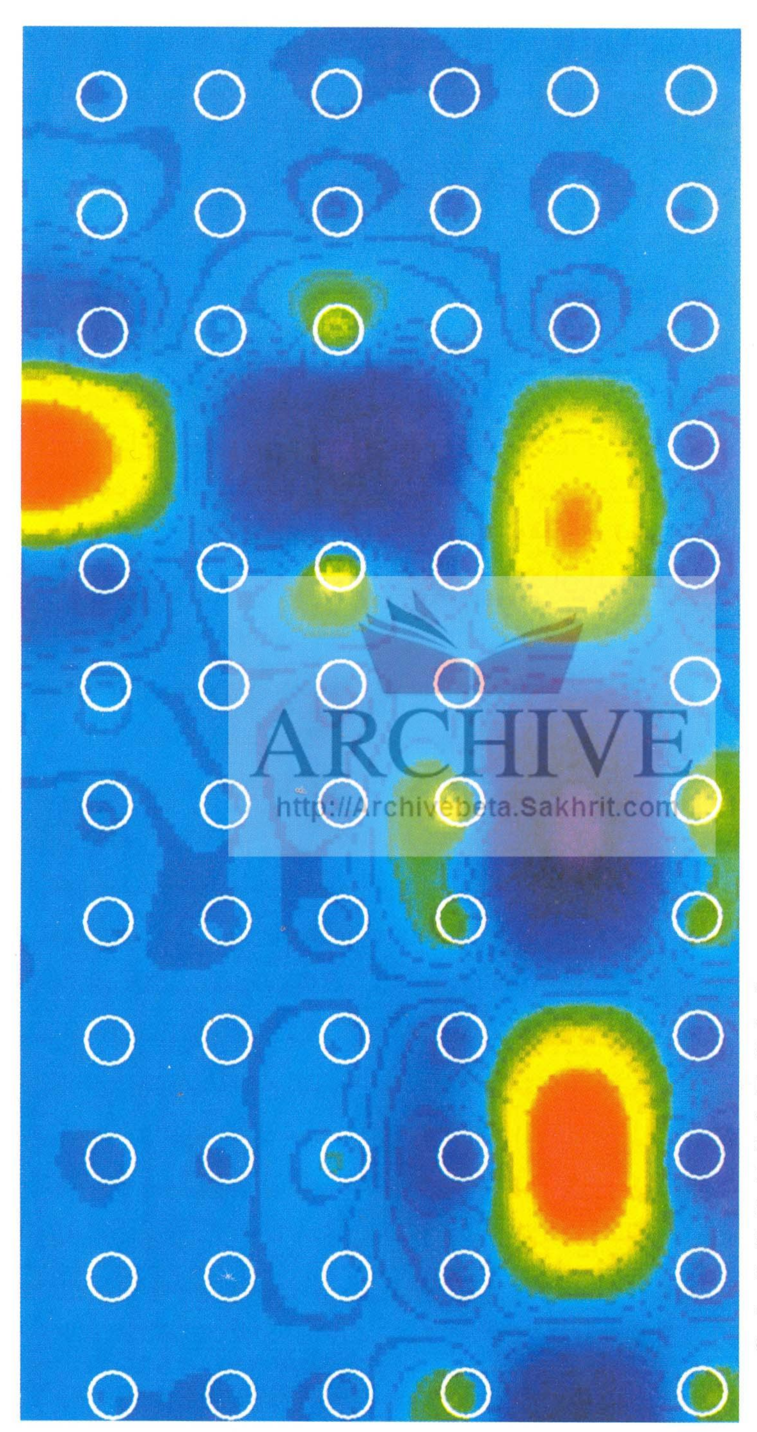
الحياة بعد السيليكون
إلى أين تتجه الحواسب؟

من إعداد طاقم مجلة Focus

ترجمة: صفاء روماني

العنوان الأصلي للمقال: **Life After Silicon** ونشر في مجلة **Focus** عدد يونيو **2002**.

هناك حقيقة ثابتة، وهي أن الحاسوب الذي تشتريه اليوم سيكون غدا من الطراز القديم وهذا ليس بالشيء الجديد، ففي العام 1965 توقع غوردن مور Gordon Moore الذي كان يؤسس الشركة العملاقة إنتل Intel للمعالجات الدقيقة جدا microprocessors أن عدد الترانزستورات في لوحة الدارة سيتضاعف كل ثمانية عشر شهرا حتى العام 1975. كان ذلك التوقع مثيرا للدهشة وما زال صحيحا حتى اليوم.



تبين صورة الحاسوب هذه انحراف الضوء بزاوية قائمة في بلورة فوتونية photonic crystal. تستطيع موجهات موجات البلورة الفوتونية أن تحرف الضوء بمسافة أقصر من تلك المسافة في الألياف البصرية وهذا ما يسهل إمكانية تصنيع مكونات أصغر، ويمكن أن يؤدي هذا إلى ابتكار حواسب بصرية.

إلا أن هذا التقدم يقترب من نهايته، مثله مثل جميع الأشياء المفيدة. يتم تسريع أجهزة الحاسوب وزيادة مقدرتها بوساطة تقليص حجم الترانزستورات والمكونات الأخرى فيها، إلا أن هناك حدودا دنيا لعمليات التصغير هذه يصعب تجاوزها، ففي الولايات المتحدة الأمريكية استطاع العلماء في مخابر بل Bell Labs تركيب ترانزستورات توجّه الإلكترونات نحو مجرى محدد عبر فجوة لا تتجاوز سماكتها جزيئا واحدا.

المشكلة تكمن في أنه عندما يكون قياس مكونات الحواسب صغيرا للغاية بحيث لا يتجاوز بضعة نانومترات nanometers(1) ، عندها لا يمكن تطبيق قوانين الفيزياء المألوفة عليها. وعندما تكون الأبعاد متناهية في الصغر تخضع الإلكترونات التي تحمل التيار إلى قوانين الكمّ(2) الفيزيائية quantum laws of physics فتتسرب من الأسلاك مثل تسرب الأشباح عبر الجدران. ويعتقد كثير من الخبراء أنه مع حلول العام 2010 سيكون من المستحيل تحقيق المزيد من التقدم في مجال التقنية التقليدية للسيليكون(3).

تتراوح البدائل المطروحة بين الحلول العملية مثل استخدام الأشعة الضوئية لنقل المعلومات، مرورا بالحواسب المعدة للنخبة العلمية المختصة والتي تستخدم طاقة الحمض النووي DNA وخصائص الكمّ غير المألوفة للدقائق المكونة للذرات ووصولا إلى الخلايا الدماغية الحقيقية. ويمكن لمثل هذه الحواسب أن تحل خلال بضع ثوان مسائل تحتاج الأجهزة الحديثة إلى عدة شهور أو حتى سنوات لحلها. وقد كان تطور الحواسب مدهشا وسريعا، إلا أن المستقبل قد يكون أكثر غرابة مما نتخيله اليوم.

الضوء

الحواسب البصرية

تبلغ سرعة الحاسوب الموجود على مكتبك سبعة أضعاف الحاسوب الذي كنت تملكه قبل عدة سنوات، ويعود الفضل في ذلك بشكل أساسي إلى تقنيات التصغير المنمنم، فمصنعو الحواسب مستمرون في العمل على تقليص حجم الأسلاك المعدنية الناقلة التي تحمل الإلكترونات إلى جميع أنحاء لوحة الدارة. ونتيجة لاستخدام الأسلاك الأكثر دقة تصبح الدارات أصغر حجما

(1) Silicon (Si): «السيليكون» وهو عنصر كيميائي شبه ناقل للكهرباء ويستخدم في تصنيع المكونات الإلكترونية والحواسب. ويتوفر السيليكون بكميات كبيرة في القشرة الأرضية على شكل مركب مع عناصر أخرى.

(2) «نانومتر» جزء من ألف مليون من المتر.

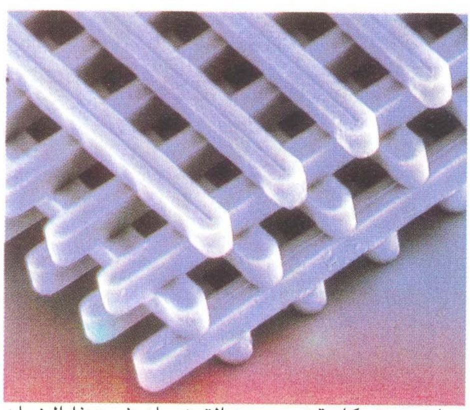
(3) «الكمّ» جمعها «كمات»:وهو أصغر مقدار من الطاقة يمكن أن يوجد.

وتقصر المسافات التي تقطعها الإلكترونات، وبسبب وصول الإلكترونات إلى وجهتها بسرعة أكبر تزداد سرعة عمليات الحاسوب.

من سوء الحظ أن هناك حداً أدنى لدقة الأسلاك حيث تبدأ الإلكترونات بالتسرب منها عند تجاوزه، لذلك يسعى العلماء جاهدين في البحث عن وسائل بديلة لنقل المعطيات. يعتبر الضوء أكثر الوسائل المطروحة احتمالا للاستخدام، فالضوء ينتقل بسرعة تفوق أي شيء آخر في الطبيعة لذلك يعتبر مثاليا بالنسبة لهذه الوظيفة، إذ إن الحواسب الحالية تعالج المعلومات بسرعة تفوق قدرتها على نقل هذه المعلومات في الرقاقة.

إن فكرة استخدام الضوء لنقل المعلومات ليست جديدة، فقد تم فعلا تجريب الألياف البصرية واختبارها في معدات وسائل الاتصال لنقل كميات كبيرة من المعلومات من الإنترنت وإليه. تكمن المشكلة في أنه حتى أصغر الألياف البصرية ستكون كبيرة جدا ومكلفة إلى حد كبير إذا أردنا لصقها على لوح الدارة، لذلك يبحث العلماء عن طرق بديلة لتوجيه الضوء ونقله في جميع أنحاء الدارة.

تستخدم إحدى الطرق ما يدعى

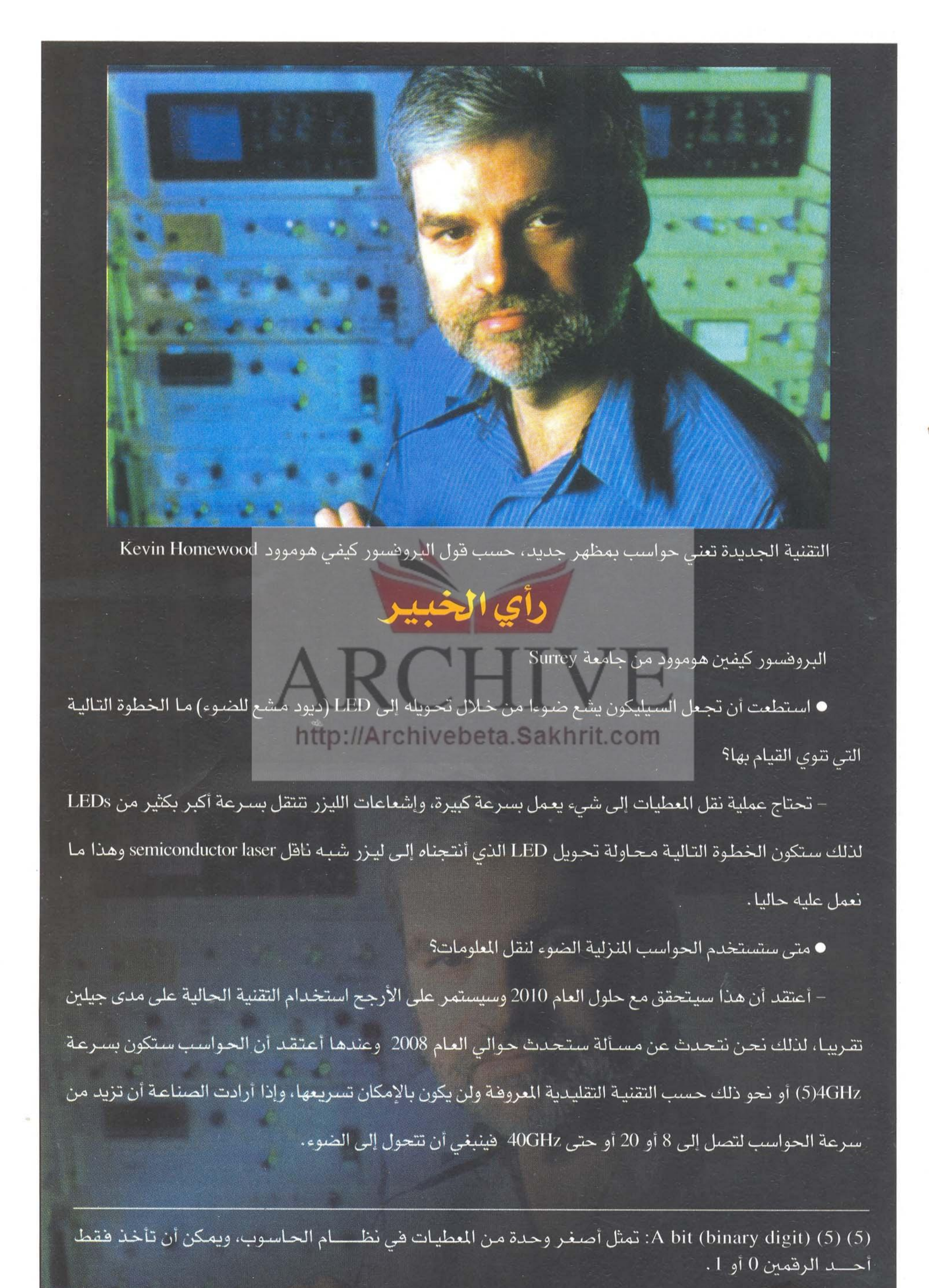


يبلغ عرض كل قضيب من القضبان في هذا البنيان الفوتوني المتشابك 1.2 ميكرون(4). يتم احتجاز ترددات ضوئية نوعية (في هذه الحالة أشعة تحت الحمراء بطول موجة 10 ميكرون) في العوارض المتشابكة ويمكن توجيهها في جميع الجهات دون فقد أية معلومات.

بالبلورات الفوتونية كموجهات للموجات، وتتألف البلورات الفوتونية من تنظيم متناسق من القضبان المتداخلة والتي تعمل عمل المرايا لعكس الضوء ومنعه من التسرب، ويُتعمّد تشكيل ثقوب في البنيان البلوري للسماح للضوء بالتنقل من جزء في البلورة إلى جزء آخر منها. من الممكن جعل الضوء يغير اتجاهه ضمن مسافات صغيرة جدا بزوايا يصل قياسها إلى 90 درجة في منطقة لا تتجاوز مساحتها مساحة طابع بريدي وذلك دون فقدان أكثر من 5% منه على مدى المسافة التي يقطعها.

عندما يقوم الباحثون بتغيير المسافات بين القضبان يمكنهم تغيير تردد الضوء

(4) «غيغا هرتز» وحدة للتردد أو الذبذبة تعادل 1 بليون هرتز.



التقنية الجديدة تعني حواسب بمظهر جديد، حسب قول البروفسور كيفي هوموود Kevin Homewood

رأي الخبير

البروفسور كيفين هومود من جامعة Surrey

● استطعت أن تجعل السيليكون يشع ضوءا من خلال تحويله إلى LED (ديود مشع للضوء) ما الخطوة التالية التي تنوي القيام بها؟

– تحتاج عملية نقل المعطيات إلى شيء يعمل بسرعة كبيرة، وإشعاعات الليزر تنتقل بسرعة أكبر بكثير من LEDs لذلك ستكون الخطوة التالية محاولة تحويل LED الذي أنتجناه إلى ليزر شبه ناقل semiconductor laser وهذا ما نعمل عليه حاليا.

● متى ستستخدم الحواسب المنزلية الضوء لنقل المعلومات؟

– أعتقد أن هذا سيتحقق مع حلول العام 2010 وسيستمر على الأرجح استخدام التقنية الحالية على مدى جيلين تقريبا، لذلك نحن نتحدث عن مسألة ستحدث حوالي العام 2008 وعندها أعتقد أن الحواسب ستكون بسرعة 4GHz(5) أو نحو ذلك حسب التقنية التقليدية المعروفة ولن يكون بالإمكان تسريعها، وإذا أرادت الصناعة أن تزيد من سرعة الحواسب لتصل إلى 8 أو 20 أو حتى 40GHz فينبغي أن تتحول إلى الضوء.

---

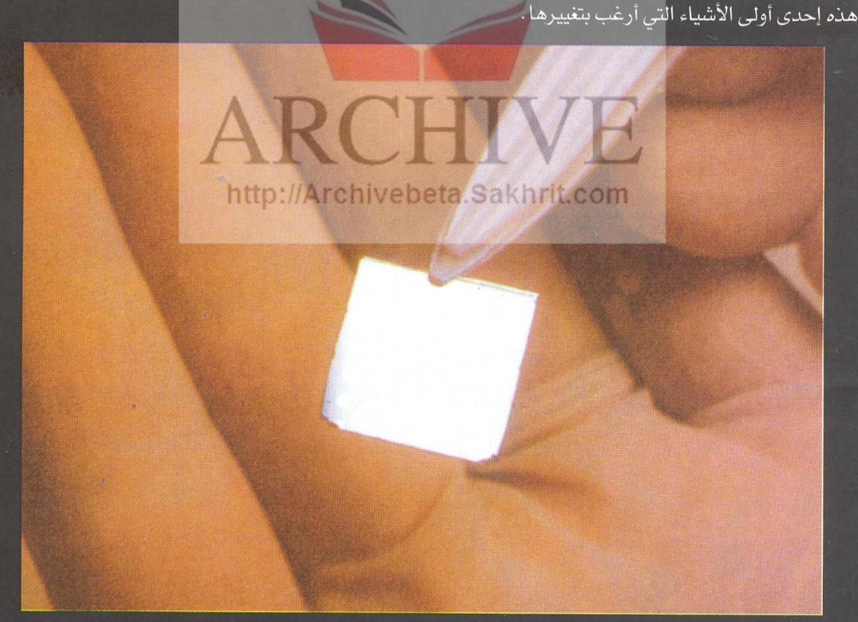
(5) A bit (binary digit) (5): تمثل أصغر وحدة من المعطيات في نظـــام الحاسوب، ويمكن أن تأخذ فقط أحـــد الرقمين 0 أو 1.

● لماذا تستخدمون السيليكون؟

- ترغب الصناعة في استخدام السيليكون والتقنية التقليدية، والأداة التي أنتجناها يمكن تصنيعها بوساطة معدات تقليدية جدا. وبما أن لدينا تقنية جديدة تماما ستضطر الصناعة بالطبع إلى ابتكار تصاميم جديدة تماما للحواسب، وهي تسعى جاهدة الآن للقيام بهذا أو تفكر في ذلك على الأقل.

● هل سيكون بإمكاننا في المستقبل التوصل إلى حواسب تعتمد بشكل كامل على التقنية البصرية؟

- أنا لا أعتقد أنه سيتم تحويل كل شيء إلى التقنيات البصرية، فقد تصبح الرقاقة المجهرية microchip مزدحمة بغير انتظام، وعوضا عن ذلك يعتبر الضوء طريقا لاختصار عدد كاف من الوحدات bits(6) في الدارة للمحافظة على السرعة العالية، والوضع شبيه في أن تكون واقفا في غرفة مزدحمة وتريد أن تتصل مع أحد الموجودين في الطرف الآخر فمن الأسهل أن تلوح له من أن تحاول السير إليه عبر الزحام. من ناحية ثانية يمكننا أن نصنع ساعة المعالج الدقيق جدا باستخدام التقنية البصرية، حيث تقوم الساعة بالمحافظة على توافق الأطوار وتدوّن جميع التوجهات - هذه إحدى أولى الأشياء التي أرغب بتغييرها.



تحويل هذا السيليكون الذي يعتمد على تقنية LED إلى ليزر سيزيد من سرعة الحواسب بشكل يفوق سرعتها الحالية

(6) «ميكرون» جزء من مليون من المتر.

رأينـــا

من بين جميع الطرق المطروحة لصناعة حواسب أكثر سرعة، يبدو من المؤكد أن تقنية استخدام البصريات هي المرجحة. كانت إمكانية إشعاع ضوء في السابق تقتصر على أنصاف موصلات محددة، إلا أنه بعد نجاح البروفسور كيفين هوموود في استخدام السيليكون أزيل أحد أكبر العوائق أمام الحوسبة البصرية.

يكلف بناء منشآت تصنيع السيليكون بلايين الدولارات، ولهذا السبب يرغب المصنعون العمالقة الاستمرار في استخدامها. بالإضافة إلى ذلك فإن استخدام البلورات الفوتونية يجعل بالإمكان الاستمرار في تصنيع الحواسب بقياسات الأجهزة الحالية الصغيرة إن لم تكن بقياسات أصغر.

إلا أن الضوء ليس المرشح الوحيد، فشركة IBM تعمل على الأنابيب الكربونية متناهية الدقة-carbon nano-tubes وهي صفائح ملفوفة من الكربون السداسي أدق بـ 50000 مرة من شعرة الإنسان ويمكن أن تحل محل الأسلاك والترانزستورات.

من ناحية ثانية فإن استخدام البصريات يمكّن أجهزة الحاسوب من التحكم بشكل متطور بالصور وبسهولة غير مسبوقة. ويتوقع بعض العلماء بأنه قد يكون بالإمكان في النهاية تصنيع الحواسب باستخدام مكونات بصرية بالكامل بحيث تعالج المعطيات المشكّلة من صور ثلاثية الأبعاد على الأقراص الصلبة Hard disks ويبدو المستقبل مشرقا حقا في هذا المجال.

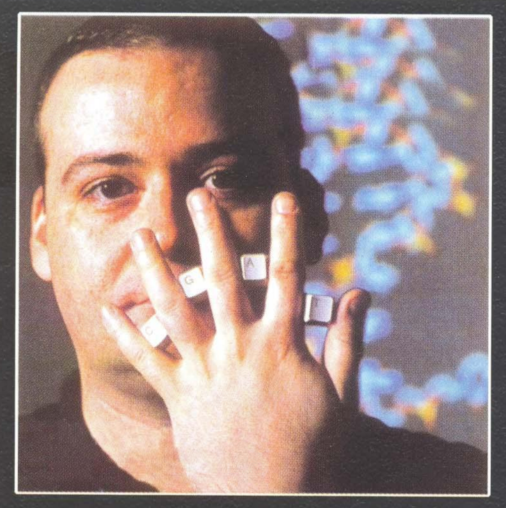
المحتجز في هذه المسافات، ويمكن أن يفيد هذا في القيام بعمليات عديدة في الوقت نفسه باستخدام ترددات مختلفة للضوء حاملة لمعطيات مختلفة.

السيليكون من نوع LEDs (Light Emitting Didoes) دايودات مشعة للضوء

استطاع بعض الباحثين إيجاد وسيلة لنقل الضوء، في هذه الأثناء يعمل آخرون على إيجاد وسيلة لكيفية توليده. فقد استطاع البروفسور كيفين هوموود Kevin Homewood من جامعة Surrey مؤخرا جعل السيليكون يشع ضوءا وذلك بوضع أشراك داخله حيث تقوم هذه الأشراك بتصيّد الإلكترونات وإجبارها على إطلاق فوتونات ضوئية، وكانت النتيجة سيليكون من نوع LED (ديود مشع للضوء) الذي يعمل بدرجة الحرارة العادية للغرفة. يمكن أن يكون هذا الاكتشاف مهما لصناعة الحواسب التي تعتمد بشكل كامل على السيليكون.

الحوسبة باستخدام الحمض النووي DNA

تحظى الحواسب الحالية بإعجاب كبير وتعتبر إحدى الإنجازات العظيمة للتصغير المنمنم miniaturization إلا أن الإنجازات القادمة يمكن أن تطغى عليها بشكل كامل وتضعها في الظل. وتبدو بعض الأبحاث الجارية في مجال الحواسب المستقبلية وكأنها من الخيال العلمي، فالحواسب الخارقة والتي تفوق قدرتها أكثر الأجهزة الحالية سرعة بأضعاف عديدة، يمكن احتواؤها ضمن قطرة صغيرة من السائل، ولن تكون



يعتقد الدكتور مارتين آموس Martyn Amos بأن حواسب الحمض النووي يمكن أن تؤدي إلى تطوير أنظمة لتوزيع الدواء في الجسم بشكل أكثر ذكاء وأفضل من الناحية الصحية.

رأي الخبير

الدكتور مارتن آموس ، من جامعة ليفربول Liverpool

• لقد قمت بتصميم حواسب حمض نووي لحل مسائل في أنبوب اختبار، ما هي آخر مشروعاتك؟

- يعتبر الحامض النووي جزيئا نشيطا وقويا إلا أنه لا يمكن التعامل معه بسهولة، فصب المحاليل بين أنابيب الاختبار يتسبب في قطع الجدائل لذلك قررنا اتباع طريقة جديدة. وعوضا عن الحساب في أنابيب اختبار نسعى إلى إعادة هندسة خلايا من بكتريا E.coli bacteria(7) للقيام بالأعمال الحسابية، ما زلنا في هذا الوقت بعيدين جدا عن إجراء التجارب على الإنسان.

• ما هي فائدة أن نحوّل الخلايا إلى حواسب؟

- يمكننا من خلال إعادة هندسة الخلايا الجرثومية التي لديها مقدرة على اتخاذ القرارات أن نجعلها تتفاعل مع بيئتها. يمكننا أن نشكّل دارة منطق بسيطة فإذا اكتشفت خلية ما على سبيل المثال إصابة بعدوى فإنها ستولد مضادا حيويا ضمن ظروف معينة. وعندها سيكون لديك نظام ذكي لتوزيع الدواء وهو أفضل بكثير من حقن مريض بكميات كبيرة من المضادات الحيوية والتي يمكن بكل سهولة أن يصبح منيعا ضدها.

• هل يمكن استخدام الحمض النووي في الحواسب المنزلية؟

- إن فكرة المنافسة بين حواسب الحمض النووي وأجهزة السيليكون أخفقت إلى حد ما، والآن بدأ الناس يدركون بأنه من الأفضل تطوير الأجهزة التي تعتمد على السيليكون عوضا عن استبدالها. على أية حال ظهر مؤخرا أنه يمكن هندسة الاتصالات بين الخلايا، حيث يمكنك تصور عدد كبير من الخلايا البسيطة تعمل كل منها حسب رمز خاص بها، لذلك إذا نجحت في التوصل إلى الاتصال بشكل صحيح فإنك تستطيع الحصول على معالجة موزعَة زهيدة الثمن.

• متى سنشهد أول تطبيقات عملية لحوسبة الحمض النووي؟

- يوجد حاليا أجهزة إحساس بيولوجية Biosensors بسيطة، إلا أنه يمكن هندسة حاسوب حامض نووي لجعل الخلايا تتوهج عند تواجد مادة معينة مثل تلوث أو نشاط إشعاعي. أعتقد أننا سنشهد تطبيقات من هذا النوع خلال فترة عشر سنوات.

---

(7) الكلة، كرة زجاجية ملونة صغيرة تستخدم في ألعاب مختلفة للأطفال.

رأينا

تعتبر الحوسبة باستخدام الحمض النووي أكثر التقنيات إثارة للإعجاب من بين تقنيات الحوسبة الجديدة، وكذلك الأمر بالنسبة للاستطاعة الخام التي يمكن استخلاصها منه، وهي استطاعة تطلبت في الطبيعة نفسها فترات زمنية طويلة لتكون على الوجه الأكمل. إن وجود صعوبات أساسية في التعامل مع الحمض النووي يعني أنه من غير المحتمل في أي وقت من الأوقات أن يتم صنع حاسوب تقليدي باستخدام الحمض النووي وحده، ربما أكثر ما نستطيع أن نأمل فيه هو تطوير معالج مساعد يقوم بحل المسائل الأكثر صعوبة ويعود بنتائج التقارير إلى المعالج المركزي، وحتى في هذه الحالة فإن الوظائف التي يقوم بها ستكون بسيطة على الأرجح. يمكن للخلايا التي أعيدت هندستها التي قدمها مارتين آموس أن تُحفَز عند وجود مادة معينة وغياب مادة أخرى وهذا ما يؤدي إلى تطوير أجهزة ذكية للكشف عن الملوثات أو موزع ذكي للأدوية في الجسم. على أية حال فإن الحلم في ابتكار حاسوب يعتمد على الحمض النووي وحده لم يتلاشَ، ففي شهر يونيو أعلنت شركة أولومبوس اليابانية Olympus of Japan أنها طورت نموذجاً أولياً يستطيع التعرف على المورثات المرتبطة مع المرض. ومع التزايد المستمر في الطلب على تحليل المورثات نتيجة لمشروع الجينوم البشري Human Genome Project فإن حواسب الحمض النووي يمكن أن تلقى ترحيبا لاستخدامها في موطنها في المختبرات الطبية في جميع أنحاء العالم.

مصنوعة من السيليكون وإنما من الحمض النووي أي من مادة الحياة نفسها.

الحمض النووي هو الجزيء الذي يشبه السلم الطويل والذي يختزن المعلومات الوراثية في جميع المخلوقات الحية، وتشبه الطريقة التي تستخدمها الكائنات الحية في التعامل مع المعطيات الطريقة التي تعالج بها الحواسب المعلومات، ويعود الفضل في اكتشاف هذا التشابه إلى عالم الرياضيات الأمريكي ليونارد أدلمان Leonard Adleman وذلك في العام 1994. وكانت فائدة مثل هذا الحاسوب الجزيئي واضحة، فبما أنه يمكن احتواء 10 تريليونات جديلة من الحمض النووي في قطرة من السائل بحجم الكرة الزجاجية «الكلّة»(8) وتستطيع كلها معالجة المعلومات في الوقت نفسه، فبإمكانها حل بعض أكثر المسائل العلمية تعقيدا.

البائع الجوال

كانت المهمة التي أثارت اهتمام إيدلمان بشكل خاص تُعرف بمسألة «البائع الجوال» وهي تتعلق بوظيفة بائع عليه زيارة عدد من المدن غير متصلة مع بعضها بشكل مباشر وذلك في أقصر وقت ممكن. تعد هذه مسألة صعبة بالنسبة لحاسوب تقليدي متسلسل لأن عليه أن يخوض عبر كل مسار على حدة ليعطي الإجابة المطلوبة، أما الحاسوب الذي يستخدم الحامض النووي فإنه يجرب جميع المسارات في الوقت نفسه. صمم إيدلمان تجربة لحل مسألة البائع

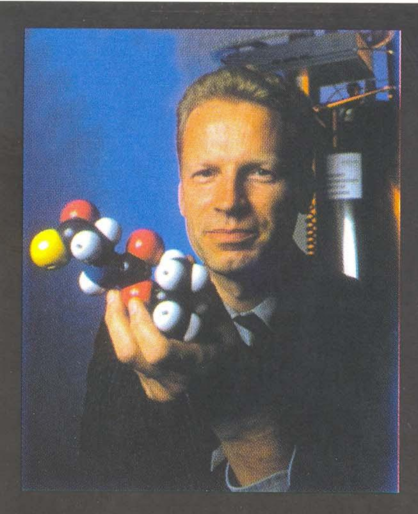
(8) Escherichia coli bacteria: وهي نوع من البكتريا التي تعيش في أمعاء الإنسان وفي أمعاء كثير من الحيوانات الأخرى، معظم أنواع هذه البكتيريا غير مؤذ ولكن قد يسبب بعضها المرض ضمن ظروف معينة.

رأي الخبير

البروفسور ستيفن غليزر من جامعة Technical University of Munich

● لقد قمتَ بابتكار حاسوب كمّ يحتوي على 5 qubits ما العمل الذي تقوم به الآن؟

- الهدف القادم لأبحاثنا هو إيجاد جزيئات تسمح لنا بتطوير حاسوب كمّ وظيفي يحتوي على أكثر من 10 qubits يستخدم تقنية الرنين المغناطيسي النووي (NMR) كما نعمل على تطوير طرق حسابية متتالية جديدة للحوسبة (برامج) وفق قوانين فيزياء الكمّ.



البروفسور ستيفن غليزر يحمل نموذجا من جزيء ter-butoxy-carbony (C2-N-D2-glycine) fluoride المصمم بحيث يكون له خمس ذرات دورانها الذري حول محورها مترابط خطيا.

● هل هناك أية مشكلات في استخدام تقنية NMR لتصنيع حواسب كمّ أكبر حجما؟

- كان يُعتقد في وقت من الأوقات أن هناك مشكلات جوهرية تتعلق بطريقة NMR يمكن أن تقيد تطوير حواسب الكمّ لتقتصر على عدد قليل من qubits إلا أننا بيّنا أنه يمكن من حيث المبدأ التغلب على هذه المشكلات. ربما يكون هذا باستخدام طرق الحساب التي تأخذ بعين الاعتبار المواصفات الخاصة بتقنية NMR.

● هل تناسب حواسب الكمّ مسائل محددة؟

- بعض المسائل التي تعتبر صعبة جدا بالنسبة للحواسب التقليدية يمكن أن تكون سهلة بالنسبة لحاسوب الكمّ الذي يحتوي على مئات من qubits وتتعلق كثير من هذه المسائل بعملية حل رموز الرسائل المشفرة.

لا نعرف في الوقت الحاضر جميع الإمكانات التطبيقية لهذه الحواسب، وفي الواقع يعتبر البحث عن طرق لعمليات حسابية متتالية algorithms تقوم حواسب الكمّ بحلها مجالا حيويا للأبحاث التي تجري حاليا.

● هل سيمكن في وقت من الأوقات استخدام حواسب الكمّ في الحواسب المنزلية؟

- لا تبدو الطرق الحسابية المتتالية المعروفة حاليا مفيدة بصورة خاصة للمنازل أو للاستخدام في الأعمال، إلا أن هذا قد يتغير بسرعة. يبدو من غير المحتمل أن نرى خلال الثلاثين عاما القادمة حاسوب الكمّ للاستخدام الشخصي، إلا أنه من الصعب التكهن متى يمكن أن يحدث تقدم تقني مفاجئ، فقد تحدث الأشياء بسرعة أكبر مما نتوقعه اليوم.

رأينا

من غير المحتمل في أي وقت من الأوقات أن ترى على مكتبك حاسوب الكمّ إلا إذا كان مخصصا كمعالج مساعد في حاسوبك الشخصي وذلك لمعالجة الحسابات الصعبة فعلا.

يبدو أن تحقيق مثل هذا السيناريو ما زال بعيدا، ففي الوقت الحاضر ما زالت إمكانات حواسب الكمّ غير واضحة تماما، حتى إن العلماء يبحثون عن مسائل حسابية لهذه الحواسب لتقوم بحلها، هذا فضلا عن البحث عن طرق جديدة لصنع الحواسب نفسها. إن أجهزة الكمّ الحالية غير عملية للاستخدام اليومي فهي تتطلب معدات NMR الباهظة التكاليف ودرجات حرارة قريبة من درجة الصفر المطلق وذلك لقياس دوران qubits الشديدة الحساسية.

إلا أن هناك أكثر من طريقة واحدة لاستخدام الخواص التي تكاد تكون سحرية للإلكترونات الدائرة حول محورها، واستطاع الباحثون مؤخرا حجز إلكترونات مفردة في ما يسمى بنقاط كمّ quantum dots على طبقة من السيليكون وهذا ما يسهّل على مصنعي الحواسب عملية تصنيع أجهزة الكمّ. ولا يحتاج قطاع صناعة الحواسب إلى كثير من الإقناع بهذه التقنية، فشركة أي بي إم IBM على سبيل المثال هي إحدى الشركات التي توظف باحثين لمتابعة هذه التقنية التي ينظر إليها الكثيرون على أنها الهدف الأسمى في مجال الحوسبة.

الجوال لسبع مدن، وشكلت جدائل الحمض النووي روابط عشوائية مع الجدائل الأخرى في أنبوب الاختبار مقلدة بذلك الطرق المحتملة التي سيسلكها البائع. ومن خلال تصفية واستبعاد جميع الجدائل التي لم تتوافق مع الحل المطلوب وتضخيم الجدائل الباقية، قدم حاسوب الحمض النووي جميع الحلول الممكنة للمسألة.

يفيد توسيع مجال مثل هذا النوع من المسائل ليشمل عددا أكبر من المدن في إظهار مزيد من الإمكانات المتوقعة للاستخدامات العملية، مثل إيجاد أكثر مسارات الطيران فعالية بالنسبة للطائرات العابرة للقارات، أو حل رموز التشفير البالغة التعقيد. إلا أنه يبقى هناك عائق أساسي أمام حل المسائل الأكبر، فمسألة البائع الجوال تصبح صعبة جدا في حال وجود 200 مدينة لأن حلها سيتطلب حمضا نوويا يفوق وزنه وزن الكرة الأرضية نفسها. لذلك يتوجه الباحثون نحو المسائل الأصغر حجما التي يمكن أن تستفيد من هذه التقنية مثل إعادة هندسة الخلايا في المخلوقات الحية. ولا تعتبر هذه الخلايا حواسب مماثلة للحواسب القادرة على حل المسائل الرياضية الصعبة وإنما حواسب بسيطة قادرة على العمل بناء على تعليمات أساسية بحتة.

حوسبة الكمّ

ترى الحواسب التقليدية كل شيء باللونين الأبيض والأسود، ويكون مفتاح التشغيل إما مفتوحا أو مغلقا وتتمثل وحدة المعلومة (bit) الناتجة إما بالرقم واحد أو الصفر وتنقَل مجموعة وحدات المعلومات (bits) من نقطة إلى أخرى



قفزة الكمّ: يحتوي هذا المغناطيس عالي الناقلية supercon-ducting magnet على محلول سائل من الجزيئات وتشكل دوراتها الذرية الخمسة الـ qubits الخمسة لحاسوب الكمّ. يتم التحكم بهذه الدورات باستخدام ذبذبات تردد لا سلكي.

داخل لوحة الدارة و خارجها وحولها.

إلا أنه في العالم الغريب والصغير جدا للإلكترونات التي تدور حول محورها لا يوجد شيء محدد المعالم بهذا الشكل، وهذه هي حقيقة فيزياء الكمّ حيث يبدو دوران الإلكترون بشكل ليس له مثيل في حياتنا اليومية. إذا حاولت قياس الدوران تجد أنه موجّه إما بنفس اتجاه حقل مغناطيسي أو باتجاه معاكس له، إلا أنه عندما يتم عزل الإلكترون يكون من الصعب معرفة الاتجاه الذي يدور فيه، ولا يستطيع العلماء سوى ترجيح بأنه يدور باتجاه أو بآخر، أي أن الإلكترون يدور في الاتجاهين في وقت واحد.

إذا استُخدم دوران الإلكترون كوحدة للمعلومات حسب فيزياء الكمّ quantum bit ويرمز له بـ «qubit» يحدث شيء غير عادي، حيث يمثل كل qubit الرقم واحد أو الصفر في الوقت نفسه، لذلك فإن حاسوب الكمّ والذي يحتوي على 2 qub-its يمكنه أن يخزن أربعة أرقام في الوقت نفسه. يخزن الحاسوب التقليدي الذي يحتوي على وحدتين (2 bits) رقما واحدا فقط، وعندما نضيف عددا من qubits تزداد الطاقة بشكل أسيّ، وباستخدام 333 qubits فقط يستطيع حاسوب الكمّ معالجة عدد أكبر من جميع الذرات في الكون.

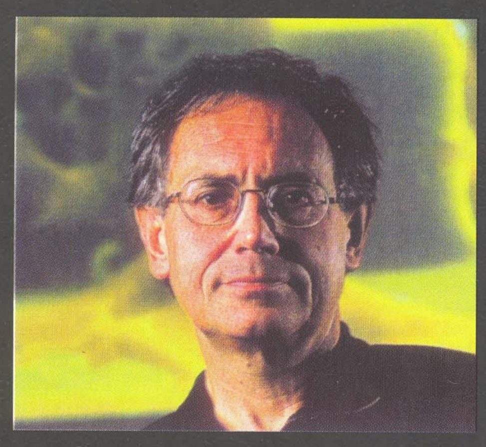
باحث في شركة IBM يحمل حاسوب كمّ مصنوعاً من بليون بليون جزيء.

مع استخدام هذه الكمية من استطاعة المعالجة يستطيع حاسوب الكمّ معالجة مسائل رياضية أكثر تعقيدا تفوق قدرة الأجهزة التقليدية التي تقوم بالعمليات الحسابية بالتتالي أي واحدة بعد الأخرى، وتستغرق هذه الأجهزة التقليدية سنوات عديدة لإيجاد حل للمسائل الصعبة بشكل خاص.

الحواسب التي تحل رموز الشيفرة

يمكن أن تكون حواسب الكمّ مفيدة بشكل خاص في الخوض في كمية كبيرة من المعطيات في وقت واحد، مثل البحث

رأي الخبير



البروفسور بيتر فرومهيرتز من معهد ماكس بلانك للكيمياء الحيوية

● استطعت في العام الماضي صنع مسار للإشارة بين رقاقة سيليكون وخلايا عصبية بشكل ناجح ، ما الذي تقوم بعمله حاليا؟

- نحن نحاول الآن إنتاج شبكات من الخلايا العصبية أكثر تعقيدا وإحداث سطح بينيّ بينها وبين الإلكترونيات الرقمية في الرقاقة، وهذه هي الخطوة الأولى فقط تجاه صنع أجهزة أكثر تعقيدا، نحن لا نطمح فقط إلى استخدام خليتين عصبيتين بل ثلاث أو أربع أو ربما عشر خلايا، كما أننا نسعى إلى استبدال الخلايا العصبية للحلزون «البزاق» بالخلايا العصبية للثدييات مثل الجرذان.

● ما هي المشكلات التي عليكم تجاوزها لتحقيق ذلك؟

- إن التحكم بخليتين عصبيتين فقط على رقاقة أمر صعب، فما بالك بعدد أكبر من الخلايا، عليك وقتها أن تراقبها بشكل دقيق للغاية. وجدنا مؤخرا بأنه يمكننا التحكم بنمو الخلايا العصبية للحلزون بوساطة تعديل هندسة بعض النماذج على الرقاقة، وسيكون هذا صعبا جدا بالنسبة للخلايا العصبية للجرذان لأنها صغيرة جدا والسطح البيني بينها وبين الرقاقة ضعيف للغاية. وللتغلب على هذه المشكلة بدأنا باستخدام شرائح كاملة من الدماغ وليس فقط خلايا عصبية معزولة، ونعتقد أن دراسة مجموعات كبيرة من الخلايا العصبية سيكون أفضل لأن الخلايا العصبية المفردة في أدمغتنا ليست بأهمية مجموعات الخلايا العصبية.

● هل سنستخدم في وقت من الأوقات حواسب منزلية تحتوي على خلايا دماغية؟

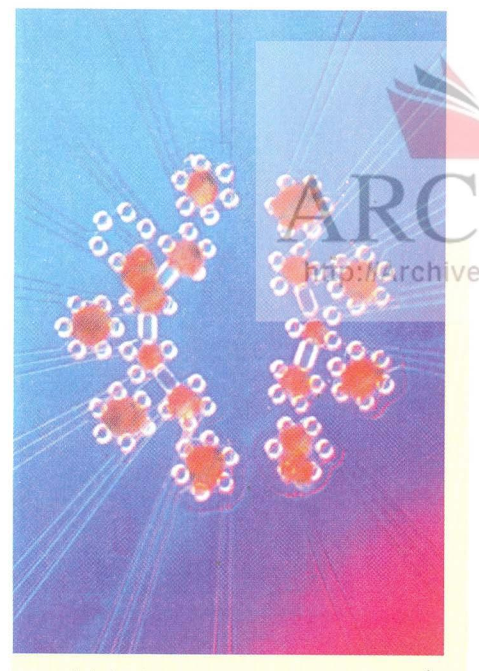
- يمكنك صنع جهاز يجمع خلايا عصبية حقيقية مع إلكترونيات إلا أن هذا في الواقع مجرد خيال علمي، لأنه لن يكون متوازنا أبدا بشكل كامل ولا يمكن استخدامه إلا في بعض التطبيقات المحددة الخاصة. إن أدمغتنا قادرة على القيام بأشياء معينة بشكل بارع مثل التحكم بالصور، لذلك فإن هذا الجهاز قد يقوم ببعض الأشياء بشكل أفضل من الحاسوب الرقمي مثل تمييز الوجه. أنا متأكد بأن هذا لن يحدث خلال خمس أو عشر سنوات، وبعد ذلك قد يعرف الناس ما يكفي عن الدماغ ويحاولوا تقليده في الحواسب، نحن بكل بساطة لا نعلم.

رأينا

إن مجرد فكرة أن يكون لديك حاسوب يحتوي على خلايا دماغية حيّة كفيل بأن يجعل معظم الناس يقلعون عن لعبة Solitaire(10) طوال حياتهم. إلا أنه من المستبعد إلى حد كبير أن يحل حاسوب الإلكترونيات العصبية محل جهازك Pentium 4 في المستقبل المنظور، ومن بين الأسباب الأساسية لذلك هو أن خلايا الدماغ تحتاج إلى عناية خاصة لتعمل بشكل مناسب. ربما يتم في جامعة نورثوسترن Northwestern الاحتفاظ بدماغ سمك الجلكي حياً في الإنسان الآلي ضمن وعاء من سائل ملحي معالج بالأكسجين، ولكن حتى في هذه الحالة فإن هذه الخلايا لا تبقى حية لأكثر من يوم واحد. تتطلب المحافظة على خلايا الدماغ حية إلى ما لا نهاية أنظمة داعمة لاستمرار الحياة والتي ستزيد بالتأكيد كلفة الحواسب لتصبح باهظة إلى حد يحول دون تصنيعها. إذا أمكن صنع مثل هذا الحاسوب فإنه سيستطيع القيام بوظائف تفوق في تعقيدها ما تقوم به الحواسب الحالية، مثل تمييز وجه إنسان ضمن حشد من الناس، ومسائل أخرى تتعلق بمشكلات التصوير imaging والتي يقوم بها الدماغ البشري بسهولة. ربما تكون هذه التقنية أكثر فائدة في الطب في مجال زراعة الأعضاء أو ربما في تحسين الرؤية أو في استبدال أجزاء مصابة من العمود الفقري من جراء حادث ما.

في القواعد الكبيرة للمعلومات أو في حل رموز بالغة التعقيد، فعلى سبيل المثال أوجد بيتر شور Peter Shore من مخابر شركة AT&T في العام 1994 طريقة حسابية متتالية algorithm لحل تشفير RSA Public Key (9) الذي يُستخدم من قبل الأفراد والحكومات على حد سواء لإرسال رسائل بشكل سري وآمن عبر الإنترنت. يعتمد حل الشيفرة على المقدرة على تحليل الأعداد الكبيرة إلى عوامل، وهذا شيء يستطيع حاسوب الكمّ خاصة القيام به بشكل جيد.

بدأ العمل بتصنيع حواسب الكمّ بشكل جديّ، على الرغم من أنهم يستخدمون



الأعصاب والسيلكيون: يمكن رؤية الروابط التي شكلتها هذه الخلية العصبية (اللون البرتقالي) وهي موضّعة بين دعائم متعددة الإيميديات polymide pillars على رقاقة سيليكون، مع الخلايا العصبية المجاورة.

(9) Public Key RSA: وهو نظام للتشفير والتوثيق يستخدم طريقة حسابية معينة، وهو أكثر نظام مستخدم في هذا المجال.

(10) Solitaire: «سوليتير» لعبة ورق (الشدّة) تلعب على الحاسوب ولها شعبية واسعة.



استُخدمت خلايا عصبية من حلزونات بركة ماء لتشكيل رقاقة عصبية تقوم فيها الخلايا العصبية وأجهزة مصنعة من السيليكون بالاتصال مع بعضهما بعضاً.

النويات الذرية عوضا عن الإلكترونات. يمكن قياس دوران النويات الذرية حول محورها في سائل تم اختياره بشكل خاص لهذا الغرض، واستُخدمت تقنية تسمى الرنين المغناطيسي النووي nu-clear magnetic resonance (NMR) وهي تقنية تُستخدم كثيرا في التصوير الطبي لقياس دوران الذرات حول محورها باستخدام موجات لا سلكية.

حتى هذا التاريخ تحتوي أكثر حواسب الكمّ تعقيدا على 7 qubits وتستطيع معالجة الأعداد برقم عشري واحد، ومن المتوقع أن تكون هناك حاجة إلى مئات qubits لتنفيذ برامج مفيدة.

الإلكترونيات العصبية

الأعصاب

تبدو تقنية دمج رقائق السيليكون مع النسيج المأخوذ من دماغ الكائنات الحية شيئا مستقبليا غامضا يشبه ما

نراه عادة في الخيال العلمي فقط، إلا أن الحياة الآن تحاكي الفن وهناك تزايد مستمر في توسيع حدود التجارب في أكثر مجالات الحوسبة غرابة.

نجح البروفسور بيتر فرومهرتز Peter Fromherz من معهد ماكس بلانك للكيمياء الحيوية Max Planck Institute for Biochemistry في العام الماضي في تشكيل دارة كهربائية من لوحة سيليكون وخلايا عصبية (neurons) مأخوذة من دماغ حلزون (بزّاق) فبعد أن تم تثبيت الخلايا في مكانها على لوحة الدارة بوساطة أوتاد أنبتت تلك الخلايا روابط مع بعضها بعضاً وشكلت فيما بعد مسارا للإشارات الكهربائية. وعندما أحدث الترانزستور الموجود تحت الخلية تغيرا في القوة المحركة الكهربائية voltage انتقلت ذبذبة كهربائية من خلية عصبية إلى خلية عصبية أخرى، ومن ثم نبّهت الخلية العصبية الثانية الترانزستور الموجود تحتها مشكلة دارة كاملة في مسار العملية. أثبتت التجربة أنه من الممكن تشكيل دارة بشكل اصطناعي تحتوي على نسيج عضوي بالإضافة إلى إلكترونيات - وهذا أحد المجالات العلمية ويسمى بمجال «الإلكترونيات العصبية».

طاقة الدماغ

ما زال البحث في هذا المجال في مراحله البدائية، وكل ما استطاع العلماء إنجازه حتى الآن هو تطوير دارات صغيرة، وبالطبع لم يستطع أحد حتى الآن استخدام خلايا دماغ حقيقة مع السيليكون للقيام بوظيفة حوسبة مهما كانت بسيطة مثل جمع عددين مع بعضهما، إلا أنه إذا أمكن استخدام طاقة الخلايا العصبية بهذه الطريقة فسيكون لها إمكانات لتطبيقات فعالة. تعتمد الحواسب الحالية على القدرة التي لا حياة فيها (الجماد) لإيجاد حلول للمسائل الحسابية، ومهما بدت ذكية فإنها تفتقد إلى الذكاء الحقيقي.

وفي الواقع ليس الهدف الأساسي من هذه الأبحاث الذي تبدو غريبة صنع حاسوب أفضل، فالدماغ البشري عضو بالغ التعقيد وما زال العلماء بعيدين كل البعد عن فهم كيف تتشكل ذاكرتنا بالتحديد، ويحاول بعض الباحثين معرفة كيفية عمل الدماغ من خلال تقليد نموذج عملياته في برامج الحاسوب، إلا أن البروفسور فرومهيرتز هو أحد الخبراء الذين يعتقدون أن هذا المدخل محكوم عليه بالفشل، حيث يقول: «إنك تستطيع فقط أن تقلد شيئا تفهمه، ونحن لا نعلم بالتحديد ما يدور في الدماغ».

الإنسان الآلي الموجَّه بوساطة خلايا دماغ السمك

إلى جانب دراسة كيفية عمل الخلايا العصبية يمكن استخدام الإلكترونيات العصبية في تصميم الأعضاء الصناعية المزروعة التي يتم التحكم بها مباشرة من الدماغ، وقد قام العلماء في جامعة Chicago's Northwestern University بتصميم إنسان آلي يتم التحكم به بوساطة دماغ سمك الجَلَكي Lamprey fish. عندما تكشتف أجهزة الإحساس المركبة على الإنسان الآلي وجود ضوء فإنها ترسل إشارة إلى الخلايا العصبية للجلكي، وتستجيب الخلايا لهذه المعلومات وتعطي التعليمات للإنسان الآلي للتحرك باتجاه مصدر الضوء، وهو رد فعل يساعد عادة سمكة الجلكي على السباحة نحو الأعلى في الاتجاه الصحيح في البحر. يأمل الباحثون بأن يصبح بالإمكان في يوم ما استخدام تقنيات مشابهة لتصميم أطراف بشرية صناعية أفضل.





نحو رؤية جديدة للمساعدات الاقتصادية للدول النامية

بقلم: ستيف راديليت

ترجمة: محمد علي ثابت

العنوان الأصلي للمقال: **Will the Millenium Challenge Account Be Different?**
ونشر في مجلة **The Washington Quarterly** عدد ربيع **2003**.

في مارس 2002 اقترح الرئيس الأمريكي جورج بوش تدشين مشروع جديد يعرف باسم مشروع تحدي الألفية Millenium Challenge Account (MCA)، ليبدأ العمل به في السنة المالية 2004، ويكون هدفه هو تقديم مساعدات اقتصادية ضخمة للدول النامية «التي تحكمها حكومات عادلة، والتي تستثمر في مستقبل مواطنيها، والتي تشجع الحريات الاقتصادية» (1).

* كاتب المقال Steve Radelet عضو رفيع المستوى في مركز دراسات التنمية بواشنطن العاصمة، وكان نائبا مساعدا لوزير الخزانة الأمريكية لشؤون إفريقيا والشرق الأوسط وآسيا في الفترة من يناير 2000 إلى يونيو 2002.

(1) نقلا عن الموقع:
www.whitehouse.gov/news/releases/2002/03/20020314-7.html

وهذا المشروع يبشر بإمكانية إحداث أكبر تغيير جذري في تاريخ سياسة المساعدات الخارجية الأمريكية منذ أطلق الرئيس جون كيندي مشروع كتائب السلام Corps Peace(*) وأسس الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID في أوائل الستينيات. وتكمن أهمية هذا المشروع المقترح، جزئيا، في ضخامة ميزانيته: فوفقا لهذا المشروع ستتم زيادة الميزانية السنوية للمساعدات الخارجية الأمريكية بمقدار 5 بلايين دولار، بما يمثل 50% إضافية من القيمة الحالية لتلك الميزانية البالغة 10 بلايين دولار في العام المالي 2002، ما يعني أن حجم المساعدات الخارجية الأمريكية التي تهدف فقط إلى تحقيق الأهداف التنموية حول العالم سوف يتضاعف.

على أن الأهم من ضخامة حجم ميزانية المشروع هو أنه يعد فرصة طيبة لإحداث تحسن جذري في نمط توزيع المساعدات الخارجية الأمريكية. فهذا المشروع، في صورته المقترحة الحالية، سيختلف عن برامج المساعدات الأخرى القائمة حاليا من أربعة جوانب أساسية(2). وأول هذه الجوانب هو أن هذا المشروع ستكون له أهداف أضيق نطاقا وأكثر تحديدا عن ذي قبل، وهي أهداف ستركز فقط على دعم النمو الاقتصادي والتنمية وليس على تحقيق أي من الأهداف الأخرى الأوسع نطاقا المتعلقة بالسياسة الخارجية الأمريكية. والجانب الثاني هو أن المشروع سيمنح المساعدات فقط لمجموعة مختارة من الدول النامية التي تطبق سياسات تنموية تتسم بالكفاءة والإحكام، الأمر الذي سيضمن توجيه المساعدات فقط إلى الدول الأكثر فاعلية. والجانب الثالث يتمثل في رغبة الإدارة الأمريكية في أن تكون التكاليف البيروقراطية والإدارية لهذا المشروع أقل بوضوح من تكاليف مشروعات المساعدات الأخرى القائمة، ولتحقيق تلك الرغبة اقترحت الإدارة إنشاء منظمة حكومية جديدة تعرف باسم منظمة تحدي الألفية Millenium Challenge Corporation (MCC) لتكون مكلفة الإشراف التام على المشروع. أما جانب الاختلاف الرابع والأخير فهو أن الإدارة تعتزم منح الدول التي ستتلقى مساعدات المشروع حرية أكبر في إبداء الرأي في الأمور المتعلقة بتصميم وتنفيذ وتقييم برامج المساعدات الموجهة إليها بغية رفع كفاءة وفاعلية تلك البرامج بوجه عام.

إن مشروع تحدي الألفية يمثل برنامج

(*) مشروع كتائب السلام Peace Corps: مشروع دشنه الرئيس الأمريكي جون كيندي لنشر السلام العالمي والإخاء بين الشعوب، وآليته الرئيسية هي تدريب متطوعين مدنيين على القيام بأعمال خيرية وتقديم مساعدات تعليمية وطبية وزراعية للدول النامية - المترجم.

(2) للمزيد من الأوراق البحثية والتحليلية حول مشروع تحدي الألفية، يمكنك زيارة موقع مركز التنمية الدولية على العنوان التالي:
www.cgdev.org/nv/features_MCA.html

مساعدات جديدا واعدا، ولكن الغموض مازال يحيط بالكثير من تفاصيل الطريقة التي سيدار بها المشروع فعليا. فحتى يناير 2003 لم تكن الإدارة الأمريكية قد كشفت النقاب سوى عن خططها المتعلقة بمعايير اختيار الدول المؤهلة للانتفاع بمزايا المشروع، وعن اعتزامها تخويل منظمة تحدي الألفية سلطة الإشراف على المشروع (3). فحتى ذلك الحين (يناير 2003) لم تكن الإدارة قد أوضحت مثلا خططها بخصوص العمليات الفعلية على الأرض في الدول التي سيشملها المشروع، ولم تكن قد كشفت النقاب عن السبل المقترحة للتنسيق بين برامج مشروع تحدي الألفية وبين برامج وكالات المساعدات الأمريكية الأخرى، وتحديدا برامج الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. وعلى أي حال فإنه من المنتظر أن يتم حسم مثل هذه الأمور المتعلقة بالمشروع عند عرضها على الكونغرس خلال النصف الأول من العام 2003، تمهيدا لبدء أنشطة المشروع فعليا في أكتوبر من العام نفسه.

وعلاوة على ما تقدم، وحتى بعد أن يتم حسم مثل هذه التفاصيل، فإن مشروع تحدي الألفية لن يعدو كونه مجرد جزء واحد من برنامج شامل للمساعدات الخارجية الأمريكية. فهذا المشروع تم تصميمه ليخدم عددا محدودا نسبيا من الدول النامية، والإدارة الأمريكية حتى تاريخنا هذا لم تعمل على صياغة استراتيجيات واضحة للمساعدات التي ستوجه للدول التي لن تنتفع بهذا المشروع الجديد، أو للدول المارقة أو المقلقة التي قد تمثل أراضيها تربة خصبة للإرهاب والجرائم العابرة للحدود، كما أن الإدارة لم تضع بعد خطة للتصدي للمشاكل الحرجة ذات البعد الدولي أو العابر للقوميات، وعلى رأسها مشكلة وباء الإيدز (أو مرض نقص المناعة المكتسبة).

النظر برؤية ثاقبة

تعاني برامج المساعدات الخارجية الأمريكية الحالية من سعيها لتحقيق عدة أهداف متباينة في وقت واحد. فلهذه البرامج أهداف وغايات عديدة ومتنوعة للغاية، الأمر الذي يجعلها تفتقد التماسك والتجانس في كل جوانبها، بداية من التخطيط الاستراتيجي واسع النطاق وحتى التطبيق العملي للبرامج على الأرض. فقانون المساعدات الخارجية الصادر عام 1961، والمعدل لاحقا، ينص على أن لسياسة المساعدات الخارجية الأمريكية 33 غاية مختلفة، وعلى أنها يجب أن تعمل في ظل 75 مجالا نوعيا من الأولويات. وقد قامت الباحثة كارول لانكستر Carol Lancaster بتصنيف هذه الغايات الثلاث والثلاثين إلى ستة

(3) للتعرف على نشرة الحقائق الأساسية الخاصة بالإدارة الأمريكية حول المشروع، يمكنك زيارة الموقع التالي:
www.cgdev.org/nv/MCA_FactSheetNov.doc

أهداف عامة محورية على النحو التالي(4):

- **تحقيق وتثبيت الأمن:** فلسنوات عدة كان يتم توجيه مساعدات أمريكية ضخمة لغرض احتواء الشيوعية ودعم الدول المؤيدة لأمريكا في الحرب الباردة. ومنذ أواخر السبعينيات، وتحديدا منذ توقيع معاهدة كامب ديفيد للسلام بين مصر وإسرائيل، باتت حصة متزايدة من المساعدات الأمريكية تركز على جهود صنع السلام. وقد ظلت مصر وإسرائيل لفترة طويلة الدولتين اللتين تتلقيان أكبر قدر من المساعدات الخارجية الأمريكية، وتحديدا فإن كلتا الدولتين حصلتا معا على نحو 20% من إجمالي المساعدات الأمريكية منذ أواخر السبعينيات. ومنذ الحادي عشر من سبتمبر للعام 2001 بدأت أمريكا تستخدم قدرا من مساعداتها الخارجية لدعم الحرب على الإرهاب، وبخاصة في صورة مساعدات لأفغانستان وباكستان.

- **تشجيع التنمية:** فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ظل أحد أبرز أهداف سياسة المساعدات الخارجية الأمريكية هو مساعدة الدول الفقيرة على تمويل القيام بالاستثمارات الرامية إلى تحسين البنى الأساسية والصحة والتعليم وغيرها من المجالات التي يعد الاستثمار فيها كفيلا بزيادة الدخول الاقتصادية للمواطنين وتخفيف حدة الفقر ورفع مستويات المعيشة. ويمكننا القول إن مشروع تحدي الألفية تم تصميمه خصيصا ليتماشى مع مساعي تحقيق هذه الهدف العام بالذات.

- **توفير الإغاثة الإنسانية:** فالولايات المتحدة ظلت لفترة طويلة الدولة الرائدة في مجال توفير خدمات الإغاثة، سواء في حالات الكوارث الطبيعية أو في أثناء الحروب الأهلية.

- **دعم التحولات السياسية والاقتصادية:** فمنذ انهيار الاتحاد السوفييتي وأمريكا توجه مساعدات ضخمة لدعم عمليات التحول إلى الديموقراطية ونظم السوق الحرة (الرأسمالية) في اقتصادات دول الكتلة الاشتراكية السابقة.. على أنه من الملاحظ أن حجم المساعدات المخصصة لهذا الغرض بدأ في التضاؤل في السنوات الأخيرة.

- **بناء النظم الديموقراطية:** فمنذ أواخر الثمانينيات والولايات المتحدة تساعد الدول الأخرى على بناء وتقوية نظم الحكم الديموقراطية، الأمر الذي يعد من ناحية هدفا في حد ذاته، ومن ناحية أخرى يعد سبيلا إلى تحقيق غايات أخرى

(4) انظر: Carol Lancaster, "Transforming Foreign Aid: United States Assistance in the 21st Century", Washington D.C., Institute for International Economics, 2000

مهمة، مثل حماية حقوق الإنسان وإنهاء الحروب والصراعات الأهلية.

- التصدي للمشكلات العابرة للقوميات: فبعض برامج المساعدات الأمريكية تركز على المشكلات التي قد تنشأ في دولة ما ثم تطال الناس في دولة أخرى، بما في ذلك مشكلات النمو السكاني الهائل، وانعدام الأمن الغذائي، والمشكلات الصحية والأوبئة مثل الإيدز والملاريا. ومن المؤكد أن محاربة هذه المشاكل تتطلب تبني مذاهب مختلفة عن تلك الواجب اتباعها للتعاطي مع المشكلات التي لا تتجاوز آثارها حدود الدولة الواحدة.

إن كل ما عرضنا له أعلاه هو من الأهداف المشروعة لسياسة المساعدات الخارجية الأمريكية وللسياسة الخارجية الأمريكية بوجه عام. ولكن بعض المشاكل تنشأ هنا عندما يسعى برنامج مساعدات واحد إلى تحقيق مجموعة متباينة من هذه الأهداف الستة في وقت واحد. فالولايات المتحدة مثلا أمدت باكستان في أواخر العام 2001 بمنحة قدرها 600 مليون دولار، وذلك في أعقاب بدء الضربة الأمريكية التي أطاحت بحركة طالبان في أفغانستان، وكان الهدف من هذه المنحة هو كسب تأييد الحكومة الباكستانية للحرب الأمريكية على الإرهاب، في إطار غاية أخرى موسعة هي تدعيم الأمن الإقليمي والعالمي. وقد استخدمت الحكومة الباكستانية قدرا كبيرا من هذه المنحة، ضمن أنشطة أخرى متنوعة، لدعم النمو الاقتصادي ومكافحة الفقر. ولكنّ هذين الهدفين الأخيرين مرشحان بقوة للتعارض معا في حالة عدم قدرة البرامج الاجتماعية التي مولتها المنحة على تحقيق النتائج المرجوة منها، الأمر الذي يعني عادة في الظروف غير الاستثنائية قطع تلك المساعدات وتوجيهها إلى مكان أو هدف آخر. ولكن نظرا لرغبة الولايات المتحدة في الحفاظ على دعم الحكومة الباكستانية الكامل لها في حربها ضد الإرهاب، فإنها قد تجد نفسها مضطرة للقبول بحل وسط لا يضمن لها التحقيق الكامل لرغبتها في استخدام مساعداتها الخارجية على نحو فعال كفيل بمحاربة الفقر لأقصى درجة ممكنة. وثمة أوجه تعارض أخرى مماثلة يمكن أن تنشأ بين بقية الأهداف العامة الستة المشار إليها أعلاه، مثل التعارض المحتمل بين هدفي توفير الإغاثة الإنسانية وبناء النظم الديموقراطية. فالولايات المتحدة تقدم بانتظام مساعدات إنسانية إلى بعض الحكومات غير الديموقراطية عندما تواجه بلادها كوارث طبيعية، الأمر الذي قد تترتب عليه نتيجة عفوية أو غير مقصودة هي مساعدة تلك الحكومات القمعية على تدعيم شرعيتها وقواعد نفوذها.

إن مشروع تحدي الألفية، بتركيزه الأكثر وضوحا على النمو الاقتصادي ومحاربة الفقر، مرشح للإسهام في تدنية الآثار السلبية لأوجه التعارض المحتملة هذه بين الأهداف المختلفة لسياسة المساعدات الخارجية الأمريكية، وإن كان من غير المحتمل نجاحه في القضاء عليها تماما. وعلى أي حال، فإن هذا المشروع سيكون

أكثر قدرة على تحديد واستهداف غايات محددة، وعلى ضمان تخصيص الموارد بصورة أفضل لتحقيق تلك الغايات بفاعلية، وعلى توفير آلية أقوى وأوضح لتقييم نتائج الأداء الفعلي للمشروع، وكل هذا مفاده أن برامج المساعدات الخارجية الأمريكية ستحقق نتائج أفضل سواء بالنسبة للدول المتلقية للمساعدات، أو بالنسبة للمواطنين الأمريكيين أنفسهم.

اختيار الدول الملائمة

لعل الفكرة المحورية في مشروع تحدي الألفية هي أن المساعدات قد يتم استخدامها بشكل أكثر فاعلية في حالة تركزها على الدول ذات الحكومات الملتزمة اتباع سياسات جيدة وإنشاء مؤسسات قادرة على دعم النمو الاقتصادي ومحاربة الفقر. ولكننا لسوء الحظ نجد أن كثيرين للغاية من قادة الدول النامية منشغلون بزيادة نفوذهم وثرواتهم عن محاربة الفقر الذي يعاني منه مواطنو دولهم، وهذا ما يجعل برامج المساعدات الموجهة إلى مثل تلك الدول لا تصيب قدرا كبيرا من النجاح. وعلى أحد مستويات التحليل سنجد أن هذا الفارق بين أداء هاتين المجموعتين من الدول هو فارق بديهي ومنطقي: فالمساعدات يجب أن تذهب بدرجة أكبر إلى الدول التي تلتزم حكوماتها بناء مدارس وعيادات طبية أفضل، وبتوفير فرص عمل أحسن، وباستئصال جذور الفساد. ولذا فإننا نجد أن المساعدات الخارجية حققت نتائج رائعة في دولتين مثل كوريا الجنوبية وبتسوانا لأن حكومتي هاتين الدولتين كانتا تضعان النمو الاقتصادي والتنمية الشاملة على رأس أولوياتهما. فالمساعدات الخارجية كانت عنصرا مكملا لجهود هاتين الحكومتين، على سبيل المثال، في بناء المدارس وتدريب المدرسين، في حين كانت الحكومتان عاكفتين بدورهما على وضع مناهج وسياسات تعليمية جيدة أسهمت بوضوح في توفير فرص عمل ملائمة للخريجين.

ولكن المساعدات الخارجية لم تحقق أي نتائج تذكر في دول مثل زائير (جمهورية الكونغو الديموقراطية حاليا) في عصر موبوتو سيسي سيكو، وفي نيجيريا في فترات حكم القادة العسكريين كافة الذين تعاقبوا عليها. فمثل هذه الحكومات كانت تحتفظ بأرصدة المساعدات لنفسها ولم تكن تفعل كل ما في وسعها لمساعدة شعوبها على الخروج من تحت وطأة الفقر. وبسبب الدواعي السياسية للحرب الباردة، كانت أمريكا وغيرها من الدول المانحة مستعدة للتغاضي عن هذه التجاوزات ومستعدة لمنح المساعدات لهذه الدول لدعم حكامها وكسب تأييدهم في مواجهة الخطر الشيوعي، وذلك رغم علم الدول المانحة المسبق بأن المساعدات كانت تحقق نتائج هزيلة للغاية في تلك الدول الفاسدة. إن غالبية البحوث الإحصائية الحديثة تدعم الفكرة القائلة إن المساعدات الخارجية تكون ذات أثر إيجابي بوجه عام على معدلات النمو الاقتصادي في

(*) المحكومية Governance: المقصود بها هو الحكم المدني والتعايش السلمي البناء بين الحكومة من جهة والمعارضة والقطاع الخاص وسائر المنظمات المدنية وغير الحكومية من جهة أخرى - المترجم.

الدول التي تطبق سياسات جيدة في مجالي الاقتصاد الكلي والتبادل التجاري، وذات الاستثمارات الأضخم في مجالي الصحة والتعليم، وذات أنماط المحكومية -Govern ance(*) الأفضل، وذات مستويات الفساد المتدنية، في حين أن نفس المساعدات تكون ذات أثر محدود أو حتى منعدم على النمو الاقتصادي في الدول ذات السياسات الاقتصادية الضعيفة ومعدلات الفساد العالية(5).

ولكن إذا كان من السهل علينا أن نلاحظ الفرق بين كوريا وزائير، فإن المشكلة الحقيقية تكمن في أن معظم الدول النامية تقع في مكان ما بين هذين الطرفين النقيضين، بمعنى أن أوضاعها تنطوي على خليط من السياسات الجيدة والسياسات الرديئة، وأن التزامها (أو عدم التزامها) تحقيق التنمية الشاملة لا يكون خالصا أو نقيا تماما في كل الأحوال. والتحدي الذي يواجه الدول المانحة هنا هو كيفية التمييز بين الدول التي من المرجح أن تحسن استخدام المساعدات التي ستتلقاها وتلك التي لن تحسن استخدامها. ولعل هذا التحدي يمثل لب دعوة الرئيس بوش إلى أن يكون هدف مشروع تحدي الألفية هو منح المساعدات إلى الدول «التي تحكمها حكومات عادلة، والتي تستثمر في مستقبل مواطنيها، والتي تشجع الحريات الاقتصادية». فكيف إذن يمكن للولايات المتحدة أن تقيس بدقة مدى توافر كل من هذه المقومات الثلاثة الموسعة (الحكم بعدالة، والاستثمار في مستقبل الشعوب، وتشجيع الحريات الاقتصادية) في الاستراتيجية التنموية لكل دولة نامية على حدة؟

لقد اقترحت الإدارة الأمريكية استخدام مقياس ذي 16 مؤشرا لإنجاز هذه المهمة (انظر الجدول رقم 1)، مع تقسيم هذه المؤشرات إلى ثلاثة أقسام موسعة تمثل الأهداف الثلاثة للرئيس الأمريكي من مشروع تحدي الألفية. فالدولة المؤهلة للانتفاع بمزايا المشروع، أو بالأحرى لتلقي مساعداته، يجب أن يتجاوز تقييمها في نصف مؤشرات كل قسم من هذه الأقسام الموسعة الثلاثة - يجب أن يتجاوز تقييمات 50% على الأقل من إجمالي الدول النامية التي تحتاج اقتصاداتها إلى المساعدات الخارجية بوجه عام (بغض النظر عما إذا كانت هذه الدول الأخرى ستحصل على تقييمات إجمالية تؤهلها للانتفاع بمزايا المشروع أم لا). وبمعنى آخر، فإن الدولة التي تستحق تلقي مساعدات المشروع يجب أن يتجاوز تقييمها المتوسط الترتيبي لثلاثة

---

(5) انظر: Craig Burnside and David Dollar, "Aid, Policies, and Growth", World Bank Working Paper 1777, June 1977;

وانظر أيضا:

World Bank, "The Role and Effectiveness of Development Assistance: Lessons from the World Bank Experience (2001)"

مؤشرات على الأقل من المؤشرات الستة في قسم «الحكم بعدالة»، ولمؤشرين اثنين من المؤشرات الأربعة في قسم «الاستثمار في مستقبل الشعوب»، ولثلاثة مؤشرات من المؤشرات الستة في قسم «تشجيع الحريات الاقتصادية». وعلاوة على ذلك، فإنه ليس بوسع أي دولة أن تنضم إلى المشروع إلا إذا حصلت في مؤشر محاربة الفساد على تقييم يتجاوز المتوسط الترتيبي لتقييمات إجمالي الدول النامية المحتاجة إلى المساعدات بوجه عام (بمعنى أنه سيتم استبعاد أي دولة من المشروع إذا لم يكن تقييمها في مؤشر محاربة الفساد أفضل من تقييمات 50% على الأقل من إجمالي الدول النامية المرشحة بوجه عام لتلقي المساعدات التي يقدمها المشروع)، وذلك بغض النظر عن مدى ارتفاع أو تدني تقييماتها في المؤشرات الخمسة عشر الأخرى كافة. ويمكننا القول إن منهجية الاختيار هذه تتسم بالكفاءة والإحكام من حيث المبدأ، وإن كانت تعاني من بعض أوجه القصور التي سنعرض لها أدناه.

لقد استخدم كاتب هذه السطور البيانات المتاحة للعامة وطبق عمليا منهجية الاختيار هذه ذات الستة عشر مؤشرا التي اقترحت الإدارة الأمريكية استخدامها، وقد توصل الباحث في ضوء ذلك إلى قائمة مفصلة بالدول المرشحة للالتحاق بمشروع تحدي الألفية في أعوامه الثلاثة الأولى (6). ومن المهم هنا أن نلاحظ أننا بصدد قائمة جادة ومفصلة، ولكنها ليست وثيقة رسمية من وثائق الدبلوماسية الأمريكية؛ ومن المهم أيضا أن نلاحظ أن البيانات المتاحة لدينا الآن حول مؤشرات المشروع الستة عشر سيتم تنقيحها وتحديثها لاحقا قبل أن ينطلق المشروع فعليا في أواخر العام 2003، ولذا فإنه من المحتمل حدوث تغير ما في مجموعة الدول التي تحتل قمة القائمة التي توصل إليها كاتب السطور بجهده الشخصي. وعلينا أن نلاحظ أيضا أن إدارة الرئيس بوش شددت على أن القائمة التي سيتم إعدادها في ضوء هذه المؤشرات الستة عشر لن تكون نهائية. فمجلس إدارة منظمة تحدي الألفية، الذي سنعرض له بمزيد من التفصيل لاحقا، سيحق له تعديل القائمة النهائية للمشروع بإضافة أو استبعاد أي دول يراها قبل عرض القائمة على الرئيس الأمريكي للحصول على موافقته عليها. ومثل هذه التعديلات على قائمة دول المشروع قد تصبح ضرورية بسبب أوجه القصور والتقادم والفجوات في البيانات المتاحة؛ كما أنه سيكون من حق المجلس أن يأخذ في اعتباره «أي معلومات مهمة أخرى، بما في ذلك المعلومات عن قادة

(6) انظر: ستيف راديليت، «معايير التأهل والانضمام لمشروع تحدي الألفية»، نقلا عن الموقع:

www.cgdev.org/nv/Choosing_MCA_Countries.pdf

(7) للتعرف على نشرة الحقائق الأساسية الخاصة بالإدارة الأمريكية حول المشروع، يمكنك زيارة الموقع التالي:

www.cgdev.org/nv/MCA_FactSheetNov.doc

الدول المرشحة للانضمام للمشروع» (7)، حتى يتمكن المجلس من صياغة توصياته النهائية على أتم وجه ممكن. ولكن على رغم كل هذه التعديلات المحتمل إجراؤها، فإن هذه القائمة التي توصلنا إليها في ضوء المعلومات المتاحة لدينا اليوم هي قائمة بوسعها أن تلقي الضوء على الشكل النهائي الذي قد يأخذه المشروع فعليا.

لقد اقترحت الإدارة بالنسبة للعام الأول من عمر المشروع أن تكون مجموعة الدول المرشحة للانضمام إليه هي تلك الدول التي يقل متوسط دخل الفرد فيها عن 1435 دولارا سنويا، والتي يحق لها الاقتراض التناقصي أو التعاقدي من البنك الدولي، وهذه المجموعة من الدول تضم 74 دولة مختلفة. والجدول رقم 2 يوضح أن 13 دولة فقط من كل هذه الدول قد تكون مؤهلة للالتحاق بالمشروع في عامه الأول، وذلك بناء على المعلومات المتوافرة في أواخر العام 2002.

وبالنسبة للعام الثاني من عمر المشروع، وفضلا عن اعتزامها زيادة ميزانية البرنامج، فإن الإدارة تقترح إجراء توسعة طفيفة على قائمة الدول التي تستحق الالتحاق بالمشروع، بحيث تنضم إليه كل الدول التي يقل متوسط دخل الفرد سنويا بها عن 1435 دولارا، بغض النظر عن أوضاعها الائتمانية لدى البنك الدولي. وتعديل كهذا من شأنه أن يزيد عدد الدول المرشحة للانضمام للمشروع إلى 87 دولة. وسوف نلاحظ أن الدول التي ستنضم إلى المشروع في عامه الثاني ستكون أوضاعها في المتوسط أفضل من أوضاع الدول الأربع والسبعين الأصلية التي كانت تستحق الانضمام للمشروع في عامه الأول، ولذا فإن قيم المتوسطات الترتيبية التي يجب على مؤشرات أي دولة أن تتجاوزها حتى تنضم للمشروع سوف ترتفع قيمها بالنسبة لمعظم المؤشرات الستة عشر.. ونتيجة لذلك، فإن 11 دولة فقط ستدرج على قائمة المشروع في عامه الثاني، بما فيها 7 دول من أصل 13 دولة كانت مدرجة على قائمة المشروع في عامه الأول.

ولعل أبرز دولة ستستحق الانضمام للمشروع في عامه الثاني هي الصين. ولكننا سنجد من عدة أوجه أن تأهل الصين، على الأقل نظريا، لتلقي مساعدات المشروع لن يكون أمرا ذا قيمة عملية تذكر، الأمر الذي يرجع إلى سببين أولهما أن الصين نفسها لن تسعى للحصول على أي مساعدات اقتصادية يقدمها المشروع، وثانيهما أن ثمة عوامل أخرى قانونية وسياسية كفيلة بعرقلة انضمام الصين للمشروع، حتى في حالة طلبها الانضمام إليه رسميا. ولكن الصين على أي حال مرشحة لاجتياز اختبارات الانضمام للمشروع، وهذا أمر لا يجب أن يصيبنا بالمفاجأة نظرا للأداء الصيني الجيد على مدى العقدين الأخيرين في مجالي النمو الاقتصادي ومحاربة الفقر.

على أن كـــون الصين من الـدول التي سيحق لهـا بسـهولة الالتحـاق بالمشروع في عـامة الثاني هو من الأمور التي تزيد قناعتنا بضـرورة تحلي الإدارة الأمـريكيـة ومـجلس إدارة منظمـة تحدي الألفية بالمرونة الكافية لتعـديل قـائمـة الـدول المرشحـة للانضـمـام للمشروع قبل مصادقة الرئيس نهائيا عليها، ولعل نقـاط الضـعف البـارزة في بعض المعلومات والبيـانات التي سيستخـدمهـا المشروع تزيد من حتميـة التحلي بهذا النوع من المرونـة. ولـكـن يـجـب أن تـظـل هـذه التعديلات المحتملة على قائمة المشروع هي الاستثناء وليس القـاعدة، ويجب أن تتوافر مسوغات مقنعة تبرر إجراء تلك التعديلات. فليس من حق الإدارة الأمـريكيـة مـثـلا منح المساعدات للدول التي لا تستحقـهـا لمجرد كونها دولا حليفة للولايات المتحدة، وليس من حقها أيضا استبعاد دول بعينها من المشروع بسبب وجود أي خلافات دبلوماسية معها. فإجراء عدد ضخم للغاية أو مبالغ فيه من التعديلات على قائمة دول المشروع من شأنه زعزعة مصداقية عملية تقييم واختيار الدول من أساسهـا. وعلى الكونغرس أن يشترط احتواء التشريع الخاص بالمشروع على نص يلزم الإدارة الأمـريكيـة بالإفصـاح علنا عن الدرجات والتقييمات التي ستحصل عليها الدول كافة التي سيتم ضمهـا للمشروع أو التي سيتم استبعادها منه، وعن أي تعديلات مقترحة على معايير الاختيار أو الاستبعاد، وكـذلك عن المنطق وراء إجـراء مـثل هـذه التعديلات.

أمـا في السنة الثـالثة من عمـر المشروع فإن الإدارة تقترح إجراء توسعـة حـادة على مـجـموعـة الدول التي سـيشـملهـا المشروع (بالتزامن مع زيادة ميزانيته السنوية لتصل إلى حدها الأقصى المحدد وفقا للخطة وهو 5 بلايين دولار)، وعندئذ سيشمل المشروع الدول كافة التي يتراوح متوسط دخل الفرد سنويا فيـهـا بين 1435 و2975 دولارا. وهذه المجموعة من الدول سيتم التعامل معها بشكل منفصل عن طريقة التعامل مع الدول الأخرى التي يقل متوسط دخل الفرد سنويا فيها عن 1435 دولارا، بمعنى أن كل مجموعة من هاتين المجـمـوعـتين من الدول سـتكون لهـا متوسطات ترتيبية ومعايير اختيار واستبعاد خاصة بهـا. ولكننا نرى أن انضـمـام هذه المجموعة الجديدة من الدول إلى المشروع في عـامه الثـالث أمـر من شـأنه أن يثيـر جدلا عميقا بين خبراء التنمية والمنظمات غير الحكوميـة Non-governmental organizations (NGOs)، حيث يرى كثيرون من البـاحثين أن هـذا الانضـمـام لن يسـهم في تحـقـيق الأهداف بعـيـدة المدى للمـشـروع. فـالسبب الوحيد الذي تسوقه الإدارة لتبرير ضم تلك الدول إلى المشروع هو أن كثيـرين من مواطني تلك الدول مازالوا يعيشون تحت خط الفقر. ولكن هذه الدول، كما هو واضح من الجـدول رقم 3، تتـمـتع بأوضـاع أفـضل

بكثير من أوضاع نحو 87 دولة على المشروع أن يضعها في اعتباره في عامه الثاني، ذلك أن متوسط الدخل فيها أعلى بأربعة أضعاف مقارنة بالدول السبع والثمانين الأخيرة، كما أن معدلات وفيات المواليد ومعدلات الأمية بها أقل بوضوح منها في تلك الدول السبع والثمانين. ومن الملاحظ أيضا أن الدول المرشحة للانضمام للمشروع في عامه الثالث تتاح أمامها عدة مصادر تمويل بديلة (بخلاف مشروع تحدي الألفية)، وأنها تتسم بضخامة تدفقات رؤوس الأموال التي يضخها القطاع الخاص بها، فضلا عن ارتفاع معدلات الادخار والإيرادات الحكومية بها. ومن هذا كله يتضح أمامنا أن ضم هذه المجموعة الجديدة من الدول إلى المشروع سوف يتسبب في إبعاد بعض أرصدة المساعدات عن الدول التي هي في أشد الحاجة إليها والتي لا يتوافر أمامها سوى كم محدود من بدائل التمويل. وعلاوة على كل ما تقدم، فإن ضم هذه المجموعة المؤلفة من 28 دولة إلى المشروع سيزيد من احتمالات استخدام أرصدة المشروع لدعم الحلفاء السياسيين لواشنطن، ذلك أن هذه المجموعة من الدول تشمل، ضمن ما تشمل، دولا مثل كولومبيا وروسيا ومصر والأردن وتركيا.

وبناء على البيانات المتاحة لدينا اليوم، فإن 5 دول فقط من أصل 28 دولة ستكون مؤهلة للالتحاق بالمشروع في عامه الثالث في حالة تبني اقتراح الإدارة الأمريكية هذا كما هو، الأمر الذي يتضح من الجدول رقم 2. ومن المهم ملاحظة أن هذه الدول لن تنضم على حساب الدول التي ستكون مدرجة على قائمة المشروع في عامه الثاني، وإنما هي ستنضم إلى المشروع إلى جانب تلك الدول، فهاتان المجموعتان من الدول تتنافسان معا لتكون كل منهما مجموعة متمايزة عن الأخرى. وبما أن ضم هذه الدول الثماني والعشرين إلى المشروع يزيد من مخاطر تسييس قرارات تخصيص وتوزيع الموارد والمساعدات على الدول النامية المختلفة، وبما أن هذه الدول الثماني والعشرين تتمتع بقدرة أكبر على الولوج إلى مصادر تمويل بديلة، فإننا نرى أنه من الأفضل استبعاد هذه الدول من المشروع كليا. أما إذا كان لابد من ضم هذه الدول إلى المشروع، فإنه سيتعين على الإدارة الأمريكية إذن ألا تخصص لتلك الدول سوى نسبة ضئيلة (بليون دولار على الأكثر) من القيمة الإجمالية للمساعدات التي سيقدمها المشروع سنويا والبالغة 5 بلايين دولار، أما النسبة الباقية من المساعدات فيجب تخصيصها للدول الأشد فقرا والأكثر حاجة إليها.

وإلى هذا، وبناء على اقتراح الإدارة الأمريكية نفسها، فإن نحو 18 دولة قد تكون مؤهلة فعليا لتلقي مساعدات المشروع على مدى أعوامه الثلاثة الأولى. وهناك نحو 12 دولة أخرى سيتم استبعادها من المشروع بسبب أدائها السيئ في مؤشر واحد فقط

من مؤشرات المشروع، ومعظم هذه الدول قد تصير مؤهلة بسهولة للانضمام للمشروع خلال بضعة أعوام فقط من انطلاقه، وذلك إذا عملت على تحسين أدائها ورفع تقييماتها في أوجه القصور المحددة التي تعاني منها. ولذا يمكننا أن نتصور أن نحو 20 إلى 25 دولة قد تكون مؤهلة للانتفاع بالمشروع بحلول عامه الرابع أو الخامس.

إن هذه القائمة التي توصلنا إليها ليست بالقائمة المثالية أو النهائية، إلا أنها تعد بداية جيدة على أي حال. فنحن نعلم أن أوجه الضعف وعدم الانتظام في البيانات التي استخدمناها لإعداد هذه القائمة أدت إلى ظهور أسماء بعض الدول في القائمة رغم أنها لا تستحق ذلك فعليا، وأن هناك عددا محدودا من الدول الأخرى التي لا تظهر أسماؤها في القائمة رغم أنها تستحق الانضمام للمشروع لتمتعها بسجلات تاريخية جيدة نسبيا في مجال استخدام أموال المساعدات بفاعلية (موزامبيق مثلا). والحق أن منهجية التقييم والانتقاء هذه المرشحة لأن يستخدمها المشروع مصممة بحيث تكون موضوعية لأقصى حد ممكن، إلا أنها بالتأكيد ليست بالمنهجية المثالية تماما. ونحن نرى أن إدخال بعض التعديلات المحددة على معايير الاختيار في هذه المنهجية من شأنه أن يحسن المشروع ويزيد فاعليته بوضوح (وإن كانت مثل هذه التعديلات خارجة عن نطاق اهتمامنا في هذا البحث) (8). وعلى أي حال، فإن هذه المنهجية المقترحة تمدنا بطريقة معقولة للغاية للبدء في التمييز بين الدول التي تبدي حكوماتها التزاما قويا بتحقيق التنمية وتلك التي لا تفعل حكوماتها ذلك.

تحسين أداء البيروقراطية الأمريكية

ثمة عدة عوامل تعرقل أداء نظام المساعدات الخارجية الأمريكي، وتأتي على رأس هذه العوامل البيروقراطية المفرطة، والقيود التشريعية المبالغ فيها، والتعارض الواضح بين الأهداف. ومن الغريب أن الولايات المتحدة تمنح المساعدات للدول عالية الكفاءة وذات الحكومات الملتزمة تحقيق التنمية بنفس الكيفية التي تمنحها بها للدول ذات مستويات الفساد العالية والتي تطبق سياسات تنموية ضعيفة. ولكن الإدارة الأمريكية ترغب الآن في أن يكون مشروع تحدي الألفية مختلفا عن كل ما سبقه، ولذا فإنها اقترحت أن يتم الإشراف التام على المشروع بوساطة منظمة حكومية مستحدثة (أي منظمة تحدي الألفية) الغرض الرئيسي من إنشائها هو خفض التكاليف الإدارية الباهظة وزيادة الفاعلية الإجمالية لعملية منح المساعدات بوجه عام.

وفي الوقت الحاضر لا تتوافر تفاصيل كافية حول العمليات الفعلية التي ستؤديها هذه المنظمة المزمع إنشاؤها أو حول هيكلها

(8) انظر: ستيف راديليت، «معايير التأهل والانضمام لمشروع تحدي الألفية»، نقلا عن الموقع:
www.cgdev.org/nv/Choosing_MCA_Countries.pdf

التنظيمي المرجح، ومن المتوقع أن تعكف الإدارة والكونغرس على حسم مثل هذه الأمور خلال النصف الأول من العام 2003 بحيث تكون المنظمة جاهزة للعمل بحلول أكتوبر من العام نفسه. وعلى أي حال، فقد اقترحت الإدارة حتى الآن أن يتألف مجلس إدارة منظمة تحدي الألفية من مجموعة من الوزراء المعنيين وأن يترأسه وزير الخارجية، على أن يتولى منصب السكرتير التنفيذي للمنظمة موظف حكومي عالي الرتبة يعينه الرئيس الأمريكي بنفسه. وبالنسبة لموظفي المنظمة فسيتم انتقاؤهم من بين العاملين بمجموعة من المؤسسات والوكالات الحكومية المختلفة، على أن يتم التعيين أو الانتداب بصفة مؤقتة. ولعل أبرز مزايا منظمة تحدي الألفية هي أنها ستكون مؤهلة لتجنب الضغوط السياسية والإجراءات البيروقراطية والقيود التشريعية المتعددة التي يفرضها الكونغرس والتي تعمل كلها على تقويض برامج المساعدات الحالية بشدة. وستتمتع هذه المنظمة الجديدة كذلك بمرونة أكبر، وبقدرة على الاستجابة السريعة للتغيرات المختلفة وعلى استقطاب مجموعة من أفضل الكفاءات البشرية المتاحة لدى الحكومة، الأمر الذي يرجع في مجمله إلى وضعها كمنظمة مستقلة بذاتها عن أي وزارات أو مؤسسات حكومية قائمة حاليا.

على أن تأسيس المنظمة على هذا النحو المقترح ستترتب عليه عدة مخاطر مؤكدة. فهذا البرنامج سيؤدي إلى تجزئة برنامج المساعدات الخارجية الأمريكي إلى قسمين أساسيين متمايزين (الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ومشروع تحدي الألفية)، إلى جانب العديد من وكالات المساعدات الأخرى الأصغر حجما (مثل مشروع كتائب السلام وغيره من المشاريع المشابهة)، وهذه التجزئة من شأنها خلق صعوبة في التنسيق بين برامج المساعدات الأمريكية المختلفة وزيادة الهدر في استخدام الموارد. وعلاوة على كل ذلك، فإن الإدارة الأمريكية تأمل في الإبقاء على وضع مشروع تحدي الألفية كمشروع ذي حجم صغير نسبيا، ما يعني أن العدد المتوقع لموظفي المشروع، الذي سيتراوح بين 100 إلى 200 موظف، لن يكون كافيا لتسيير العمل ببرنامج مساعدات ذي ميزانية سنوية تقدر بنحو 5 بلايين دولار. وكذلك فإنه لم يتضح حتى الآن من الذي سيمثل منظمة تحدي الألفية على الأرض في الدول التي سيعمل بها المشروع. فمن المفترض مبدئيا أن المنظمة ستستعين بمقاولين من الباطن لأداء العديد من المهام نيابة عنها، مثل مهام المتابعة والتقييم، ومن الممكن أيضا أن تستعين المنظمة بموظفي الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية لأداء مثل هذه المهام في الدول المختلفة التي تعمل بها وكالتهم أصلا. ولكن في كلتا الحالتين سيظل من المحتمل أن يكون عدد موظفي منظمة تحدي الألفية أقل مما يجب، ما قد يعني بالتالي أن المنظمة لن تكون

في وضع يساعدها على أداء المهام عالية الكفاءة التي نتوقعها منها. وفضلا عن كل ما تقدم، فإن تولي وزير الخارجية منصب رئيس مجلس إدارة تلك المنظمة قد يمنح وزارة الخارجية قدرة مبالغ فيها على التحكم في قرارات اختيار الدول التي من حقها الانضمام للمشروع وقرارات تخصيص موارد المشروع على تلك الدول، ما سيعني أن المشروع قد يتحيز لأهداف السياسة الخارجية الأمريكية على حساب مدى موضوعيته ومصداقيته.

ومن أبرز المخاوف المحيطة بالمشروع أيضا تلك المتعلقة بالتأثير المحتمل لإنشاء منظمة تحدي الألفية على الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وتلك المتعلقة بطبيعة العلاقة المحتملة بين كلتا المنظمتين. فمن المتوقع أن تستقطب منظمة تحدي الألفية بعض الموظفين والموارد المالية من وكالة التنمية الدولية، ما من شأنه أن يرسخ ضعف الأخيرة وأن يخلق نوعا من الاحتقان في العلاقات وصعوبة في التعاون بين كلتا المنظمتين. وثمة قضايا عدة مازالت غير محسومة في هذا السياق. فعلى سبيل المثال، هل ستستمر وكالة التنمية الدولية في العمل في الدول التي ستدرج على قوائم مشروع تحدي الألفية، أم أنها ستنسحب من تلك الدول فور بدء عمل المشروع فيها؟ إننا من ناحية نجد أن عمل كلتا المنظمتين معا في دولة واحدة متلقية للمساعدات سيصيب حكومة تلك الدولة بارتباك شديد وسيتسبب في إهدار موارد ضخمة في أداء مهام مكررة. ولكننا من الناحية المقابلة نجد أنه قد توجد بعض المشاريع التنموية التي ستكون وكالة التنمية الدولية أكثر قدرة على تنفيذها بصورة فعالة على أساس خبراتها الطويلة السابقة وعملياتها القائمة فعليا على الأرض في تلك الدول المدرجة أيضا على قوائم مشروع تحدي الألفية. وهذه القضية تحديدا ستكون عويصة ومخادعة للغاية في الدول التي ستظل مدرجة على قوائم مشروع تحدي الألفية لعدة سنوات، ثم سيتم استبعادها منه لفشلها المفاجئ في الوفاء بمعاييره واشتراطاته، قبل أن يتم إدراجها على قوائمه من جديد بعد إصلاحها أوجه القصور تلك التي أصابتها فجأة. فالتنقل المتكرر لمثل هذه الدول بين مشروع تحدي الألفية وبرامج وكالة التنمية الدولية سيكون أمرا شاقا للغاية على المسؤولين عن النواحي الإدارية لبرامج المساعدات. وبالمثل، هل ستعمل منظمة تحدي الألفية في ظل التشريعات الحالية نفسها التي تنظم عمل المساعدات الخارجية فيما يتعلق بأمور كقواعد التعاقد على توريد السلع أو تقديم الخدمات للمشروع وما إلى ذلك من عمليات مشابهة، أم أنه من الأفضل استصدار تشريعات جديدة في هذا الصدد معدة خصيصا للمنظمة الجديدة؟ ومرة أخرى نجد أن إصدار تشريعات جديدة أكثر مرونة قد يكون

الخيار الأنسب لمنظمة تحدي الألفية، ولكن فكرة أن تعمل المنظمتان (منظمة تحدي الألفية ووكالة التنمية الدولية) في ظل قوانين وتشريعات شديدة التباين داخل حدود الدولة الواحدة هي بدورها فكرة من شأنها توليد قدر هائل من الارتباك لكل الأطراف المعنية.

إن إدارة الرئيس بوش لم تتصد بعد لهذه الأسئلة المهمة، ومما لا شك فيه أن الكونغرس قد تكون له إزاء هذه القضايا رؤى مختلفة بشدة عن رؤى الإدارة. وإذا لم يتم التوفيق بحرص بين هذه الرؤى المتباينة عبر التخطيط والتنسيق المحكمين، فإنه سيصبح في حكم المؤكد أن تبرز على السطح مصاعب جمة نابعة من الاضطرار لتشغيل برنامجين متباينين للمساعدات الخارجية بوساطة جزأين شديدي التباين من أجزاء الحكومية الأمريكية.

ضمان النجاح على الأرض

بغض النظر عن كنه المنظمة التي سيتم تخويلها الإشراف على مشروع تحدي الألفية، فإننا مازلنا نرى أن عدة قضايا مهمة متعلقة بالمشروع لم تحسم بعد، مثل تصميم البرنامج، وسبل تنفيذه عمليا، وإجراءات تقييم أدائه. ففي الوقت الراهن يتم توزيع معظم المساعدات الخارجية الأمريكية عبر اتباع مذهب لبرمجة المساعدات (بمعنى إعداد برامج تخطيطية شاملة لها) يتولى بمقتضاه مسؤولو وكالة التنمية الدولية مهمة صياغة استراتيجية عامة للمساعدات الموجهة إلى كل دولة مستحقة على حدة، ثم يتولون مهمة تصميم التدخلات (أي العمليات) الفعلية اللازم أداؤها على الأرض لتوزيع المساعدات على تلك الدول المختلفة، قبل أن يعكفوا أخيرا على تقييم النتائج النهائية أو الفعلية للأداء وفقا للاستراتيجية المحددة سلفا. وهذا المذهب ذو الخطوات المتدفقة من الأعلى للأسفل (أي من الأنشطة النظرية كوضع الأهداف والتخطيط لتحقيقها، إلى الأنشطة العملية كالتنفيذ والمتابعة) يعاني من عيوب عدة، ومنها مثلا عدم شعور الدول المتلقية للمساعدات بمسؤوليتها الفعلية عن نجاح أو فشل برامج المساعدات الموجهة إليها، وغياب التنسيق الكامل بين برامج المساعدات المختلفة من ناحية وبين الاستراتيجيات التنموية الشاملة للدول المتلقية للمساعدات من ناحية أخرى، واشتراط مشاركة أعداد ضخمة من موظفي وكالة التنمية الدولية في كل برامج المساعدات التي تنفذها الوكالة بلا استثناء، وأخيرا ضعف درجة التنافس بين برامج المساعدات المختلفة المقترحة. والحق أن مذهبا كهذا، أو بعضا من أجزائه، يمكن أن يعمل بصورة طيبة في الدول ذات الحكومات الضعيفة التي لا تبدي التزاما حقيقيا بالسعي لتحقيق التنمية، ولكن هذا المذهب لا يناسب دول مشروع تحدي الألفية. فبما أن الدول التي سيتم إدراجها على قوائم هذا المشروع ستكون ذات سجلات جيدة في مجال

السياسات التنموية، فإنه على الإدارة الأمريكية أن تفوض إلى تلك الدول مسؤولية أكبر عن تصميم برامج المساعدات الموجهة إليها والتي سيمولها المشروع لضمان كون هذه البرامج أكثر اتساقا مع الاستراتيجيات التنموية الشاملة لتلك الدول. ونحن نقترح تحديدا أن يتبع مشروع تحدي الألفية المذهب نفسه الذي تتبعه غالبية وكالات المساعدات الأخرى ذات الطبيعة المشابهة، والذي يقضي بأن تقوم حكومات الدول المرشحة لتلقي المساعدات بتدوين وإعداد قوائم بالمشروعات والأنشطة المقترح أن تمولها مشروعات المساعدات، على ألا يتم استخدام أرصدة المساعدات إلا لتمويل أفضل هذه المقترحات فحسب. فيمكن مثلا أن تتقدم حكومة إحدى الدول النامية المدرجة على قوائم المشروع بطلب أو اقتراح لتمويل نسبة كبيرة من ميزانية برنامجها التعليمي. وحتى يكون اقتراحها مقبولا، فإن تلك الدولة سيتعين عليها أولا وضع استراتيجية تعليمية جيدة - الأمر الذي تفتقر إليه معظم الدول النامية. وسيتعين على تلك الدولة أيضا أن تتوخى الحذر وهي تتصدى لأمور كوضع ميزانية البرنامج وحساب تكاليفه وتحديد بدائل تمويله المختلفة والخطوات العملية اللازم اتباعها لتحقيق النجاح بمرور الوقت. وطلبات أو اقتراحات التمويل الجيدة هي التي تحدد مسبقا الخطوات الفعلية التي ستقوم بها الدولة المعنية بمجرد تلقيها المساعدات، والمعايير التي سيتم استخدامها لقياس مدى نجاح المشروع، وهذا كله من شأنه أن يدفع الدول المرشحة كافة لتلقي المساعدات إلى وضع أهداف ملموسة ومتماسكة للمشروع في مراحله كافة (وإلا فإن فرص حصولها على المساعدات ستتضاءل). ومن المهم هنا جعل باب التقدم باقتراحات تمويل البرامج التنموية بأموال المساعدات مفتوحا على حد سواء أمام المنظمات الحكومية والمنظمات غير الحكومية (كالعيادات الطبية والمدارس)، فالتجربة العملية تؤكد أن المؤسسات والوكالات التابعة للقطاع الخاص تطبق بعض البرامج التنموية كأفضل ما يكون.

إن مذهبا كهذا من شأنه أن يضع المسؤولية الفعلية عن البرامج التنموية على أعتاق الأطراف المعنية بها مباشرة - أي الدول النامية المتلقية للمساعدات، وليس الوكالات المانحة. وهذا المذهب سيضمن أيضا أن الحكومات وغيرها من المؤسسات العامة أو الخاصة المنتمية إلى الدول المتلقية للمساعدات ستفعل كل ما بوسعها لتحديد أولوياتها ولإعداد استراتيجياتها التنموية على أفضل نحو ممكن. وفي حال تم تطبيق هذا المذهب فعليا، فإن مشروع تحدي الألفية سيزيد بوضوح من درجة مسؤولية الدول المتلقية للمساعدات عن إنجاح برامجها التنموية المختلفة التي تمولها الجهات المانحة، وسيزيد كذلك من مدى التزامها بالسعي الدؤوب لتحقيق ذلك النجاح، الأمر الذي

سيمهد الطريق دون شك أمام تحقيق نتائج تنموية أفضل. ومن المؤكد أن دولا كثيرة من تلك المرشحة لتلقي مساعدات مشروع تحدي الألفية ستفتقر مبدئيا إلى القدرة على إعداد اقتراحات تمويل وبرامج تنموية جيدة، ولكن الطريقة الوحيدة لإكساب تلك الدول قدرة كهذه هي إتاحة الفرصة أمامها لاكتسابها بنفسها، مع منحها في الوقت نفسه بعض المساعدات المادية لإعانتها فنيا وتقنيا في السنوات الصعبة الأولى. ولعله من الواضح أن مذهبا كهذا لن يعمل بنجاح إلا في الدول التي كانت ومازالت جادة في التزامها تحقيق التنمية.

إن سر إنجاح مشروع تحدي الألفية المزمع بدء العمل به قريبا يكمن في السعي لضمان ارتفاع كفاءة وفاعلية البرامج التنموية التي سيمولها المشروع في مراحلها كافة، من الإعداد النظري وحتى التنفيذ العملي. فتصميم هذا البرنامج الجديد على الورق هو مجرد خطوة أولى. وحتى ينجح مشروع تحدي الألفية في مجمله، سيتعين على القائمين عليه تشجيع قيام المنافسة داخل وفيما بين الدول النامية المختلفة من أجل الظفر بأرصدة المساعدات المحدودة نسبيا التي يوفرها المشروع، الأمر الذي يمكن أن يتأتى عبر تجميع اقتراحات وطلبات التمويل من طيف واسع ومتنوع من الوكالات الحكومية وغير الحكومية بالدول النامية المرشحة للانضمام للمشروع. ويجب أن تتم مراجعة تلك الاقتراحات مراجعة منهجية سليمة على يد موظفين ذوي خبرة بظروف الدول المتلقية للمساعدات من ناحية، وبالمجالات النوعية لاختصاصات برامج المساعدات المقترح تنفيذها من ناحية أخرى. إن المساعدات الاقتصادية التي سيوفرها مشروع تحدي الألفية يجب ألا تذهب إلا لأفضل اقتراحات التمويل المقدمة، ويجب على القائمين على المشروع أن يرفضوا رفضا باتا تمويل أي اقتراحات ضعيفة أو مشوشة، وأن يطلبوا في الوقت نفسه إجراء تعديلات وتنقيحات إضافية على اقتراحات التمويل الجيدة مبدئيا ولكن غير المتكاملة. ولضمان الأداء الأمثل لعملية تقييم اقتراحات التمويل هذه، يجب على الكونغرس أن يتجنب التعهد المسبق بتخصيص أي من أرصدة مساعدات المشروع لخدمة أو تحقيق أغراض بعينها محددة سلفا. فالأفضل أن تكون عمليات تصميم ومراجعة ومتابعة وتقييم اقتراحات التمويل المقدمة للمشروع هي المسؤولة عن تحديد كيفية تخصيص أو استخدام أرصدة المشروع من دون أي اعتبارات مسبقة.

والنقطة الأخيرة، وربما الأكثر أهمية، في هذا السياق تتعلق بعنصر متابعة وتقييم البرنامج. فمن دون تمتعه بقدرة أكبر بوضوح على متابعة وتقييم الأداء، سيكون المآل الحتمي لمشروع تحدي الألفية هو الفشل. والحق أن المتابعة والتقييم الفعالين هما من العوامل التي لا غنى عنها لضمان سير

البرامج التي سيمولها المشروع على الطريق الصحيح الموصل إلى تحقيق أهدافها، بحيث يمكن إرشاد عملية تخصيص أرصدة وموارد المشروع إلى الأنشطة الناجحة وبعيدا عن الأنشطة الفاشلة، وبحيث يمكن اتباع الدروس المستفادة من الأنشطة القائمة بالفعل - سواء أكانت ناجحة أم فاشلة - لتصميم مشاريع وبرامج جديدة أفضل.

والمشروع سيكون بحاجة إلى نوعين متمايزين من أنشطة المتابعة والتقييم، وهما: المحاسبية المالية Financial accountability، وقياس مدى التقدم نحو تحقيق الأهداف النوعية Substantive goals للمشروع. فالمحاسبية المالية كفيلة بضمان إنفاق أرصدة المشروع حيث يجب إنفاقها فعلا، وضمان عدم تجاوز المشروع حدود ميزانيته الموضوعة سلفا، وعدم ميله لتجاهل التشريعات المنظمة لأمور كالمشتريات والمدفوعات، وأخيرا ضمان عدم سرقة أو اختلاس أموال المشروع.. أما قياس مدى التقدم نحو تحقيق الأهداف النوعية للمشروع فيركز بدوره على تحديد مدى الالتزام بمعايير أو معدلات الأداء المحددة سلفا، مثل شراء عدد محدد من الكتب الدراسية، أو تدريب عدد محدد من المدرسين، أو بناء عدد محدد من المدارس، أو تحسن معدلات نجاح طلبة أحد الصفوف في الامتحانات الدراسية بنسبة محددة، أو زيادة أعداد الطلبة المتخرجين في إحدى المدارس بنسبة محددة. ويجب إدماج عنصري المتابعة والتقييم هذين في مشاريع وبرامج المساعدات التي سيمولها المشروع منذ بدايتها وليس إقحامها فيها في مراحل لاحقة بعد انقضاء زهاء نصف فتراتها المتوقعة. وأخيرا يجب المزج بين المراجعة الداخلية (التي تجريها الجهات التي ستتلقى المساعدات) والمراجعة الخارجية (التي ستجريها منظمة تحدي الألفية بنفسها أو يجريها أحد المقاولين من الباطن نيابة عنها)، بغية التأكد من توافق أنشطة المتابعة والتدقيق الخاصة بالمشروع مع أعلى المعايير الرقابية الممكنة.

على أن منح الدول المتلقية للمساعدات حرية تصرف أكبر في تصميم وتنفيذ وتقييم برامج المساعدات الموجهة إليها تبعا لظروفها ورغباتها المحددة، إنما هو أمر ينطوي على بعض المخاطر. فمنح الدول المتلقية للمساعدات مرونة وحرية تصرف أكبر لن ينجح إلا في الدول الأكثر التزاما بتحقيق التنمية - أي في الدول نفسها التي سيسعى مشروع تحدي الألفية لاستهدافها. ولكن هذه المرونة الإضافية تستلزم من الدول النامية المعنية تحمل قدر أكبر من المسؤولية عن إنجاح برامجها التنموية التي سيمولها المشروع، الأمر الذي سيدفعنا بالضرورة إلى أن نتوقع من المشروع تحقيق نتائج أفضل، وأن نتوقع من الدول المتلقية للمساعدات أن تضطلع بدور أكثر إيجابية وجدية في السعي لتحقيق أهداف المشروع ككل والبرامج التي

سيمولها. وخلاصة كل ما تقدم هي أن البرامج التي ستنجح في تحقيق أهدافها من حقها أن تحصل من المشروع على تمويل إضافي سخي، أما البرامج التي ستفشل في ذلك فيجب التعامل معها بمنتهى الحرص والتقشف.

نحو استراتيجية مساعدات خارجية أكثر شمولا

لا شك أن مشروع تحدي الألفية هو مشروع جديد واعد ومثير، ولكنه في الوقت نفسه لن يمد يد المساعدة إلا إلى عدد محدود من الدول النامية، ولذا يمكننا اعتباره مجرد استراتيجية جزئية للمساعدات الخارجية الأمريكية. وبما أن هذا المشروع سيركز على الدول ذات الحكومات الملتزمة بوضوح بتحقيق التنمية، فإنه يمكننا القول بالضرورة إنه مشروع سيتصدى للتعامل مع أسهل الحالات الموجودة بين الدول النامية والأقل دخلا. والإدارة الأمريكية لم تقم إلى حد الآن بإعداد استراتيجيات مماثلة لمساعدة سائر الدول النامية التي لن يكون بوسعها الالتحاق بمشروع تحدي الألفية، سواء أكانت هذه الدول ستفشل في الالتحاق بالمشروع فشلا طفيفا (بسبب أدائها السيئ في مؤشر واحد أو مؤشرين على الأكثر) أو فشلا ذريعا يرجع إلى كونها دولا فاشلة بطبيعتها وغارقة حتى النخاع في الصراعات الداخلية الأبدية. كما أن الإدارة لم تضع حتى الآن استراتيجية واضحة لمواجهة القضايا والمشاكل الرئيسية التي تتجاوز حدود الدولة الواحدة، وعلى رأسها أزمة الانتشار الواسع لمرض الإيدز في كثير من الدول النامية، تلك الأزمة التي بدأ أخيرا الخبراء في الإدارة الأمريكية وفي الكونغرس بمجلسيه يعترفون بأنها تستحق أن تشغل اهتماما أكبر على أجندتهم.

إن أحد الحلول الطرفية لهذه المشكلة يكمن في قطع كل المساعدات الخارجية الأمريكية الحالية والاكتفاء فقط بمنح المساعدات للدول المؤهلة للالتحاق بمشروع تحدي الألفية. ولكنّ حلا كهذا سيكون ساذجا وقصير النظر للغاية، فمازال هناك عدد كبير من الدول التي ستظل تشغل اهتمام الدبلوماسية الأمريكية ومصالحها رغم أن مؤشرات أدائها الحالي لا تؤهلها للانضمام للمشروع، ومن هذه الدول على سبيل المثال أفغانستان وباكستان والهند وإسرائيل ونيجيريا وإثيوبيا وروسيا وأوكرانيا وكولومبيا والمكسيك وإندونيسيا. ولكن الولايات المتحدة في الوقت نفسه لا يمكنها، ولا يجب عليها، أن تمنح المساعدات الاقتصادية لكل دول العالم بلا استثناء، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بالدول ذات الحكومات القمعية أو الفاسدة لأن دولا كهذه لا تستحق أي مساعدات خارجية على الإطلاق. وعلى أي حال، فإننا مازلنا نؤكد أن وضع استراتيجية واضحة للتعامل مع الدول التي لن يشملها مشروع تحدي الألفية هو أمر ضروري لضمان تكامل استراتيجية

المساعدات الخارجية الأمريكية وتجانسها.

إن تباين أهداف المساعدات الخارجية الأمريكية من دولة لأخرى، وتباين الظروف المحلية السائدة في الدول التي سيشملها مشروع تحدي الألفية عن تلك التي لن يشملها المشروع، هما أمران يحتمان علينا تبني مذهبين مختلفين عند التعامل مع هاتين المجموعتين من الدول. فلننظر أولا إلى الدول التي ستفشل بالكاد (أي فشلا طفيفا) في الالتحاق بمشروع تحدي الألفية بسبب أوجه قصور محددة تعاني منها في مؤشر واحد أو مؤشرين على الأكثر من مؤشرات المشروع. إن أهداف الدبلوماسية الأمريكية بالنسبة لمساعدة تلك الدول تتشابه بوجه عام مع أهدافها بالنسبة للمساعدات الموجهة للدول التي سيشملها المشروع بالفعل - أي تحقيق النمو الاقتصادي ومحاربة الفقر. ولكن الأوضاع على الأرض في تلك الدول لم تصل بعد إلى درجة القوة أو الكفاءة التي تؤهلها للانتفاع بآليات التمويل المرنة المعتزم إدماجها في مشروع تحدي الألفية. وبما أن هذه الدول ستفشل في الالتحاق بالمشروع، فإن الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ستكون مطالبة بلعب الدور الرئيسي فيها، ما يعني أنه يتعين الآن على الإدارة الأمريكية وضع استراتيجية محددة لزيادة فاعلية تلك الوكالة على الأرض. ويجب على برامج وكالة التنمية الدولية أن تركز على أوجه القصور المحددة التي حالت دون انضمام هذه الدول المعنية إلى مشروع تحدي الألفية، على أن يكون الهدف الرئيسي هو مساعدة هذه الدول على الانضمام للمشروع في المستقبل القريب. وكجزء من هذه البرامج، سيتعين على وكالة التنمية الدولية إتاحة الفرصة أمام هذه الدول للعب دور فاعل في تصميم تدخلات وعمليات المساعدات المحددة التي تلزمها، وربما حتى للتقدم باقتراحات وطلبات للحصول على موافقة مشروع تحدي الألفية على تمويل بعض من برامجها التنموية المحددة وفقا للآلية التي عرضنا لها أعلاه (المتمثلة في مذهب برمجة المساعدات).

أما بالنسبة للدول ذات الحكومات الأضعف والتي لا تبدي اهتماما حقيقيا بتحقيق التنمية، فإنه يتعين على وكالة التنمية الدولية أن تتوخى الحذر وهي توجه أي مساعدات إليها، مع مراعاة أن تضطلع المنظمات غير الحكومية في تلك الدول بدور أكبر من دور الحكومات في استخدام أرصدة المساعدات الممنوحة إليها. ويجب على الوكالة أن تحدد بدقة أسلوب التعامل مع كل دولة من هذه الدول ذات الحكومات الضعيفة على حدة. وفي بعض الدول ذات الحكومات بالغة الضعف - وبخاصة الدول ذات الحكومات المعينة حديثا أو المكلفة إدارة أوضاع دول معينة في أعقاب فترات من الصراع الداخلي، كما هي الحال في أفغانستان مثلا - فإن عمل وكالة التنمية الدولية من خلال تلك الحكومات سيكون أمرا جيدا لأنه

سيعمل على تقوية المؤسسات الحكومية وإرساء دعائم سياسات تنموية أقوى في المستقبل. ولكن التحدي الأكبر يتمثل في الدول الفاشلة Failed states، حيث تكون الحكومات إما غير فعالة كليا وإما غير موجودة على الإطلاق، وحيث تترعرع بذور الإرهاب وتهريب المخدرات وغسيل الأموال وغيرها من الجرائم المنظمة العابرة للحدود. وحقيقة فإن استراتيجية الأمن القومي -National Security Strategy (NSS) للعام 2002 الخاصة بإدارة الرئيس بوش، والتي تم كشف النقاب عنها في سبتمبر من ذلك العام، تعد استراتيجية مميزة، أولا لإقرارها بأن مثل هذه الدول الفاشلة يجب أن تشغل حيزا أكبر على أجندة السياسة الخارجية الأمريكية، وثانيا لإقرارها بعدم توافر أي استراتيجية متكاملة للتعاطي مع تلك الدول في الوقت الحاضر(9). على أننا بحاجة إلى اتباع مذهب مختلف للتصدي لأزمة الانتشار الواسع لمرض الإيدز في العالم النامي. فهذا الوباء لديه القدرة على تدمير العديد من المجتمعات الهشة، وعلى أن يخلق بالتالي أجيالا متعاقبة من المؤسسات الضعيفة وحالات من عدم الاستقرار السياسي وسوء الحكم، الأمر الذي ستكون له انعكاسات سلبية محتملة على المصالح الأمريكية ككل. وعلى القادة الغربيين أن يظهروا نزعات قيادية أقوى وأوضح لمحاربة هذا الوباء بفاعلية، وأن يعملوا سويا وأن يتعاونوا مع قادة الدول النامية والمؤسسات الدولية لتحقيق ذلك الهدف.. ونحن بحاجة كذلك إلى جهود أقوى على الصعيد الوزاري: بما في ذلك تشجيع القيادات المحلية في الدول النامية على المبادرة والمبادأة في مواجهة المرض (فالوقاية خير دائما من العلاج)، ودعم المبادرات الرامية إلى خفض معدلات العدوى والإصابة بالمرض، وتوفير العلاج والرعاية لأولئك المصابين بفيروس الإيدز أو بالأعراض المصاحبة له، وتنمية استراتيجيات لمساعدة عائلات ضحايا المرض وأيتامهم، وتمويل البحوث الرامية إلى اكتشاف أمصال مضادة للمرض. لقد أعلن الرئيس بوش في خطابه عن حالة الاتحاد في يناير 2003 عن عزمه مطالبة الكونغرس بزيادة ميزانية محاربة الإيدز على مدى السنوات الخمس المقبلة بمقدار 15 بليون دولار، والحق أن تحقق هذه الزيادة سيكون خطوة كبرى للأمام. ولكن التحدي التالي أمامنا سيكون ترجمة هذه الميزانية الضخمة إلى استراتيجيات عملية فعالة لمحاربة هذا الوباء.

وأخيرا، فإن مساعدة الدول الفقيرة بشكل جدي على وضع أسس أقوى لتشجيع القطاع الخاص وتحقيق النمو الاقتصادي

(9) للتعرف على أحد المذاهب الممكن اتباعها لتنمية استراتيجية كهذه، انظر:
John j, Hamar and Gordon R. Sullivan, "Toward Postconflict Reconstuction", The Washingtn Quarterly 25, no 4 (autumn 2002): 85-96; subsequent articles

المستدام ومحاربة الفقر - هذه المساعدة تتطلب من الولايات المتحدة إعادة النظر في بعض من سياساتها الأخرى التي تطال هذه الدول الفقيرة، ولعل أهم ما يجب عمله في هذا السياق هو إعادة النظر في السياسات التجارية الحمائية التي تتبناها أمريكا والتي تمنع الدول الفقيرة من بيع منسوجاتها ومنتجاتها الزراعية في الأسواق الأمريكية. لقد كان قانون المزارع Farm bill الصادر حديثا خطوة كبيرة إلى الوراء لأنه سيشجع على زيادة حجم الفائض في الإنتاج الزراعي الأمريكي، ما سيسبب انخفاضا جديدا اصطناعيا أو غير مبرر في الأسعار العالمية، وسيقضي بالتالي على أي حوافز أو فرص أمام بعض أفقر مزارعي العالم لزيادة إنتاجهم على أمل تحقيق مستوى معيشة يصل بالكاد إلى حد الكفاف. إننا نؤمن بشدة بأهمية وجدوى مشروع تحدي الألفية، ولكننا في الوقت نفسه نرى أن فتح الأسواق الأمريكية على أساس تكافؤ الفرص أمام منتجات أفقر مزارعي العالم سيكون أكثر جدوى من مجرد تطبيق مشروع تحدي الألفية، سواء بالنسبة للاقتصاد الأمريكي نفسه أو بالنسبة لعدد أكبر من الدول الأشد فقرا.

وكذلك يجب إسقاط مزيد من الديون عن بعض أفقر دول العالم (مثل أوغندا وغانا وتنزانيا) لمساعدتها على القيام باستثمارات حكومية ضخمة في مجالي الصحة والتعليم للإسهام في تحقيق النمو الاقتصادي. لقد قامت الولايات المتحدة بالفعل بإسقاط 100% من الديون المستحقة على هذه الدول الثلاث المحددة أعلاه وعلى غيرها من الدول الأكثر فقرا، بما فيها بعض الدول المرشحة للانضمام إلى مشروع تحدي الألفية، وذلك عبر ما يسمى بمبادرة دعم الدول الفقيرة الأكثر ديونا Heavily Indebted Poor Country Initiative (10)، وتلك كانت خطوة هائلة للأمام. ولكن مازال يتعين على الولايات المتحدة أن تسعى بجد للوصول إلى طرق جديدة يمكن بمقتضاها لصندوق النقد الدولي وللبنك الدولي وغيرهما من المؤسسات الدولية إسقاط مزيد من الديون عن الدول المستحقة. وبشكل أكثر شمولا، يجب على الولايات المتحدة أن تعمل على ضمان التكامل والتوافق التامين في الأهداف بين كافة سياساتها تجاه الدول النامية المختلفة، حتى لا تتعارض هذه السياسات مع بعضها بعضا أو يقوض بعضها بعضا.

إن التصدي لهذه المشاكل الرئيسية الواقعة خارج نطاق مشروع تحدي الألفية يتطلب أولا أن يوافق الكونغرس على خطة

(10) لمزيد من التحليل حول هذا الموضوع، انظر:
Nancy Birdsall and John Williamson, "Delivering on Debt Relief: From IMF Gold to a New Aid Architecture", Washington D.C., Center for Global Development and Institute for International Economics, 2002
washington Quasterly 25, ??? (antumn 2002):
85-96; subsequent articles.

الجدول رقم 1: معايير اختيار الدول التي تستحق تلقي مساعدات مشروع تحدي الألفية

المؤشر	المصدر
القسم الأول: الحكم بعدالة	
- محاربة الفساد	- معهد البنك الدولي
- حكم القانون	- معهد البنك الدولي
- المراجعة والمحاسبية الحكومية	- معهد البنك الدولي
- فاعلية الأداء الحكومي	- معهد البنك الدولي
- الحريات المدنية	- مجلس دراسات الحريات
- الحقوق السياسية	- مجلس دراسات الحريات
القسم الثاني: الاستثمار في مستقبل الشعوب	
- معدلات تطعيم الأطفال ضد مرضي الحصبة والسعال الديكي	- منظمة الصحة العالمية / البنك الدولي
- معدل إتمام الدراسة بالتعليم الأساسي	- البنك الدولي
- نسبة الإنفاق العام على التعليم الأساسي إلى الناتج المحلي الإجمالي	- البنك الدولي
-نسبة الإنفاق العام على الصحة إلى الناتج المحلي الإجمالي	- البنك الدولي
القسم الثالث: تشجيع الحريات الاقتصادية	
- مستوى التقييم الائتماني للدولة	- إحدى مؤسسات الاستثمار الكبرى
- معدل التضخم	- صندوق النقد الدولي
- جودة وفاعلية التشريعات الاقتصادية	- معهد البنك الدولي
- نسبة عجز الموازنة الحكومية إلى الناتج المحلي الإجمالي	- صندوق النقد الدولي
- سياسة التبادل التجاري المتبعة	- المؤسسة الأمريكية للتراث
- عدد الأيام اللازمة لإتمام إجراءات تأسيس شركة جديدة	- البنك الدولي

المصدر: «نشرة الحقائق الأساسية حول مشروع تحدي الألفية»، التي وزعتها الإدارة الأمريكية في الخامس والعشرين من نوفمبر 2002، والموجودة أيضا على الموقع www.cgdev.org

الجدول رقم 2: قائمة بالدول المرشحة للانضمام لمشروع تحدي الألفية وفقا للمعايير التي حددتها الإدارة الأمريكية

السنة الأولى: الدول المؤهلة للاقتراض التعاقدي من البنك الدولي والتي يقل متوسط دخل الفرد فيها عن 1435 دولارا سنويا	السنة الثانية: جميع الدول التي يقل متوسط دخل الفرد فيها عن 1435 دولارا سنويا	السنة الثالثة: الدول التي يتراوح متوسط دخل الفرد فيها بين 1435 و2975 دولارا سنويا
ألبانيا، بنغلاديش، بنين، بوليفيا، غامبيا، جورجيا، هندوراس، ليسوتو، مالاوي، منغوليا، نيبال، السنغال، سريلانكا	**الدول التي ستتأهل للمشروع بالفعل** بوليفيا، بنين، الصين، هندوراس، ليسوتو، مالاوي، منغوليا، الفلبين، السنغال، سريلانكا، فيتنام	بلغاريا، مصر، ناميبيا، بيرو، جنوب إفريقيا
مولدوفيا، نيكاراغوا	الدول التي سيتم استبعادها من المشروع بسبب أدائها السيئ في مؤشر الفساد الإكوادور، مولدوفيا، نيكاراغوا، أوكرانيا	لا يوجد
كولومبيا، ساحل العاج، غانا، غوايانا، الهند، مالي، موزامبيق، فيتنام	الدول التي سيتم استبعادها بسبب أدائها السيئ في مؤشر واحد فقط (غير الفساد) ألبانيا، بنغلاديش، كولومبيا، ساحل العاج، غامبيا، جورجيا، غانا، غوايانا، الهند، مالي، المغرب	جامايكا، الأردن، تونس

ملحوظة: بالنسبة لكل من دولتي بنين وليسوتو لا تتوافر حاليا بيانات كافية حول مؤشرات الفساد بهما، وعليه فإن هاتين الدولتين قد لا تتأهلان للمشروع من الناحية النظرية. ولكن من المتوقع توافر تلك البيانات خلال الأشهر القليلة المقبلة، ولذا فإن هاتين الدولتين مرشحتان للالتحاق بالمشروع عندما يبدأ العمل به في أواخر العام 2003.

المصدر: ستيف راديليت، «معايير التأهل والانضمام لمشروع تحدي الألفية»، نقلا عن الموقع www.cgdev.org

الجدول رقم 3: حالة التنمية، وتدفقات الموارد، ومصادر التمويل في المجموعات الثلاث من دول مشروع تحدي الألفية (بالمتوسطات الترتيبية)

	المجموعة الأولى: الدول المؤهلة للاقتراض التعاقدي من البنك الدولي والتي يقل متوسط دخل الفرد فيها عن 1435 دولارا سنويا	المجموعة الثانية: جميع الدول التي يقل متوسط دخل الفرد فيها عن 1435 دولارا سنويا	المجموعة الثالثة: الدول التي يتراوح متوسط دخل الفرد فيها بين 1435 و2975 دولارا سنويا
حالة التنمية			
نصيب الفرد من الدخل القومي الإجمالي، في العام 2001	380 دولارا	460 دولارا	1965 دولارا
معدل الأمية بين البالغين، في العام 2001	%36	%33	%14
متوسط العمر المتوقع للفرد عند ولادته، في العام 2000	54 سنة	56 سنة	70 سنة
معدل الوفيات بين المواليد، في العام 2000 (لكل 1000 مولود)	75 في كل 1000	69 في كل 1000	27 في كل 1000
تدفقات الموارد ومصادر التمويل			
نسبة المساعدات الخارجية إلى الناتج القومي الإجمالي، في العام 2000	%10.8	%8.5	%1.4
نسبة إجمالي تدفقات رؤوس الأموال الخاصة إلى الناتج المحلي الاجمالي.	%6.9	%8.7	%10.3
نسبة حصيلة الإيرادات الضريبية إلى الناتج القومي الإجمالي	%11.7	%12.6	%21.8
نسبة إجمالي المدخرات المحلية إلى الناتج القومي الإجمالي، في العام 2000	%7.3	%8.4	%16.2
عدد الدول في كل مجموعة	74 دولة	87 دولة	28 دولة

المصدر: ستيف راديليت، «معايير التأهل والانضمام لمشروع تحدي الألفية»، نقلا عن الموقع www.cgdev.org

الرئيس لتخصيص 5 بلايين دولار كميزانية سنوية لمشروع تحدي الألفية، مع الحفاظ على نفس مستوى الإنفاق الحالي على برامج المساعدات الخارجية الأخرى. فمن غير المقبول أن يتم تمويل مشروع تحدي الألفية عبر خفض ميزانيات هذه البرامج الأخرى - فهي برامج تعاني ميزانياتها أصلا من نقص واضح في الأرصدة. فالمساعدات الخارجية الأمريكية ظلت ثابتة بالمقاييس الاسمية منذ منتصف الثمانينيات، ولكنها بالمقاييس الحقيقية - أي بعد استبعاد آثار التضخم أو بعد احتسابها كنسبة من حجم الاقتصاد الأمريكي ككل - كانت تتناقص بانتظام طوال تلك الفترة. ولعل مما يؤيد تلك الحقيقة أن الولايات المتحدة تحتل حاليا المركز الأخير بين أكبر 22 دولة صناعية مانحة للمساعدات الخارجية كنسبة من دخولها المحلية الإجمالية (11).

لقد فقدت الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة قدرا كبيرا من دورها الريادي في مجال منح المساعدات الاقتصادية للدول النامية، الأمر الذي يرجع جزئيا إلى هذا التدني النسبي في ميزانيات مساعداتها الخارجية. ومشروع تحدي الألفية يمد الولايات المتحدة بفرصة لاستعادة هذا الدور الريادي لأنه من ناحية برنامج كبير الحجم، ولأنه من ناحية أخرى سيعتمد - حسب ما هو مرجح - على آليات مبتكرة لتوزيع المساعدات. ولكن مجرد الإبقاء على أو حتى زيادة ميزانيات برامج المساعدات غير المشمولة في مشروع تحدي الألفية لن يكون بالأمر الكافي في حد ذاته. فعلى الولايات المتحدة أيضا صياغة استراتيجيات جديدة لزيادة فاعلية برامج مساعداتها الواقعة خارج نطاق مشروع تحدي الألفية، ما سيتطلب بدوره صياغة رؤية أو رسالة واضحة وتأهيل قيادة قوية للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. إن المبادرة المتمثلة في مشروع تحدي الألفية، في صورته المقترحة الحالية، تمثل بداية جيدة ولا شك، ولكن مازال على الإدارة الأمريكية والكونغرس أن يعملا سويا على إعداد كافة مقومات وعناصر المشروع اللازم توافرها للوصول إلى استراتيجية مساعدات خارجية فعالة وقادرة على مكافحة الفقر في الدول النامية، وعلى تحقيق المصالح الاستراتيجية الأمريكية حول العالم في الوقت نفسه.

---

(11) Washington Quarterly 25, no. 4 (autumn 2002): 85-96; subsequent articles إذا أضفنا المساهمات الخاصة والفردية أيضا، سيكون من المرجح أن تصعد الولايات المتحدة إلى مرتبة أعلى قليلا في القائمة، ولكنها ستظل على أي حال ضمن أقل الدول الصناعية إسهاما في مساعدة الدول الفقيرة.



منظمة التجارة العالمية على المحك

بقلم: سوزان إيسرمان وروبرت هاوس*

ترجمة: حسام حسني بدار

العنوان الأصلي للمقال: The WTO on Trial

ونشر في مجلة Foreign Affairs عدد يناير / فبراير 2003

قانون عالمي... سياسة عالمية

في الخريف الماضي، أصدرت هيئة قضائية تابعة لمنظمة التجارة العالمية World Trade Organization (WTO) حكما مثيرا للجدل بخصوص نزاع ضريبي بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، وقامت الهيئة المذكورة، التي لم تعر إلا القليل من الاهتمام لتعقيدات القضية، بتفويض بروكسل بتنفيذ عقوبات انتقامية بقيمة 4 مليارات دولار - وهو مبلغ غير مسبوق - ضد واشنطن.

* سوزان إيسرمان شريك في مؤسسة قانونية قائمة في واشنطن العاصمة، ونائب سابق لرئيس ممثل تجارة الولايات المتحدة. كما عملت كمستشار عام لمكتب ممثل تجارة الولايات المتحدة، وكسكرتير عام لمكتب ممثل تجارة الولايات المتحدة، وكسكرتير مساعد للتجارة. أما روبرت هاوس، فهو أستاذ القانون في جامعة ميتشغان، وشارك مايكل تريبلكوك Michael Trebil Cock في تأليف كتاب أنظمة التجارة الدولية The Regulation of International Trade.

ومما يجدر ذكره أن الولايات المتحدة وحليفاتها الأوروبيات تضع الخطوط العريضة لمعركة قانونية أخرى لا تقل ضراوة تدور حول صلاحية المحكمة الجنائية الدولية في محاكمة جنود أمريكيين عن جرائم مزعومة ارتكبوها في الخارج.

في القرن التاسع عشر، كتب كلوزويتز Clausewitz مقالة شهيرة فحواها أن الحرب هي سياسة تدار بوسائل أخرى. وفي هذه الأيام، وكما توضح هذه الأمثلة، يمكن أن يقال الشيء نفسه عن القانون. إن كثيرا من النزاعات التي كان من المعتاد تسويتها عن طريق المفاوضات أو حتى عن طريق قوة السلاح تسوّى الآن من خلال عرضها على عدد متزايد من المحاكم وهيئات التحكيم الدولية. وأصبحت المذكرات القانونية تحل محل المذكرات الديبلوماسية، والأحكام القضائية محل التسويات الديبلوماسية.

لم يكن هناك تفكير مليّ حول إن كانت هذه الأهمية المتصاعدة للقانون أمرا طيبا أم غير طيب بالنسبة لازدهار العالم واستقراره. وفي معظم الحالات يكون الجواب أن الوقت مازال مبكرا لإعطاء رأي قاطع بهذا الشأن. ومهما يكن من أمر، هناك استثناء واحد: منظمة التجارة العالمية، التي لم يشهد أي مكان آخر سواها، ظهور تضارب دولي بمثل هذه الحدة وهذه السرعة حول القرارات المتخذة من قبل القضاة. وكما هو الحال في المحاكم المحلية - ولكن بخلاف ما هو عليه في معظم الهيئات الدولية - تكون التسوية التي تصدر عن منظمة التجارة العالمية بشأن أي نزاع إجبارية وملزمة، ولا يكون هناك للدول الأعضاء من خيار سوى الخضوع لتلك التسوية والقبول بالنتائج المترتبة على الحكم الذي أصدرته منظمة التجارة العالمية.

ولكن... ما الذي يكشف عنه بالضبط سجل منظمة التجارة العالمية بشأن استخدامها لصلاحياتها غير المسبوقة؟ إن هذا السؤال ملحّ حيث إنه حدد للمفاوضين موعدا نهائيا ينتهي في مايو 2003 بشأن تقييم نظام تسوية النزاعات وتقرير في ما إذا كان ذلك النظام بحاجة إلى تغيير، والكيفية التي سيتم بها ذلك. وهل يا ترى سيصار إلى إبطال السنن القانونية الخاصة بالتجارة الدولية؟ حتى هذه اللحظة أبدى خبراء التجارة شكوكا عميقة متباينة إزاء تجربة منظمة التجارة العالمية مع الأحكام القضائية الملزمة، وهناك قليل من الوضوح بشأن المدى الذي سيذهب إليه النظام من هذه النقطة. في مستهل نشوء منظمة التجارة العالمية في عام 1995، نظر إلى الأحكام التي وضعتها بخصوص تسوية النزاعات القانونية على أنها قمة الإبداع وجوهرة التاج في النظام الخاص بها. غير أنه في هذه الأيام يشتكي حتى بعض مؤسسي المنظمة الأصليين ومؤازريها من أن الأمر قد خرج عن السيطرة. كما أن المنتقدين يتهمون هيئة الاستئناف في منظمة

التجارة العالمية بعنف الأحكام القضائية بصورة غير مناسبة، بما يشبه إلى حد كبير ما صدر عن المحلفين الأمريكيين من توبيخ للمحكمة العليا في الولايات المتحدة في الستينيات والسبعينيات. وفي الوقت نفسه تشتكي البلدان النامية من أن الدول ليست سواسية من حيث قدرتها على استخدام قوانين منظمة التجارة العالمية للارتقاء بمصالحها الخاصة. وتجادل تلك البلدان بأن تسوية النزاعات القضائية تعتمد على مهارات وموارد وحتى اتجاهات ثقافية مختلفة أكثر مما تعتمد عليه الدبلوماسية مما يلحق الغبن ببعض الأمم.

إن إجراء تقييم دقيق للسجل القضائي لمنظمة التجارة العالمية يظهر بأن النظام قد قلص بالفعل دور الدبلوماسية الدولية وعمل بالمقابل على تعزيز حكم القانون. وفي الوقت نفسه يتعين القيام بتنفيذ عدد من الإجراءات المبينة أدناه لإضفاء مزيد من القوة على حكم القانون، بينما تقوم تلك الإجراءات كذلك بتوفير دوافع لتسوية النزاعات التجارية وإيجاد حلول لها من خلال التفاوض بشأنها - وهذا النهج يكون أكثر حكمة عندما لا يكون هناك اتفاق بخصوص القوانين - وتشكل الخلافات السياسية والثقافية جزءا كبيرا من المشكلة.

عن السجل

عندما أسست منظمة التجارة العالمية في منتصف التسعينيات في نهاية جولة المفاوضات التي جرت في أورغواي، والتي دارت حول شؤون التجارة العالمية، نظرا إلى ما تضمنته هذه المنظمة من نظام جديد ومطور لتسوية النزاعات على أنه إنجاز بارز ورائع بحق. ففي النظام التجاري العالمي السابق المعروف باسم اتفاقية التعرفة والتجارة General Agreement on Tariff & Trade، والتي يطلق عليها اختصارا اتفاقية الغات (GATT)، كان سريان القرارات المتعلقة بتسوية النزاعات مشروطا بالقبول الطوعي للبلدان المعنية بالنزاع بالسلطة القضائية لهيئة التحكيم وكذلك بالأحكام النهائية التي ستصدر عنها. وكان الحصول على مثل تلك الأحكام يستغرق أعواما طويلة في كثير من الأحيان، فضلا عن أن الطرف المدعى عليه كان بإمكانه أن يعيق عملية إصدار الحكم.

أما في النظام الذي تباهي به منظمة التجارة العالمية، لم يعد بمقدور أي من أطراف النزاع أن يعيق عملية التسوية عند أي مرحلة. كما أنه يتعين على أعضاء هيئة المحلفين أن يصدروا قراراتهم ضمن إطارات زمنية محدودة. وإضافة إلى ذلك فقد شكلت هيئة استئنافية لمراجعة القرارات المبدئية التي تصدرها هيئات التحكيم وتكون الأحكام الصادرة عن هذه المحكمة العليا نهائية وملزمة بصورة تلقائية لكافة الأطراف المعنية.

إن إنشاء هيئة الاستئناف Appellate Body يعتبر من أبرز السمات التي تميز

النظام الجديد لمنظمة التجارة العالمية، وأكثر ما يميز هيئة الاستئناف هذه هو استقلالية القضاة الذين تتألف منهم هذه الهيئة. ولا يتصرف هؤلاء القضاة كمدافعين عن المصالح القومية لبلدانهم، بل إنهم في الواقع، قد أظهروا مستويات من النزاهة والاستقلالية تضاهي وتصارع تلك التي تباهي بها أرقى أنظمة المحاكم المحلية.

ونتيجة لهذا أصبحت النزاعات التجارية الدولية تسوّى الآن من قبل منظمة التجارة العالمية وإلى حد بعيد على أساس حكم القانون وليس من خلال اللجوء إلى سياسة القوة المحضة. وفي ظل هذا النظام يمنح كل بلد عضو حقوقا متساوية وتفرض عليه كذلك التزامات متساوية من حيث قبول النتائج. وعلى الرغم من أن البلدان النامية لم تجن بعد ثمار هذا النظام على الوجه الأكمل، إلا أن استخدام آلية تسوية النزاعات لأمر مهم بالنسبة للمشاركة الكاملة في منظمة التجارة العالمية. وفضلا عن ذلك زادت الأحكام الملزمة من حتمية الانصياع إلى الاتفاقيات التجارية وتنفيذها بمجرد التفاوض بشأنها.

وفي واقع الأمر، وفي معظم الحالات التي شهدتها السنوات السبع الأخيرة حيث يفوز البلد المشتكي في النزاع الذي تتولى تسويته منظمة التجارة العالمية، يقوم البلد الخاسر (أي الطرف الآخر في النزاع) بإزالة أو مراجعة العوائق التجارية مثار الشكوى، وهذا السجل الإيجابي قد يكون مستغربا من قبل بعض المراقبين حيث إن القضايا التي حظيت باهتمام معظم وسائل الإعلام هي تلك الحالات القليلة الصعبة التي كان فيها الطرف الخاسر غير قادر على أو غير راغب في الامتثال للأحكام الصادرة.

ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا السجل الإيجابي إلى حد كبير إلا أن أسلوب تسوية النزاعات الذي تتبعه منظمة التجارة العالمية لاقى نقدا حادا. وبعض تلك الانتقادات كانت قائمة على أسس واهية ونابعة من مآرب ذاتية ومصالح شخصية فيما يتعلق بأمر أو نتيجة ما. ومن جهة أخرى فإن مناقشات جديدة قد أظهرت أن هناك حقيقة تصاحب نظام منظمة التجارة العالمية، وتسلط الضوء على الحاجة إلى إدخال تحسينات على هذا النظام.

هل هي التي تضع القوانين؟

إن أكثر الانتقادات التي وجهت إلى هيئة الاستئناف التابعة لمنظمة التجارة العالمية هذه وأوسعها انتشارا هي تلك التي تتهمها بعنف أحكامها القضائية. ومن بواعث السخرية أن هذا الاتهام قد صدر عن معسكرين معروفين بعدائهما وهما: معسكر المناوئين للعولمة، ومعسكر التجار المستقلين. وقد وجد كل منهما أدلة على وجود عنف قضائي في الأحكام التي لا يتفق معها. ولكن عند النظر بذهن متفتح إلى السجل يرى المتمعن أن هيئة الاستئناف قد تصرفت في معظم الحالات

بطرق تنم عن احترامها لسيادة الدول المعنية بأحكامها، وتقيدا بنصوص القانون.

ولنأخذ مثلا قضية هرمونات العجول، والتي تعتبر مرتعا خصبا للنقد من جانب حركة المناوئين للعولمة، ففي ذلك النزاع أيدت هيئة الاستئناف الحكم الصادر عن هيئة محلفين ضد الحظر الذي فرضه الاتحاد الأوروبي على عجول مستوردة من كندا والولايات المتحدة كانت قد حقنت بهرمونات النمو. وهاجم الناشطون المناوئون للعولمة ذلك القرار على زعم أن الحظر كان استجابة لمشاعر القلق الحقيقي التي كانت تساور المستهلكين، وإنه لهذا السبب جرى تأييد ذلك الحظر، وكانت وجهة نظر المنادين بالحظر المذكور أنه في غياب دليل علمي قاطع على سلامة الهرمونات فإنه يتوجب على هيئة الاستئناف أن تنصاع لرغبة مواطني الاتحاد الأوروبي.

غير أن محامي الاتحاد الأوروبي المستقلين رفضوا أن يستشهدوا بقانون منظمة التجارة العالمية الذي يسمح بإجراءات وقائية مؤقتة (بما في ذلك حظر الاستيراد) في الأمور التي يتطلب فيها إبراز دليل علمي مؤكد على وجود حظر ما. ولم يكن أمام هيئة الاستئناف - والحال كذلك - من خيار سوى إلغاء القيود التي فرضتها بروكسل حيث إنه لم يكن لدى الهيئة المسوّغ العلمي الذي تتطلبه قوانين منظمة التجارة العالمية. ولكن - وبعيدا عن وصف تلك الحالة بأنها مثال على العنف القضائي (كما يزعم المنتقدون) - عكس ذلك الحكم الذي أصدرته الهيئة احتراما فعليا للسيادة الأوروبية، كما أكد أن المطالبة بدليل علمي يمكن أن تتسم بالمرونة.

وفي تلك الأثناء وجه عدد من التجار غير الخاضعين لقيود حكومية اهتمامهم نحو حكم مختلف في قضية تعرف بالربيان والسلاحف البحرية Shrimpm-Turle. وفي تلك القضية كانت الولايات المتحدة قد فرضت حظرا على استيراد الربيان من البلدان التي لا تلزم صياديها استخدام تقنيات صيد تحافظ على سلامة السلاحف البحرية المهددة بالخطر. ووجدت هيئة الاستئناف أن ذلك الحظر قد يكون له ما يبرره، بموجب أحكام اتفاقية منظمة التجارة العالمية المتعلقة بالبيئة - باستثناء أنه قد طبق في هذه الحالة بصورة تمييزية Discriminatory. ونتيجة لذلك أجرت الولايات المتحدة فيما بعد تغييرات بهدف معالجة بواعث القلق هذه ووافقت هيئة التحكيم في منظمة التجارة العالمية على هذه الإجراءات في وقت لاحق.

وحمل النقاد على هذا الحكم متهمين إياه بأنه يعتبر كما هو الحال في قضية هرمونات العجول مثالا على عنف الأحكام القضائية معللين اتهامهم هذا - بصورة جزئية - بأن ذلك الحكم لم يكن متسقا مع قرار سابق لاتفاقية الغات (GATT) يشجب فرض حظر على استيراد سمك التونة Tuna من بلدان لا تقوم بحماية الدلافين Dolphins. ومهما يكن

من أمر فإن الشكوى الصادرة عن أولئك النقاد تعكس اعتقادا مفاده أن منظمة التجارة العالمية يجب ألا تجيز أي إجراءات تجارية تهدف إلى معالجة المخاوف المتعلقة بالبيئة. ولكن المشكلة في وجهة النظر هذه أن اتفاقية منظمة التجارة العالمية لا تمنع بالفعل الإجراءات التجارية الوقائية، طالما أن تلك الإجراءات لا تستخدم مجرد ذريعة لحماية المنتجات الوطنية أو لتمييز غير مبرر في المعاملة. وفضلا عن ذلك، لا توجد أي أحكام في القانون الدولي لمنع اللجوء إلى الضغوط الاقتصادية على البلدان الأخرى لغايات بيئية. وفي الواقع فإن مقدمة اتفاقية منظمة التجارة العالمية تشجع بالفعل الهدف القاضي بالسعي إلى تطوير مستمر. ومن هنا لم يكن الحكم الذي أصدرته هيئة الاستئناف بتلك الراديكالية، كما ورد في اتهامات النقاد إلى تلك الهيئة.

أما الموضوع الآخر الذي أثار اتهامات بعنف الأحكام القضائية فهو رغبة هيئة الاستئناف بقبول نصح ومشورة من أطراف غير حكومية. وتتلخص شكوى النقاد في هذا السياق في أن هيئة الاستئناف قد اتخذت هذا القرار على الرغم من أنها لا تملك تفويضا صريحا من منظمة التجارة العالمية للقيام بذلك. غير أن اتفاقية منظمة التجارة العالمية ليست صريحة كذلك بشأن حق الحكومات بتقديم تنازلات فيما يتعلق بالقضايا التي تخصها. ومن الواضح أن واضعي مسودة الاتفاقية قد تركوا حل بعض المسائل الإجرائية للقضاة وتقديراتهم الذاتية.

وأشار منتقدون آخرون إلى أن القرار القاضي بقبول مذكرات نصح ومشورة يعكس عداوة بعض البلدان المتقدمة تجاه مصالح الدول النامية وثقافتها المشروعة. ومع ذلك، فهذه النظرة يشوبها الخطأ. إن قضاة المحكمة الدولية الأمريكية لحقوق الإنسان - وجميعهم يأتون من بلدان نامية - يسمحون بمذكرات نصح وإرشاد في محاكمهم، كما تفعل هيئات تحكيمية دولية متنوعة أخرى مثل اللجنة الإفريقية لحقوق الإنسان، وهيئة التفتيش التابعة للبنك الدولي. كما وجهت أحيانا اعتراضات فحواها أن قبول مذكرات من جهات غير حكومية قد يمنح لهم حقوقا أكثر من الحكومات الأعضاء في منظمة التجارة العالمية، ممن ليسوا أطرافا في النزاع. ولكن هيئة الاستئناف أصدرت أخيرا حكما ينص على أنه يجوز لتلك الدول إضافة إلى الأشخاص العاديين والجماعات العادية، أن تقدم كذلك مذكرات نصح ومشورة.

المزيد من الأخبار الطيبة

إن ما ورد آنفا من حجج وأسباب مدعاة لفحص وتمحيص الانتقادات الجارفة الموجهة ضد منظمة التجارة العالمية.

وعلى كل حال، فإنه يمكن لهيئة الاستئناف أن تتعلم درسا من هذه الحملات الموجهة ضدها، وهو أن إجراء يتسم بالحذر القانوني أمر ضروري في جميع النزاعات الدولية. وهذا ينطبق بصورة خاصة على تلك

التي تعالج من قبل منظمة التجارة العالمية حيث تصبح الأحكام ملزمة بشكل تلقائي. وفضلا عن ذلك فإن المحاكم الدولية توفر مجالا بسيطا لإصلاح الخطأ. كما أن الأحكام الصادرة عن محاكم محلية بالنسبة لمعظم الأمور يمكن تصحيحها عن طريق هيئة تشريعية محلية. ولكن من الناحية العلمية من غير الممكن تصحيح قرارات هيئة الاستئناف التابعة لمنظمة التجارة العالمية إلا بقرار جماعي فقط يتخذ من قبل أعضاء المنظمة وعددهم 144 عضوا.

لهذا السبب وغيره من الأسباب وانسجاما مع مبادئ القانون الدولي التي يتعين على هيئة الاستئناف اتباعها، وتوخيا للحذر القضائي، يتعين على القضاة في الحالات التي يكون فيها نص اتفاقية ما محاطا باللبس والإبهام ويكون التاريخ التفاوضي غير موجود أو ليس بذي نفع، أن يختاروا أكثر التفاسير مراعاة لسيادة الدولة المعنية بالنزاع. وعلى وجه العموم اتبعت هيئة الاستئناف هذا النهج الحذر.

ومهما يكن من أمر، هناك استثناء وحيد، لقد كانت هيئة الاستئناف في الحالات التي اشتملت على قوانين تجارية محلية مثل القوانين الخاصة بمناهضة الإغراق السلعي، تبدي نزعة إلى التدخل في تفسير قوانين منظمة التجارة العالمية، ومثل ذلك النزوع يعتبر مثار قلق بصورة خاصة في مجال مناهضة الإغراق السلعي عند إخفاق القضاة في تطبيق معايير السيادة عند إعادة النظر (في نزاع ما)، والتي جرى التفاوض بشأنها في اتفاقية جولة أورغواي Uruguay Round ولم يظهر التجار غير الخاضعين لقيود حكومية اعتراضات على معظم هذه الأحكام لاعتقادهم بأن الإجراءات المحلية المعنية كثيرا ما اقتربت من كونها حماية إنتاجية. ولكن واقع الأمر هو أن الوسائل التجارية العلاجية تبقى مشروعة ومباحة في ظل قوانين منظمة التجارة العالمية، ويمكن أن تشكل صمامات أمان مهمة تعمل على التخفيف من الضغوط السياسية والاقتصادية، وهي ضغوط قد تهدد الالتزام الأساسي لأعضاء منظمة التجارة العالمية تجاه التجارة الحرة.

ويعود جزء من هذه المشكلة إلى أن هيئة الاستئناف كثيرا ما جعلت الأمور صعبة بالنسبة للوكالات المحلية إزاء تولي أمر الوسائل التجارية العلاجية بطرق سريعة ومجدية. ولم يكن بقصد أن يكون اتخاذ القرارات القومية بشأن الأمور التقنية والإجرائية منوطا فقط بهيئات منظمة التجارة العالمية، إذ سيكون لذلك في النهاية آثار غير منصفة للبلدان النامية التي تعوز الخبرة اللازمة لاستخدام الوسائل التجارية العلاجية ناهيك عن أن هذه البلدان لا تملك ما يكفي من الموارد للاستجابة لمتطلبات منظمة التجارة العالمية.

إن قوانين منظمة التجارة العالمية غالبا ما

تكون غير واضحة في ظاهرها، وهذا سبب آخر لهيئة الاستئناف لكي تمارس استخدام القيود. ومن هنا فإن تجميع وتصنيف تاريخ أكثر شمولية لمفاوضات منظمة التجارة العالمية قد يكون ذا نفع لهيئة الاستئناف كنبراس تهتدي به في معالجة النصوص المبهمة للمعاهدات.

وإضافة إلى ذلك هناك عدد من المشاكل المهمة الأخرى التي تتصل بنظام منظمة التجارة العالمية والتي تحتاج إلى معالجة من نوع ما، ويوحي التحليل الدقيق للسنوات السبع المنصرمة بأن عددا من التغييرات قد يعمل على حماية وكذلك على تعزيز الخاصية القضائية بشأن حل النزاعات من قبل منظمة التجارة العالمية، في الوقت نفسه الذي يجري فيه العمل على تحسين بدائل متزايدة للتقاضي، ومثل تلك البدائل أمر ضروري حيث إنه يوجد في كل نظام قضائي سواء أكان محليا أو دوليا قضايا لا يمكن حلها من خلال تطبيق القانون المكتوب فقط، فقد تظهر الوقائع أمورا جديدة أو قد تكون المسائل السياسية التي تثار شديدة الحساسية بحيث تتحرج الحكومات من طرحها أمام القضاة. وفي مثل هذه الحالات لا يكون اللجوء إلى تسوية المنازعات من خلال القضاء أمرا بناءً، كما أنه لن يساعد أطراف النزاع على تحقيق أهدافهم المرجوة.

ومن ناحية ثانية فإنه على الرغم من أن نظام منظمة التجارة العالمية يسهل أمر عرض نزاع ما للقضاء ويوفر له حكما قانونيا، إلا أنه - لسوء الحظ - لا يوفر طرقا منظمة للوصول إلى تسويات متفاوض حولها. إن بديلا كهذا ضروري إلى حد بعيد، وإن المفاوضات التي تدور الآن في منظمة التجارة العالمية توفر فرصة مثالية لإجراء مثل تلك التصحيحات.

إن قوانين منظمة التجارة العالمية الحالية تتطلب إجراء مشاورات قبل عرض الامر أمام القضاء، والغرض من هذا تشجيع التوصل إلى تسوية. وكثيرا ما أثبتت هذه المشاورات أنها عديمة الفاعلية. وكان من الممكن أن يكون للمفاوضات معنى أكبر لو أن أطراف النزاع حظوا بمساعدة من قبل جهة مستقلة ومدربة تسهل لهم عملية التفاوض، أو مبدأ التوسط بين أطراف النزاع فهو من بين الوسائل التي تستعين بها فعلا منظمة التجارة العالمية، ولكن هذا التوسط يكون فقط من خلال تدخل أمانة السر التابعة لها ولا يستخدم كعملية تسبق النظر في الخصومة تحت إشراف خبراء مدربين على اللجوء إلى حلول بديلة لتسوية النزاعات. ومن هذا المنطلق يتعين القيام بتعديل القوانين الحالية بحيث تنص على وجوب التوسط في نزاع ما قبل عرضه بصورة نهائية لإيجاد تسوية له. وفي حالة فشل المحادثات تبقى نتائج الوساطة قيد الكتمان ولا يجوز البوح بها لهيئة تسوية النزاعات التابعة لمنظمة التجارة العالمية. وإضافة إلى

ذلك يجب أن يكون للهيئة الصلاحية في أن تطالب بالعودة إلى الاستعانة بالوساطة في أي مرحلة من مراحل النزاع، شريطة ألا يؤدي هذا إلى إطالة أمد الإجراءات القضائية.

وعندما تصدر الهيئة قراراتها بشأن نزاع ما فإن تلك القرارات تتضمن عادة توصية مفادها أن تعمد الدولة الخاسرة إلى تغيير قوانينها مثار النزاع. وقد يكون للبلد الخاسر أسبابه المحلية المفهومة التي تمنعه مثلا من إحداث خطة تشريعية شاملة على المدى القصير أو المتوسط. ومن الملامح المميزة بنظام منظمة التجارة العالمية أنه في حالة إخفاق الطرف الخاسر في الامتثال للحكم الصادر بحقه، يجوز لهيئة تحكيمية أن تمنح الطرف الفائز الحق في إجراءات انتقامية من خلال فرض قيود تجارية.

غير أن معالجة عدم الامتثال باللجوء إلى إجراءات انتقامية قد يكون له آثار غير فعالة وغير منصفة أيضا. فقد لا تكون تلك القيود التجارية غير كافية لحث بلدان قوية كالولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي على السير في الركب. ومن ناحية ثانية فقد يكون لتلك العقوبات آثار جائرة ومدمرة على البلدان الصغيرة أو الفقيرة كما أن للإجراءات الانتقامية آثارا عكسية من حيث إنها تعمل على خلق مزيد من العقبات أمام التجارة من خلال إعادة فرض عوائق على الواردات مما قد يهدد جديا مصالح الطرف الفائز في النزاع. ولنتأمل الحكم القاضي بأن تدفع الولايات المتحدة غرامة قدرها 4 مليارات دولار، ولنتمعن لو أن الاتحاد الأوروبي قد فرض كامل العقوبات (المخول بفرضها)، سنرى عندئذ أنه لن يتمكن بسهولة من أن يتفادى إلحاق الضرر بصناعاته التي لها روابط عديدة مع الولايات المتحدة، وقد يضطر لاستيراد المنتجات الأمريكية نفسها التي كانت ستفرض بشأنها العقوبات.

ولا بد من أن يكون هناك بدائل للإجراءات الانتقامية في الحالات التي لا يمتثل فيها الطرف الخاسر للحكم الصادر عن هيئة التحكيم وفي نزاع قريب بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة حول حقوق الملكية الموسيقية، استخدمت المبالغ النقدية كوسيلة لحل النزاع. وهذه السابقة جديرة بأن تعمم من خلال تعديل صريح لاتفاقية منظمة التجارة العالمية للسماح للفائز بالنزاع بطلب تعويضات نقدية، أو تنازلات تجارية متزايدة من الطرف الخاسر كبديل للإجراءات الانتقامية. وعلى الرغم من أن حق اتخاذ إجراءات انتقامية يجب أن يبقى متاحا كحل أخير، إلا أنه حري بالطرف الفائز أن يتحلى بالمرونة اللازمة لطلب عقوبات بديلة أقل صرامة.

وفي الوقت ذاته، ومع أن بعض البلدان النامية - مثل الهند والبرازيل - تمتلك القدرة على المشاركة الكاملة في إجراءات

تسوية النزاعات التي تتبناها منظمة التجارة العالمية، إلا أن بلدانا أخرى عديدة تعوزها الوسيلة إلى ذلك. والواقع أن المركز الاستشاري القانوني التابع لمنظمة التجارة العالمية معني بمعالجة هذه المشكلة - ولكنه لا يقوم في المساعدة بما يملكه من عدد قليل من المحامين حديثي الخبرة إلا النزر اليسير، ومن هنا كان لزاما الاستعانة بإجراءات إضافية، ومن هذه الإجراءات تطبيق قوانين النفقات - أي الطلب من الدولة المتقدمة التي تخسر قضية ضد دولة أقل تقدما أن تدفع على الأقل جزءا من النفقات القانونية المترتبة على الدولة الفائزة.

ومع أن تقديم عون قانوني للدول النامية الفقيرة يعتبر أمرا مهما، إلا أنه لا يعتبر حلا طويل الأمد نظرا لاختلال التوازن في القوى والموارد، ولهذا السبب يجب على الدول النامية أن تولي اهتماما أكبر بحصول المعنيين فيها على تربية قانونية وتدريب أشمل بالنسبة لنظام وقوانين منظمة التجارة العالمية، ويتم هذا بمشاركة الجامعات والوكالات المتخصصة في تقديم العون. وحاليا، وعلى الرغم من الكلام البليغ حول الحاجة إلى بقاء القدرات، إلا أن الدعم الحقيقي لهذه الجهود لا يزال قليلا، فمثلا: يمكن لمعهد التجارة العالمي في سويسرا والذي يمنح درجة متقدمة في قوانين واقتصاديات منظمة التجارة العالمية أن يخسر عددا من المتقدمين للالتحاق بالدراسة فيه لأنه غير قادر على توفير منح دراسية.

كذلك فإن نظام التحكيم الخاص بمنظمة التجارة العالمية بحاجة إلى أن يحسن من شفافيته ومن أساليبه الإجرائية، حيث إن أحكام قضاة منظمة التجارة العالمية تؤثر في المصالح العامة بكل ما في الكلمة من معنى كما هو واضح بشكل خاص في الحالات التي تتعلق بالصحة والبيئة. ومع ذلك فإن إبقاء جلسات محكمة منظمة التجارة العالمية والرفوعات فيها سرية تمثل صورة غير مقبولة لما عليه الحال في دبلوماسية السنين الماضية. وفي واقع الأمر فإن السرية التي تحيط بالمرافعات وبالاستئنافات تقوض منطقية منظمة التجارة العالمية وتثير شكوكا لا مبرر لها. وفضلا عن ذلك لا يعتبر مثل ذلك التكتم ضروريا حيث إنه لا يوجد هناك من سبب وجيه يحتم ضرورة حجب ما يجري في جلسات المحكمة عن العامة. ومن جهة أخرى، فإن المعلومات التي تتاح للعامة ستكون أقوى أثرا من خلال إعادة تأكيد قرار هيئة الاستئناف القاضي بالسماح بتقديم مذكرات نصح ومشورة.

كما أن الكيفية التي يتم من خلالها اختيار أعضاء هيئة التحليف في منظمة التجارة العالمية بحاجة إلى تعديل، ففي الوقت الحاضر لا يتم الاختيار في معظم الأحوال على أساس ما يتمتع به المحلفون من خبرة ودراية في القانون التجاري. واستنادا إلى هذا المنطلق، يتعين على منظمة التجارة

العالمية أن تسعى إلى الاستعانة بهيئة قضائية محترفة، كما اقترحت اللجنة الأوروبية European Commission. وإن استخدام هيئة محلفين متفرغة من الخبراء القانونيين مقابل مكافآت مناسبة سيرتقي بنوعية القرارات التي تصدر عن مثل أولئك المحلفين ويقلل من ميل هيئة الاستئناف إلى القيام بمراجعات مستفيضة لتلك القرارات، ناهيك عن الاعتماد على هيئة محترفة من المحلفين قد يعمل على الحيلولة دون إصدار أحكام لا تأبه بالقانون الدولي أو بالإفادة من أحكام سابقة صادرة عن منظمة التجارة العالمية.

وأخيرا وعلى الرغم من أن قضاة منظمة التجارة العالمية يضعون جل اهتمامهم في معظم القضايا في الصياغة البليغة للاتفاقيات عند تفسير القانون - وهو ما ينبغي عليهم أن يفعلوه - وفي قراءة الاتفاقيات كجزء من القانون الدولي ككل، فإنه مازالت هناك مواقف معينة تنشأ عندما يصدر هؤلاء القضاة قراراتهم بشأن أحكام يشوبها اللبس والإبهام، حيث إن مثل تلك القرارات قد يكون لها آثار تفوق الإجماع المحدود الذي حظيت به الاتفاقية الأصلية. وبعض أحكام منظمة التجارة العالمية التي تعالج أمورا دقيقة مثلا: الأحكام المتعلقة بإغراق السوق بالسلع وبالإعانات المالية، تمثل تسويات دارت بصددها مساومات شاقة ومضنية وتم تمحيصها من قبل مشرّعين محليين. ويسمح القانون الدولي العام للقضاة بفحص تاريخ الاتفاقات المعنية عندما لا يكون بالإمكان إماطة الغموض. ولكنّ تفسير تلك الوثائق بشكل صحيح يحتاج إلى سجل عام مفصل لعملية المفاوضات، ومع ذلك فإنه خلال الجولة الأخيرة من مفاوضات منظمة التجارة العالمية لم يكن محتفظا بمثل ذلك السجل المفصل. وإن هذا الإغفال يجب أن يصحح حتى لا تحرم هيئات المحلفين مستقبلا من الإفادة من هذا العون التفسيري الجوهري.

دور نموذجي... قانون نموذجي

لقد أثبتت تسوية المنازعات القضائية التي تمت من خلال منظمة التجارة العالمية (التي مضى عليها الآن أكثر من سبع سنوات) نجاحها على وجه الإجمال، بصرف النظر عن اعتراضات النقاد على نظام التسويات هذا. وإن عدد القضايا التي أوكلت إلى هيئات محلفي منظمة التجارة العالمية لخير دليل على مدى الثقة التي توليها الدول الأعضاء الآن في هذا النظام. كما أن التجربة قد علمت العالم الكثير عن التحديات التي يتضمنها إدخال نظام قضائي إلى منظمة دولية.

وفي ضوء حقيقة أن المحاكم الدولية الأخرى تتحرك باتجاه مماثل، يتعين على تلك المحاكم أن تستخلص الدروس من خبرة وتجربة منظمة التجارة العالمية. فأولا: أظهرت الهيئات التابعة لمنظمة التجارة العالمية أنه يمكن لهيئات التحكيم الدولية أن

تعمل باستقلالية بوجود قضاة يستندون في أحكامهم إلى التفسير النزيه للقانون، وليس إلى دافع الانتماء القومي. وثانيا: أظهرت منظمة التجارة العالمية أنه عندما تؤثر الأحكام بصورة مباشرة في مصالح المواطنين فإن شرعية تلك الأحكام والنظام القضائي ككل تعتمد على شفافية العملية القضائية، فلم يعد هناك من مكان للسرية وعزل العامة عما يجري. وثالثا: تظهر تجربة منظمة التجارة العالمية أنه ما إن يصار إلى استحداث نظام قضائي دولي مستند إلى سلطات إلزامية، فإنه على الأرجح سيستخدم بصورة مستفيضة. وكما بين الحكم القاضي بفرض غرامة قدرها 4 مليارات دولار في القضية الضريبية التي كان طرفاها الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة فإن المخاطر في قضايا كهذه يمكن أن تكون عالية جدا بالفعل. ومن هنا فإن تأمين موارد كافية ومنافذ وصول عادلة ومعاملة منصفة للقضايا ذات الحساسية السياسية يعتبر أمرا ضروريا ويجب النظر فيه مليا منذ البداية. ويحبذ أن يكون ذلك عند تعيين هيئة التحكيم وتحديد الإجراءات المتصلة بها. وبالطبع فإنه ما من نظام قضائي مهما بلغ من حسن التنظيم، يمكنه أن يحل محل الدبلوماسية، وليس له أن يفعل ذلك. إن على الدول أن تتجنب الذهاب إلى المحاكم في المسائل التي يمكن للقنوات السياسية أو الدبلوماسية أن تقدم له حلولا أفضل وأكثر إنصافا.

ومن هنا يجدر بمنظمة التجارة العالمية أن تتدبر الكيفية التي تقوم من خلالها بتحسين آليات التفاوض الخاصة بها بشأن الحلول المتفاوض حولها، وألا تلجأ بصورة تلقائية إلى قضاتها.



كارل غوستاف يونغ..
رائد علم النفس التحليلي

بقلم: جيل مارشان

ترجمة: فوزي بوخريص

مراجعة: بوبكر مارو

العنوان الأصلي للمقال: **Carle Gustav Jung (1875 - 1961) le fils rebelle de freud**
ونشر في مجلة **sciences humaines** عدد **132** نوفمبر **2002**.

يمكن «اعتبار أعمالي كمحطات في حياتي، فهي تعكس نموي الداخلي، لأن الانشغال باللاشعور يساهم في تشكل الإنسان وفي تحديد تطوره وتحوله. فحياتي هي عملي، وعملي المكرس للنفس هو حياتي. لا يمكن فصل الواحد منهما عن الآخر»(1). هكذا عبر كارل غوستاف يونج (1875 - 1961) في سيرته الذاتية، التي شرع في كتابتها سنة 1957، قبل أربع سنوات من وفاته. في هذا الكتاب يحكي أب السيكولوجيا التحليلية عن ذاته.

(1) ك. غ يونج «حياتي: ذكريات، أحلام وأفكار»، غاليمار 1973.

المشروع الفكري

ويمكننا أن نرى إلى أي حد تظل الحدود بين الحياة الخاصة والحياة المهنية، قائمة في حالته. كانت ليونج، باعتباره ابنا وحفيد رجل دين، طفولة مطبوعة بالمناقشات الثيولوجية (علم اللاهوت) حول واقع الأديان، والتي مثل العديد من أسفاره (إلى إفريقيا الشمالية، عند هنود البويبلوس، في كينيا وأوغندا، ثم في الهند) ستؤثر لاحقا على أعماله. انخرط يونج طوال شبابه، وبشكل نشيط في جلسات استحضار الأرواح، التي كانت تنظمها إحدى بنات عمه، اشتهرت كوسيط (أي صلة وصل بين البشر والأرواح). وقد تمحورت أطروحة يونج في الطب النفسي حول «علم النفس المرضي الخاص بالظواهر التي نعتبرها سرية» (1901). ويتميز يونج بكونه مفتونا بالاستشراق والميثولوجيا، والأيقونات الكيميائية القديمة - التي تفرغ لها في نهاية حياته - كما أنه معجب كثيرا بنيتشه وبفاوست لغوته (حيث إن هناك أسطورة عائلية، كانت تتطلع إلى أن يكون يونج خلفا طبيعيا له). سيهتم يونج بخبايا الحياة النفسية، بحكم امتلاكه ثقافة متنوعة. هذه الأخيرة تمثل حجر الأساس الفعلي لتفكيره النظري ولممارسته الطبية العلاجية، والتي ابتدأت سنة 1900، عندما عين مساعدا لأوجين بلولير Eugen Bleuler في بورغوزلي Burgholzli العيادة الشهيرة في الطب النفسي في زيورخ. وسيهتم كلاهما ابتداء من سنة 1907 بـ «الاختلالات العقلية المبكرة» أو الشيزوفرينيا (مرض الفصام)، حيث نظرا إليها من زاوية سيكودينامية. وسيصبح يونج بذلك رائد استعمال منهج التحليل النفسي في معالجة الأمراض الذهانية. وقد ابتكر رفقة بلولير تجارب التداعي الحر، التي تستعمل في زمن الانعكاس اللاإرادي، وفي تأويل إجابات المرضى بالنسبة لكل كلمة معطاة من طرف المعالج. وتوصل يونج إلى أن هذا المنهج يتيح الكشف عما أسماه بالعقد، يعني مجموع الصور والانفعالات القوية المرتبطة فيما بينها والمتمحورة حول ذكرى معينة أو حدث بارز.

الأرض الموعودة

التقى يونج بفرويد بعد أعماله السابقة، وعلى إثر ظهور كتابه «سيكولوجيا الاختلال العقلي المبكر» (1906). لقاؤهما الأول دام عشر ساعات، بعدها جرى تبادل للرسائل بينهما، سمح بتبادلات مهمة ومثيرة، فنشأت بينهما صداقة حقيقية واحترام عميق ومتبادل. في سنة 1909 كتب إليه فرويد ما يلي: «إذا كنت أنا مثل موسى، ستصيرون أنتم مثل يوشع، انعموا بأرض الطب النفسي

الموعودة، تلك التي لا يمكنني إلا أن ألمحها من بعيد».

يونج إذن هو «الابن البكر» المنذور كوريث للوعد الفرويدي. لأنه إضافة إلى المؤهلات المؤكدة التي يتميز بها، سواء كمنظر أو طبيب عيادة، والتي يقر بها فرويد نفسه. فإنهما معا لهما الهدف نفسه وهو المتمثل في الدفاع عن قضية التحليل النفسي، في القارة العجوز ثم في الولايات المتحدة الأمريكية. اختيار فرويد ليونج كولي عهده ووريث عرشه يجد مبرره في الأصول المسيحية ليونج. إذ يخشى فرويد أن يظل ينظر إلى التحليل النفسي، وأن يختزل في جوهره، كتخصص معرفي يهودي بامتياز.

في أبريل 1908، نظم يونج المؤتمر الدولي/ العالمي للتحليل النفسي، والذي قدمه باعتباره المؤتمر الأول لعلم النفس الفرويدي، وفيه انتخب كرئيس للجمعية العالمية للتحليل النفسي ورئيس تحرير jahrbuch اللسان الرسمي للحركة. غير أن هذه اللوحة المثالية تبقى قاتمة مع ذلك بفعل عدد من الاختلافات المفاهيمية بين الرجلين. من بين الاختلافات العميقة، ذلك الاختلاف المتعلق بالشهوانية يرفض يونج التصور الفرويدي القائل بالأساس الجنسي الصرف للطاقة النفسية، ويتصور الليبيدو (الشهوانية) مثل طاقة حيوية أكثر اتساعا بحيث تشمل أيضا الغرائز كالجوع أو الحاجة إلى الثقافة. (القطيعة بين الأستاذ والمريد أضحت نهائية سنة 1913). يونج، ومثلما يحدث خلال كل أزمة من الأزمات الشديدة التي تعصف بحياته، يدخل في مرحلة استبطان. إعادة التساؤل حول الذات تتمظهر هذه المرة من خلال التحليل الذاتي، الذي يستمر إلى غاية سنة 1918 والذي يصفه مثل «مواجهة مع اللاشعور». إن اكتشافات يونج الأساسية تعود إلى هذا النضج المتمهل. نشر كتابه الأول المهم في مرحلة ما بعد - فرويد: «نماذج سيكولوجية» سنة 1921. وفيه يعرف يونج نماذج نفسية، ومفاهيم منتشرة بكثرة لكن يساء استعمالها: حالات الانطواء الذاتي والانفتاح الخارجي. التوجه الانطوائي يميز الأفراد الموجهين بوساطة عوامل ذاتية، في حين أن الشخصيات المنفتحة تفسح مساحة كبيرة للعالم الخارجي. وقد ثار يونج ضد تأويلات بعض المحللين النفسانيين - لا سيما الأمريكيون منهم - لهذا المفهوم من خلال الاعتبار بأن العالم مقسم إلى فئتين من الناس، الانطوائيين كلية ضد المنفتحين كلية بالنسبة ليونج «لا يوجد انطوائي خالص أو منفتح خالص. إنسان كهذا يمكن أن يوجد في مستشفى للمجانين. إنها مصطلحات تشير فقط إلى نوع من الاستعداد، إلى نوع من الميول (...)

ومثل كل تصنيف، يتعلق الأمر فقط بنقطة ارتكاز من أجل التوجيه. لا يتعلق الأمر بتصنيف نسقي» (2). يعرف يونج أيضا الوظائف الأربع لتوجه الشعور: الحس، الفكر، العاطفة/الوجدان، والحدس. هكذا «تتعدد وتتنوع أشكال رؤية العالم تبعا لاختلاف التوجهات».

هناك إذن حدوس انطوائية كما أن هناك إحساسات منفتحة. يمكن للميول والوظائف أن تتطور، وأن تنعكس، على مر التحولات والأوقات الحرجة التي تمر منها حياة ما. وهناك مفهومان مهمان، مترابطان فيما بينهما بقوة، هما مفهوما الشخصية والظل. مصطلح الشخصية ينحدر من المسرح القديم، ويشير إلى ذلك القناع الذي يحمله الممثلون. بالنسبة ليونج يتعلق الأمر بـ «مفهوم عملي نحن في حاجة إليه من أجل الكشف عن حقيقة العلاقات بين البشر».

وباعتبارها قناعا، فإن الشخصية لا تتناسب مع حقيقة شخصية ما، كما هي في الواقع، وإنما تتناسب فقط مع ما تعتقد هذه الأخيرة أنه يمثل حقيقتها وما يعتقده أيضا الآخرون من الناس. الشخصية «نظام معقد، هو في جانب منه مملى من طرف المجتمع، وفي جانب آخر مملى من طرف الرغبات، أو من انتظارات الفرد إزاء ذاته». وهي تأخذ أشكالا متنوعة تبعا لتنوع الوظيفة التي يزاولها الفرد أو لتنوع السياق الاجتماعي. إن ظهر الشخصية، هو الظل، وهو يسمى الجزء الخفي من الشخصية. إنه يحوي، على مستوى اللاشعور، مجموع العناصر النفسية، الشخصية والجماعية، التي لم تعش بسبب عدم التلاؤم مع نمط الحياة المختارة شعوريا. وبذلك فالظل يضم شخصية مستقلة، بحيث إن ميولاتها تتعارض مع الشعور. ظل يونج يظهر له على مستوى الحلم في صورة مراهق مجهول له بشرة داكنة، وله ميولات وحشية وقاتلة، بعيد جدا عن شخصيته الحقيقية. هذان التصوران، مثل ذلك المرتبط بالنماذج النفسية، هما من بين إسهامات يونج الأكثر شهرة. لكن أصالته الحقيقية، أو جوهر مشروعه، يتعلق بمقاربته حول اللاشعور. فاللاشعور اليونجي (نسبة إلى يونج) يضم بعدا للنمو والتطور، إضافة إلى بحث عن المعنى. إنه، إذا صح القول، نوع من «الذكاء»، في بحث متواصل عن التطور، وهو بذلك يتميز جذريا عن اللاشعور الفرويدي، الذي ينظر إليه كسلطة وكبت.

---

(2) ر. إيفانز «حوارات مع كارل غوستاف يونج»، بايو 1970.

اللاشعور الشخصي والجمعي

ومن الإسهامات الكبرى ليونج، تحديده لمفهوم اللاشعور، حيث يرى أنه هو نفسه مقسم إلى منطقتين: اللاشعور الشخصي، القريب من التصور الفرويدي، والذي يضم الجزء المكبوت والمنسي من المعيش لكل كائن بشري. ويتشكل إذن في ارتباط مع التاريخ الفردي. واللاشعور الجمعي «أسميه جمعيا لأنه، على عكس اللاشعور الشخصي، ليس نتيجة لمضامين فردية، ذات صورة وحيدة تقريبا، وغير قابلة لإعادة الإنتاج، ولكن نتيجة مضامين كونية ومنتظمة الظهور» (3). هذه الطبقة العميقة جدا من اللاشعور هي مشتركة بين الجميع، كما لو أنها تمثل إرث تطور الجنس البشري. وتتشكل بنية اللاشعور الجمعي من الغرائز والنماذج المثالية، والتي هي صور دينامية، أي هي نوع من القوالب الثابتة والفطرية والتي تتمظهر في شكل رموز وأساطير. من بين النماذج المثالية التي تحظى باهتمام زائد، يمكن ذكر «الجدة» grande mère، مانحة الحياة، المسلية ولكن أيضا المفترسة، أو «الشيخ الحكيم» الذي له معرفة عميقة وفلسفة في الحياة. ويتصور يونج النماذج المثالية كمحددات رئيسية للتطور البشري، والتي باعتبارها شكلا متقدما من الغرائز، تؤلف نموذجا من «التنظيم البيولوجي لاشتغالنا النفسي، تماما مثلما أن وظائفنا البيولوجية والفيزيولوجية تتبع نموذجا معينا» (4). ولا تصل النماذج المثالية هي ذاتها مباشرة إلى اللاشعور، ولكن تتمظهر أساسا عن طريق الأحلام أو السلوك.

لكن كيف توصل يونج إلى افتراض وجود النماذج المثالية؟ توصل إليه من خلال دراسة أساطير عدد من الحضارات. لقد تبين له أن «حكايات الأدب العالمي تنطوي على تيمات محددة بدقة، تعود إلى الظهور باستمرار وفي كل مكان. إننا نصادف هذه التيمات ذاتها في تخيلاتنا، أحلامنا وأفكار الهذيان وفي أوهام الأفراد الذين هم على قيد الحياة، اليوم» (5).

يصر يونج على التأكيد أن النماذج المثالية ليست سوى عناصر صورية، فارغة كـ «صورة أولية لا تأخذ مضموناً محددا إلا انطلاقا من اللحظة التي تصبح فيها شعورية وتبعا لذلك ممتلئة بمواد التجربة الشعورية» (6). من النماذج المثالية الرئيسية نجد اثنين هما: الأنيما anima وتعني تمثيل الطبيعة الأنثوية للاشعور الرجل، والأنيموس animus نظيرها الذكوري على مستوى لاشعور المرأة. الأنيما

---

(3) ك. غ. يونج «الطاقة السيكولوجية» مكتبة الجامعة 1956

(4) ر. إيفانز، مرجع سابق.

(5) ك. غ. يونج «مظاهر المأساة المعاصرة»، بوشي - شاتيل 1948.

(6) ك. غ. يونج «جذور الشعور»، بوشي - شاتيل 1971

هي «صورة نموذجية مثالية تعبر عن حقيقة أن الرجل يمتلك قدرا صغيرا من الجينات الأنثوية. وهي ليست أشياء يمكن أن تظهر أو تختفي لديه. وإنما هي حاضرة لديه، على الدوام» (7). يعطي يونج مثالا عن أحد المرضى «قادر كليا على إدراك حقيقة أن «المرأة التي من اختياره» لم يتم اختيارها أبدا (...) كل ذلك يحدث بسبب النموذج المثالي للأنيما، هذا في حين أنه كان يعتقد أن الأمر يتعلق بكل كينونته».

على الرغم من أن يونج يفسح مساحة كبيرة في مشروعه الفكري لمفهوم اللاشعور، الشخصي والجمعي، فإنه اهتم أيضا بالشعور، الذي يسميه: الأنا. كل هذه الرغبات الجسدية الملحة ليست سوى أجزاء من كل، هو: الهو. ويمثل الهو في ذاته الشخصية الإجمالية لكل كائن بشري، ويظل يشكل هدف التطور النفسي. إنه مرتبط بنموذج مثالي، «الماندالا» la mandala، الذي يتخذ عادة في الشرق شكل دائرة يتوسطها مربع، أو شكل مربع تتوسطه دائرة. «إنه النموذج المثالي للنظام الداخلي، وهو دائما مسخر في هذا الاتجاه، سواء للدلالة على تنظيم مختلف مظاهر الكون - بمعنى خطاطة كونية - وسواء لتنظيم مختلف مظاهر الحياة النفسية (...) إنه رمز الكلية». سيصير هدف الحياة النفسية إذن هو بلوغ هذه الكلية، أي تحقيق ذاتها. ولبلوغ ذلك، يتبع الفرد سيرورة التشخصية أو التفردية (أي ما يميز فردا عن سواه)، التي تقوده نحو وحدة شخصيته عبر سلسلة من التحولات والتغيرات. عبر هذه السيرورة «يصبح الكائن «شخصا» in-dividu سيكولوجيا، يعني وحدة مستقلة وغير قابل للقسمة، أي كلية» (8).

هكذا شكل يونج رؤية مبتكرة ومعقدة للحياة النفسية. عمل طوال حياته من أجل فهم الفرد من خلال البحث عن كلية بشرية. لكن، إذا كان قد وضع المعالم، التي يجتهد عدد من مريديه من أجل تعميقها في كثير من البلدان (اليونجية هي من حيث المبدأ متجذرة في العالم الإنجلو-ساكسوني، وفي إيطاليا والبرازيل) فإنه يعترف مع ذلك بأنه «لا يمكن وصف الشخصية البشرية في كليتها. ما هو شعوري يمكن وصفه، ولكن الأمر لا ينطبق على اللاشعور، لأنه، اكرر القول، دائما لاشعوري، وهو بالفعل لا شعوري (...) لدينا بعض الفرضيات وبعض الأفكار، ولكن ليس لدينا معرفة حقيقية. لا أحد يعرف الغاية الخفية للإنسان» (9).

(7) ر. إيفانز، مرجع سابق.

(8) ك. غ. يونج «الشفاء السيكولوجي»، مكتبة الجامعة 1970

(9) ر. إيفانز. مرجع سابق.



128

تخديم فقراء العالم بشكل مربح

بقلم: س. ك. بارهالاد
وألين هاموند (1)
ترجمة: محمد مجد الدين باكير

العنوان الأصلي للمقال Serving the World's Poor, Profitably
ونشر في مجلة Harvard Business Review، عدد سبتمبر 2002

إن تحسين الظروف المعيشية لبلايين الناس عند قاعدة الهرم الاقتصادي هو عملٌ نبيل، وبالإمكان أن يكون أيضاً عملاً مربحا.

لنتأمل صورة العالم الكئيبة بعد خمسة عشر عاماً من الآن: الاقتصاد العالمي يتعافى من حالة الركود التضخمي (1) Stagnation التي يشهدها حالياً، لكن معدلات النمو تظل ضعيفة.

* سي كيه باراهالاد: أستاذ إدارة الأعمال في جامعة ميشيغان (كلية إدارة الأعمال)، ورئيس مجلس إدارة شركة باراجا Parja للبرمجيات في سان دييغو، وألين هاموند: مدير وكبير مديري الاستثمار CIO، وأحد كبيري العلماء Senior Scientist في مشروع الأرباح الرقمية في معهد الموارد العالمية في واشنطن، العاصمة.

(1) الركود التضخمي: يعبر عن تباطؤ النمو الاقتصادي مصحوباً بارتفاع الأسعار - المترجم.

التضخم لا يزال محدقاً، والفجوة تتسع بين الأغنياء والفقراء، وحوادث الاضطراب الاقتصادي والانهيارات الحكومية والحروب الأهلية تضرب المناطق النامية. ويبقى الإرهاب خطراً داهماً، يحوِّل مقداراً كبيراً من الموارد العامة والخاصة لمواجهة المخاوف الأمنية. وتتعاظم المعارضة لنظام السوق العالمي، وتجد الشركات متعددة الجنسيات صعوبة في التوسع، ويسعى العديد منها إلى تجنب المخاطرة، وذلك من خلال تقليص حجم الاستثمارات وسحبها من بلدان الأسواق الناشئة.

والآن لننظر إلى هذا السيناريو الأكثر إشراقاً: تحقق اقتصادات المناطق النامية بفعل الاستثمار الخاص والفعاليات الاستحداثية Entrepreneurial Activities الواسعة النطاق، نمواً نشطاً يخلق فرص عمل وثروات جديدة، ويأتي إلى السوق العالمي بمئات الملايين من المستهلكين الجدد كل عام. إن بلداناً مثل الصين، الهند، البرازيل، تدريجياً جنوب إفريقيا، تتحول الآن لتلعب دور محركات للنمو الاقتصادي الكوني، معززةً بذلك الازدهار العالمي. إن تناقص مستويات الفقر يولد مجموعة من الفوائد الاجتماعية بما يساعد على جلب الاستقرار للعديد من المناطق النامية ويحد من الصراعات المدنية والحدودية. إن التهديد الذي يتمثل بالإرهاب والحروب يتناقص يوماً بعد يوم. وتتوسع الشركات متعددة الجنسيات بمعدلات سريعة في عصر تصاعد الابتكار واشتداد المنافسة.

إن كلاً من هذين السيناريوهين ممكن الحدوث. لكن تحديد السيناريو الذي سيتحقق من بينهما يتوقف أساساً على عامل واحد وهو مدى استعداد الشركات متعددة الجنسيات الكبيرة لدخول أفقر أسواق العالم والاستثمار فيها. وبتشجيع التجارة والتنمية عند قاعدة الهرم الاقتصادي، يصبح بمقدور الشركات متعددة الجنسيات تحسين الظروف المعيشية لبلايين البشر على نحو سريع والمسا عدة

على خلق عالم أكثر استقراراً وأمناً. ولا يتطلب تحقيق هذا الهدف من الشركات متعددة الجنسيات أن تقود مبادرات التنمية الاجتماعية الكونية لأغراض خيرية. فالمطلوب منها فقط أن تعمل بالشكل الذي يحقق مصالحها الخاصة، وذلك لأن هناك منافع اقتصادية جمة يمكن تحقيقها من الدخول إلى الأسواق النامية. وهناك في الحقيقة العديد من الشركات الابتكارية - وكذلك منافذ التوزيع والمشاريع القائمة الضخمة التي تتميز بطابع الاستحداث والابتكار- تعمل على تخديم فقراء العالم بطرائق تحقق لها إيرادات كبيرة وتفضي بها إلى تحقيق المزيد من الكفاءات التشغيلية وإلى كشف النقاب عن مصادر جديدة للابتكار. فبالنسبة لهذه الشركات ولتلك التي تسير على خطاها فإن بناء عمل تجاري يستهدف قاعدة الهرم الاقتصادي يعدُ بإعطائها ميزة تنافسية مهمة مع الدخول في القرن الواحد والعشرين.

وهذا لا يعني أن الشركات الكبرى هي في طريقها لحل المشاكل الاقتصادية للبلدان النامية على نحو مباشر. إذ إن ذلك يتطلب أيضاً الحصول على المعونات المالية المنشودة من العالم المتقدم وإلى إدخال التحسينات إلى أسلوب الحكم في البلدان النامية نفسها. لكنه من الواضح بالنسبة لنا أن الرخاء يمكن أن يعم المناطق الأفقر في العالم فقط من خلال التدخل المباشر والمستديم للشركات متعددة الجنسيات. وعلى الدرجة نفسها من الوضوح تبرز إمكانية أن تعزز الشركات متعددة الجنسيات فرصها في الازدهار في الوقت نفسه.

الطاقات الكامنة

كلنا نعلم بارتفاع عدد فقراء العالم على نحوٍ يدعو للقلق. إذ إن 65%بالإجمال من سكان العالم - أي 4 بلايين إنسان - يكسبون أقل من 2000 دولار في العام. ومع ذلك، ومع اتساع هذه السوق، فإنها لا تزال بجزءٍ كبير منها غير مطروقة من قبل الشركات متعددة الجنسيات. ومن السهل أن نفهم السبب الكامن وراء ابتعاد هذه الشركات عن الاستثمار فيها. إذ تسير هذه الشركات على افتراض مؤداه أن الأفراد من ذوي الدخول المنخفضة لا يملكون إلا القليل لينفقوه على السلع والخدمات وأن ما يدفعونه يذهب لتغطية حاجاتهم الأساسية كالغذاء والمأوى. تفترض هذه الشركات أيضاً أن القيود الكثيرة التي تقف في وجه التجارة - كالفساد، الأمية، نقص البنية التحتية، تقلبات سعر الصرف والروتين الحكومي البيروقراطي - تجعل من المستحيل عليها أن تدخل في عمل تجاري مربح في تلك المناطق. لكن مثل هذه الافتراضات تعكس نظرة ضيقة إلى العالم النامي عفا عليها الزمن. فالحقيقة هي أن العديد من الشركات متعددة الجنسيات قد نجحت مسبقاً في أداء العمل التجاري في البلدان النامية (على الرغم من أن التركيز

منصبٌ حالياً على تخديم قطاعات الطبقة ما فوق الوسطى الصغيرة الحجم في هذه الأسواق)، وتظهر تجربة تلك الشركات بهذا الخصوص أن القيود على التجارة - على الرغم من أنها موجودة - هي أقل مما يعتقد. علاوةً على ذلك، فإن هناك العديد من الاتجاهات الإيجابية التي تشهدها البلدان النامية - ابتداءً من الانفتاح المتزايد في وجه الاستثمارات الأجنبية، إلى التطور في شبكات الاتصال اللاسلكي ذات التكلفة المنخفضة، تساعد على الحد وبشكل كبير من تلك القيود وتتيح في الوقت نفسه للمشاريع التجارية مدخلاً أكبر إلى الأحياء الفقيرة في المدن والأرياف. وفي الواقع، وحالما نطرح المعتقدات الخاطئة جانباً، تتضح صورة الإمكانات الاقتصادية الهائلة التي تقبع عند قاعدة الهرم.

لنتأمل ذلك الاعتقاد الذي يرى أن الفقراء لا يملكون المال. إن هذا يبدو واضحاً في الظاهر، لكنه أمرٌ خاطىء. فبينما يمكن أن تكون الدخول الفردية متدنية فإن القدرة الشرائية Purchasing Power الإجمالية للمجتمعات الفقيرة مرتفعة جداً. إذ يقل (متوسط) الدخل الفردي لقرويي بنغلاديش الريفية، على سبيل المثال، عن 200 دولار سنوياً، لكننا إذا أخذناهم بالمجموع فإنهم يعتبرون مستهلكين شرهين لخدمات الاتصال البعيد. حيث تولّد هواتف شركة Grameen Telecom، المملوكة من قبل أحد المستحدثين Entrepreneur والتي يستخدمها جميع أفراد المجتمع، عائداً وسطياً يصل تقريباً إلى 90 دولاراً في الشهر- وإلى ما يقارب 1000 دولار شهرياً في بعض القرى الكبيرة. وينفق زبائن شركات الهاتف في تلك القرى، والذين يدفعون نقداً عن كل استخدام، 7% بالمتوسط من دخولهم على الخدمات الهاتفية - وهذا يتجاوز بكثير ما ينفقه زبائن هذه الخدمات في الأسواق التقليدية.

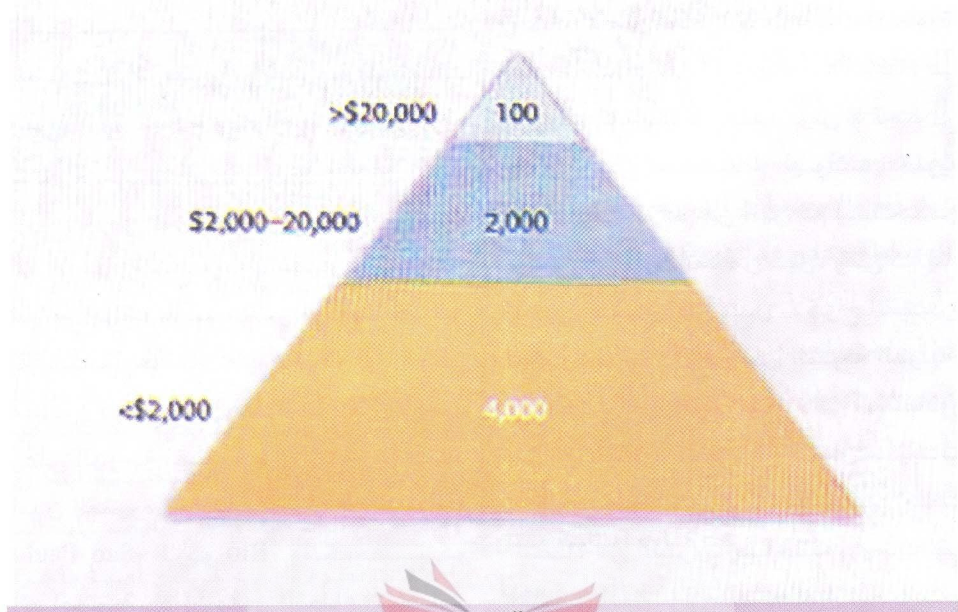
من غير الصحيح أيضاً الافتراض بأن الفقراء يهتمون فقط بتلبية حاجاتهم الأساسية بدلاً من إهدار أموالهم على السلع غير الأساسية. في الواقع، يشتري الفقراء في أغلب الأحيان سلعاً كمالية. ففي إحدى قرى الأكواخ قرب مومباي (وتدعى Dharavi)، تمتلك 85% من العائلات أجهزة تلفزيون، وتمتلك 75% طناجر بخارية وخلاطات، و 56% تمتلك مواقد غاز و21% لديها أجهزة هاتف. والسبب في ذلك هو أن معظم الناس عند قاعدة الهرم يعتبرون أن شراء بيت في مومباي ليس بالخيار المنطقي. فمع أنهم لا يتمتعون بمصدر للمياه الجارية، فهم يتقبلون هذا الواقع، وبدلاً من أن يدخروا لمواجهة الأيام الماطرة، فإنهم ينفقون دخلهم على سلع يمكن أن يحصلوا عليها الآن

لتحسين نوعية حياتهم.

وهناك اعتقاد خاطئ جداً عن الأسواق النامية يفيد أن السلع التي تباع فيها هي سلع من النوع الرخيص جداً، وبالتالي فلا مجال هناك لدخول منافس جديد وتحقيق الأرباح. ففي الحقيقة، يدفع المستهلكون عند قاعدة الهرم على معظم السلع أسعاراً أكثر ارتفاعاً مما يدفعه مستهلكو الطبقة الوسطى، وهذا يعني أن هناك فرصةً حقيقية أمام الشركات، وخصوصاً الكبيرة منها التي تتمتع بوفورات الحجم (2) Economies of Scale وبسلاسل توريد كفؤة، لتحصل لها على حصة سوقية Market Share من خلال تقديم سلع عالية الجودة بأسعار متهاودة بالشكل الذي تحافظ فيه على هوامش ربح مغرية. في الحقيقة، وعلى امتداد العالم النامي، يدفع ساكنو الأحياء الفقيرة في المناطق الحضرية، على سبيل المثال، ما يتراوح بين أربعة أضعاف ومئة ضعف ما تدفعه عائلات الطبقات المتوسطة والعليا على ماء الشرب. أيضاً تتجاوز تكاليف الغذاء ما نسبته 20% إلى 30% في المجتمعات الفقيرة نظراً لعدم توفر أي مدخل لها إلى مخازن حسومات الشراء الكبير. وعلى الجانب الخدمي من الاقتصاد، يفرض المرابون المحليون فوائد تتراوح بين 10% و15% لليوم الواحد، وبمعدلات سنوية تصل إلى 2000%. وحتى أولئك المستحدثون الصغار المحظوظون الذين يحالفهم الحظ بالحصول على القروض من مؤسسات التمويل الصغيرة (المحلية) التي لا تهدف إلى الربح، يدفعون ما بين 40% و 70% كمعدل فائدة سنوية. وهي معدلات تعتبر غير قانونية في معظم البلدان المتقدمة. (ولمعرفة أدق حول كيفية مقارنة أسعار السلع بين المناطق الغنية والفقيرة، يمكن الرجوع إلى العرض المرافق «الاقتصاد عالي التكلفة للمجتمعات الفقيرة»).

ويمكن أيضاً أن تكون تكاليف التسويق وتقديم المنتجات والخدمات منخفضة بشكل مدهش في العالم الفقير. وهذا يرجع إلى أن العديد من الفقراء يعيشون في مدن تتسم اليوم بالكثافة السكانية، وستكون أكثر كثافةً في السنوات القادمة. وتشير الأرقام الصادرة عن الأمم المتحدة ومعهد الموارد العالمي إلى أنه مع حلول العام 2015 سيبلغ عدد المدن التي يتجاوز عدد سكانها المليون نسمة 225 مدينة في إفريقيا، 225 مدينة في أمريكا اللاتينية، و903 في آسيا. وسيبلغ عدد سكان 27 مدينة على الأقل 8 ملايين أو أكثر. بالمجموع ستضم المدن الألف والثلاثمائة الكبرى ما بين 1.5 بليون إلى 2 بليوني نسمة، وسيكون نصف هؤلاء السكان تقريباً

(2) وفورات الحجم: هي مقدار الوفر الذي يحققه المشروع مع تزايد حجم أعماله - المترجم.



الهرم الاقتصادي العالمي

تستهدف معظم الشركات الطبقات العليا من الهرم الاقتصادي، بالشكل الذي تغفل فيه كلياً عن الإمكانات الاقتصادية القابعة عند قاعدة الهرم. لكن، وبما أن الفرد الواحد يمكن أن يكسب ما يعادل 2000 دولار أو أقل في العام، فإن السكان عند قاعدة الهرم يؤلفون سوقاً ضخمة (حوالي 4 ملايين مستهلك فعال) تشكل غالبية سكان العالم.

من المستهلكين عند قاعدة الهرم BOP الذين يحصلون على خدماتهم الآن وبشكل أساسي من قبل اقتصادات غير رسمية.

وستتمتع الشركات العاملة في هذه المناطق بمدخل للوصول إلى ملايين الزبائن الجدد المحتملين والذين يملكون بالمجموع بلايين الدولارات الجاهزة للإنفاق. إذ يتمتع الفقراء في ريو دي جانيرو، على سبيل المثال، بقدرة شرائية إجمالية قدرها 1.2 بليون دولار (600 دولار للفرد). ولا تختلف عن ذلك مدن الأكواخ المحيطة في جوهانسبرغ أو مومباي. وتتمتع الأحياء الفقيرة في تلك المدن بأنظمة بيئية مميزة، حيث محلات التجزئة، والمشاريع الصغيرة، والمدارس، والعيادات الطبية، والمرابون. ومع أن هناك القليل من التقديرات الدقيقة لقيمة الصفقات التجارية في هذه الأحياء الفقيرة، إلا أن النشاط التجاري يبدو في حالة ازدهار. وتفاخر دارافي Dharavi - وهي مدينة تغطي مساحة قدرها 435 أكراً فقط - بامتلاكها طيفاً من المشاريع يشمل الصناعات الجلدية، والصناعات النسيجية وصناعة إعادة تدوير البلاستيك والخياطة الجراحية

وصناعة الحلي الذهبية، وصناعة المشروبات المحظورة، وصناعة المنظفات ومواد البقاليات. ويتراوح نطاق المشاريع التجارية من مشاريع يديرها شخص واحد إلى مشاريع أكبر يديرها منتجو السلع ذات العلامات التجارية الشهيرة. وتقدر إيرادات التصنيع التي تولدها دارافي بأربعمائة وخمسين مليون دولار أو بحوالي مليون دولار للأكر الواحد من الأرض. وعلى الدرجة نفسها من الإنتاجية هناك المدن الفقيرة القائمة بالقرب من ساوباولو Sao Paulo، الريو Rio، ومكسيكو العاصمة. إذ إن بذور القطاع التجاري النشط قد نثرت. وعلى اعتبار أن الوصول إلى فقراء المناطق الريفية أصعب من الوصول إلى فقراء الحضر، فإنهم يعتبرون فرصةً كبيرة لم تستغل بعد من قبل الشركات. ففي الواقع، يتولد ما نسبته 60% من إجمالي الناتج المحلي GDP للهند من المناطق الريفية. ويعتبر غياب منفذ التوزيع العائق الحاسم أمام النشاط التجاري في المناطق الريفية، وليس نقص القدرة الشرائية. ومع ذلك فإن البنى التحتية الجديدة لتكنولوجيا المعلومات IT والاتصالات - وخاصة اللاسلكية - تبشر بتحولها إلى وسيط غير مكلف لمد قنوات التوزيع والتسويق في هذه المجتمعات.

ويشير المنطق التقليدي إلى أنه ليس بمقدور الأفراد في أسواق قاعدة الهرم استخدام مثل هذه التكنولوجيات المتطورة، وهذا اعتقاد خاطىء أيضاً. فالنساء في الأرياف الفقيرة في بنغلاديش لا تجد أي صعوبة في استخدام الهواتف الخلوية GSM على الرغم من أنهن لم يستخدمن أي نوع من الهواتف من قبل. وفي كينيا، يتعلم الفتيان في مدن الأكواخ الفقيرة كيفية تصميم المواقع على الشبكة الدولية. ويستخدم المزارعون الفقراء في السلفادور مراكز الهاتف للتفاوض بشأن مبيعات محاصيلهم على الإنترنت. وقد تعلمت النساء في القرى الساحلية الهندية في أقل من أسبوع استخدام الحواسب الشخصية لتحليل صور الأقمار الصناعية الفورية التي تظهر تجمعات قطعان الأسماك في بحر العرب بحيث يكون بمقدورهن إرشاد أزواجهن إلى أفضل مناطق الصيد. وهكذا يتضح أن المجتمعات الفقيرة على استعداد للتكيف مع التكنولوجيات الجديدة التي تحسن من فرصهم الاقتصادية أو نوعية ظروفهم المعيشية. وعلى ذلك فإن الدرس الذي يجب أن تتعلمه الشركات متعددة الجنسيات هو: عدم التردد في نشر التكنولوجيا المتقدمة عند قاعدة الهرم الاقتصادي بالتزامن مع، أو حتى قبل، نشرها في البلدان المتقدمة.

ويتعلق آخر المعتقدات الخاطئة بقضية مثيرة للجدل وهي مسألة الاستغلال الذي

يتعرض له الفقراء من قبل الشركات المتعددة الجنسيات. إن الاقتصادات غير الرسمية التي تضطلع الآن بتخديم المجتمعات الفقيرة ملأى بحالات نقص الكفاءة والاستغلال الذي تمارسه شركات الوساطة وعلى هذا فلو كان معدل الفائدة السنوية الذي تفرضه إحدى مؤسسات الإقراض المحدود يبلغ 50% في ظل بديل آخر هو إما 1000% أو عدم الحصول على قرض على الإطلاق، فهل يعتبر ذلك استغلالاً أم مساعدة للفقراء؟. ولو شرعت إحدى كبريات الشركات المالية مثل Citigroup باستخدام وفورات الحجم فيها لتقديم قروضٍ صغيرة بمعدل فائدة قدره 20%، فهل يعد هذا استغلالاً للفقراء أم مساعدةً لهم؟. إن الموضوع لا يتوقف فقط على التكلفة، وإنما هناك النوعية أيضاً، النوعية فيما يتصل بنطاق وعدالة الخدمات المالية، نوعية الغذاء، نوعية مياه الشرب. إننا ندافع عن الحجة القائلة إن تقديم الشركات متعددة الجنسيات للسلع والخدمات الأساسية التي تقلل من التكلفة التي يتحملها الفقراء وتساعد في تحسين شروطهم المعيشية - بالتوازي مع تحقيق عائد مقبول على الاستثمار - هو أمرٌ يمكن أن تعم فوائده على الجميع.

مسألة النشاط التجاري

إن الفرص التجارية الموجودة عند قاعدة الهرم الاقتصادي لم تغفل كلياً. فقد رأينا



في السنوات الخمس الماضية منظمات غير حكومية NGOs ومشاريع ناشئة ابتكارية وحفنةً من الشركات متعددة الجنسيات التي امتلكت نظرة ثاقبة في قيامها بإجراء تجارب حثيثة داخل المجتمعات الفقيرة. إن الخبرة التي حصلت عليها هذه الشركات هي خير دليل على ذلك: إذ يمكن للمشاريع التجارية أن تحقق ثلاث مزايا مهمة من تخديم الفقراء: الحصول على مصدر جديد لزيادة الإيرادات، وتحقيق كفاءة مرتفعة، وسبيل للابتكار. دعنا نأخذ أمثلة عن كل من هذه المزايا.

النمو المرتفع

يعتبر تحقيق النمو تحدياً مهماً أمام جميع الشركات، لكنه اليوم يتميز بأهمية خاصة لكل الشركات الكبرى، التي يبدو أن الكثير منها قد وصل إلى مرحلة إشباع في أسواقها الحالية، وهذا ما يبرر الفرصة التي تشكلها أسواق قاعدة الهرم بالنسبة للشركات متعددة الجنسيات. إذ إنها تمثل

في الأساس مصدراً جديداً للنمو. ونظراً لأن هذه الأسواق هي في المراحل المبكرة لعملية التنمية الاقتصادية فإن معدلات النمو يمكن أن تكون مرتفعة بشكل كبير. إن الطلب الكامن على السلع ذات الأسعار المتدنية والنوعية العالية طلب مرتفع جداً. ولننظر إلى ردة الفعل التي تولدت عندما قدمت شركة Hindustan Lever، وهي الفرع الهندي لشركة Unilever، مؤخراً نوعاً من الحلوى كفئة منتوج جديدة موجهة إلى المستهلكين عند قاعدة الهرم. إن هذه الحلوى ذات النوعية العالية والمصنوعة من السكر والفواكه الطبيعية تباع ببنس واحد فقط. وقد تبدو الفرصة التجارية لبيع منتوج بهذا السعر هامشية، لكن وفي فترة ستة أشهر فقط أصبحت هذه الفئة الأكثر نمواً بين مجموعة منتجات الشركة. إنها لم تكن مربحة فقط، لكن الشركة تقدر بأن لديها القدرة على تحقيق إيرادات تصل إلى 200 مليون دولار سنوياً في الهند وفي الأسواق المشابهة وعلى امتداد فترة خمس سنوات. وقد حققت Hindustan Lever نجاحات مماثلة في الهند مع منتجات أخرى تباع بأسعار متدنية: المنظفات، والملح الميودن. وتسعى الشركة إلى ما هو أبعد من زيادة المبيعات، فهي تعمل على توطيد عملها التجاري وعلامتها التجارية في سوق جديد واسع.

هناك أيضاً طلب قوي على الخدمات التي تتميز بأسعار متهاودة. إن TARAhaat، وهي إحدى الشركات الناشئة التي توجه تركيزها إلى أرياف الهند، تقدم مجموعة من خدمات التعليم بوساطة الحاسوب تتراوح بين التدريب على أساسيات تكنولوجيا المعلومات IT إلى التدريب على اتقان اللغة الإنجليزية إلى التدريب على المهارات الحرفية Vocational Skills. ويتوقع أن تكون هذه المنتجات أكبر مولدات الإيرادات في الشركة وفي فروعها الحاملة للامتيازات لعدة سنوات قادمة. وهناك أيضاً طلب مرتفع على خدمات التسليف والخدمات المالية من قبل الفقراء. فقد سجل Citibank، في تجربته تقديم خدمات ATM المصرفية (كوى الصرافة الآلية)، التي تتطلب إيداع حد أدنى قدره 25 دولاراً فقط، ما مجموعه 150 ألف زبون في سنة واحدة في مدينة بانجالور وحدها.

وتشيع الخدمات التي تقدمها المشاريع الصغيرة أيضاً في أسواق قاعدة الهرم. إذ تقدم المراكز التي تديرها مؤسسة «الخدمة الإلكترونية لمصادر المعلومات النسوية» للمستحدثات النساء معلومات عن الأسواق والأسعار، بالإضافة إلى خدمات التسليف وتعزيز العمل التجاري، كل ذلك في تنسيقات بسيطة وجاهزة للاستخدام باللغات المحلية. وتخطط المراكز لتقدم للمشاريع الصغيرة خدمات تجارية بسيطة مثل: الطباعة، خدمة الفاكس، خدمة

الناسخة الضوئية، مع إمكانية الحصول على البرمجيات الخاصة بالمحاسبة وبناء الجداول. في بوليفيا، دخل أحد المشاريع الناشئة في شراكة مع الاتحاد البوليفي لمنظمات المنتجين البئيين (3) Bolivian Association of Ecological Producers Organization وذلك لتقديم المعلومات التجارية وخدمات الاتصال لأكثر من 25000 من صغار المنتجين للمنتجات الزراعية البيئية.

إن بعض الخدمات، في الحقيقة، لا يمكن تقديمها عند تكلفة منخفضة والمحافظة في الوقت نفسه على عامل الربحية، وذلك على الأقل خارج إطار التكنولوجيا ونماذج الأعمال التقليدية. إذ لا يمكن لمعظم مزودي خدمات الاتصال الجوال، على سبيل المثال، أن يشغلوا شبكاتهم بشكل مربح وعند أسعار منخفضة في العالم النامي. ومن أحد الحلول لذلك هو اللجوء إلى اعتماد تكنولوجيا بديلة. حيث تستخدم إحدى شركات التمويل المحدود في بوليفيا، على سبيل المثال، واسمها PRODEM، كوى صرافة آلية تعتمد في عملها على بطاقة ذكية متعددة اللغات للحد بشكل كبير من التكلفة الحدية للزبون الواحد. وتخزن البطاقات الذكية المعلومات الخاصة بالزبون، التفاصيل الشخصية، أرقام الحسابات، سجلات الصفقات، وبصمة الإبهام بما يسمح للصراف بالعمل دون حاجة إلى اتصال دائم بالشبكة- وهذا أمر مهم بالنسبة للمناطق النائية. ما هو أكثر من ذلك، أن آلات الصرافة تقدم خدمة الأوامر الصوتية باللغة الإسبانية واللهجات المحلية الأخرى وهي مجهزة بشاشات تعمل باللمس بالشكل الذي يسمح بتوسيع قاعدة زبائن شركة PRODEM بحيث تشمل الأميين وأنصاف الأميين Semiliterate.

هناك حل آخر وهو تجميع الطلب (التعامل مع الطلب الإجمالي)، وذلك بجعل المجتمع -لا الفرد- زبوناً للشبكة. وتعتبر شركة Gyandool، وهي مشروع ناشئ يعمل في منطقة Dhar وسط الهند، حيث يقع 60% من السكان تحت مستوى الفقر، خير مثال على المزايا التي يحققها نموذج المدخل المشترك. إذ تمتلك الشركة شبكة من 39 كشكاً موصولاً بالشبكة الدولية، وتقدم للمستحدثين المحليين خدمة الاتصالات والدخول إلى الشبكة الدولية، إضافة إلى مجموعة من الخدمات الحكومية والتعليمية. ويقدم كل كشك خدماته إلى ما بين 25 و 30 قرية مجاورة، وتصل كامل الشبكة إلى أكثر من 600 قرية وما يزيد على نصف مليون إنسان. ويمكن أن تكون مثل هذه الشبكات قنوات مفيدة في تسويق وتوزيع أنواع عدة من المنتجات والخدمات ذات التكاليف المنخفضة. فقد أقام قسم التقانة الحاسوبية في Aptech، على سبيل المثال، شبكته الخاصة

(3) يقصد بكلمة البيئي المراعي للشروط التي تحافظ على البيئة - المترجم.

المؤلفة من 1000 مركز تعليمي في الهند لتسويق وتوزيع برنامج Vidya، وهو عبارة عن دورة تدريبية على الحاسوب مصممة خصيصاً للمستهلكين من قاعدة الهرم الاقتصادي وهي متاحة بسبع لغات هندية. وتستخدم شركة Pioneer HiBred التابعة لشركة دوبون Du Pont أكشاك الإنترنت في أمريكا اللاتينية لإتاحة المعلومات الزراعية للزبائن والتفاعل معهم. وهكذا فبإمكان المزارعين أن يرفعوا تقاريرهم عن الآفات التي تصيب المحاصيل الزراعية وعن الظروف الجوية، وأن يحصلوا على الاستشارات عن طريق الشبكة وأن يطلبوا البذار والأسمدة والمبيدات الزراعية. هذه الاستراتيجية التي تعتمد على عمل الشبكات Network Strategy تساعد على زيادة المبيعات ورفع درجة ولاء الزبائن في الوقت نفسه.

خفض التكاليف

هناك عنصر لا يقل أهمية عن ارتفاع معدلات النمو، وهو تلك الفرص التي تساعد على الحد من التكاليف. وفي هذا المجال كانت عمليات شراء الخدمة للحد من تكاليف العمالة ولفترة طويلة وسيلةً شائعة لاحتواء التكاليف. وقد أفضى ذلك إلى الباع الكبير والمتزايد للصين في مجال التصنيع وللهند في مجال البرمجيات Software. والآن وبفضل التوسع السريع للشبكات الرقمية ذات السرعة العالية، تحقق الشركات وفورات أكبر من خلال إقامة وظائف التخديم التي تتطلب كثافة في عنصر العمل مثل مراكز الاتصال، خدمات التسويق، ومراكز المكاتب الخلفية (المحاسبة والإدارة) لمعالجة الصفقات، في المناطق النامية. فمثلاً، تدفع الشركات العشرون التي تستخدم الخدمات التسويقية التي تقدمها شركة OrphanIT.com عبر مراكز الاتصالات الخاصة بها في الهند والفلبين، تسع (9/1) المعدل الجاري الذي تدفعه على الخدمات المماثلة في الولايات المتحدة أو أستراليا. ويصف أحد المستثمرين في رأسمال المخاطرة Venture Capitalist وهو Vinod Khosla فرص التخديم عن بعد كما يلي: «أعتقد أننا سنكون، مع حلول عام 2010، نتحدث عن التخديم عن بعد باعتباره أكثر القطاعات نمواً في الاقتصاد العالمي، مع ولادة أسواق جديدة يصل حجمها إلى عدة تريليونات من الدولارات». وإلى جانب تخفيض التكاليف، فإن خلق فرص عمل عن طريق شراء الخدمة في أسواق قاعدة الهرم يمكن أن يعزز النمو، على اعتبار أن خلق هذه الفرص يزيد إلى حد كبير من القدرة الشرائية للمستهلكين المحليين.

لكن الوصول إلى مكامن العمالة الرخيصة ليس بالطريق الوحيد الذي يمكن للشركات متعددة الجنسيات من خلاله تعزيز كفاءتها في العمل في المناطق

النامية. ويمكن للحفاظ على بنية تكاليفية منخفضة في هذه المناطق، لضرورة تنافسية، أن يدفع بالشركات إلى اكتشاف طرائق خلاقة في توليف منتجاتها، ميزانيتها، وسلاسل التوريد لديها بما يعزز الإنتاجية. ويمكن إدخال هذه الاكتشافات الجديدة في صياغة عملياتها داخل الأسواق المتقدمة نفسها.

على سبيل المثال، إن الشركات التي تستهدف أسواق قاعدة الهرم تجد الآن أن نموذج المدخل المشترك الذي يفصل ما بين حق الدخول Access وحق الملكية Ownership، لا يعمل فقط على توسيع قاعدة الزبائن وإنما يساعد على زيادة إنتاجية الموجودات (الأصول) Assets أيضاً.

ويمكن للفقراء، بدلاً من شراء أجهزة الحاسوب ووصلات الشبكة الدولية والهواتف النقالة والبرادات وحتى السيارات، أن يستخدموا مثل هذه التجهيزات والمعدات على أساس الدفع لقاء كل استخدام Pay-per-use. وفي العادة، يحصل مزودو مثل هذه الخدمات على قدر أعلى من الإيراد لكل دولار مستثمر في الأصول. إذ يمكن على سبيل المثال أن يخدم خط الاتصال المشترك بالشبكة الدولية ما يصل إلى 50 شخصاً، الأمر الذي يولد قدراً من الإيرادات اليومية أكبر مما هو الحال في الخط الذي يقتصر على تخديم زبون واحد يدفع رسماً ثابتاً. إن المدخل المشترك يخلق فرصة لزيادة الإيرادات على جميع أشكال الاستثمارات في البنية التحتية. وفيما يتعلق بالميزانيات، ولكي تعمل الشركات بنجاح في أسواق قاعدة الهرم، ينبغي على مديريها أن يعيدوا النظر أيضاً بمعاييرها الاقتصادية Metrics - وبالتحديد، التركيز التقليدي على الهوامش الإجمالية المرتفعة. وفي الأسواق النامية، سيكون هامش الربح على الوحدة الواحدة دائماً متدنياً. لكن العنصر المهم هنا هو كفاءة رأس المال أي تحقيق أكبر العوائد الممكنة على رأس المال الموظف. إذ تدير شركة Hindustan Lever، على سبيل المثال، مجموعة أعمال قيمتها 2.6 بليون دولار برأسمال عامل معدوم. فالشيء الأساسي هنا هو الجهود الحثيثة للحد من الاستثمارات الرأسمالية من خلال توسيع الاعتماد على شراء الخدمات التصنيعية، وزيادة كفاءة سلاسل التوريد، وإدارة الحسابات الدائنة بشكل فعال، وإعطاء اهتمام كبير لأداء الموزعين. فالاحتياجات المتدنية جداً إلى رأس المال، التوزيع المركز، والاستثمارات في المجال التكنولوجي، وتحقيق حجوم إنتاج ضخمة عند هوامش ربح متدنية، كل ذلك يقود إلى مشاريع تتمتع بأكبر العوائد على رأس المال الموظف، بالشكل الذي يحقق قيمة اقتصادية كبيرة لحملة الأسهم. وهذا



النموذج يمكن أن يلقى درجة الجاذبية نفسها في كل من الأسواق النامية والمتقدمة معاً.

إن زيادة كفاءة سلاسل التوريد يتطلب في الغالب استبدال الأصول Assets بالمعلومات لنأخذ على سبيل المثال تجربة شركة ITC، إحدى كبريات الشركات الهندية. فقد وزع قسم التجارة الزراعية ما مجموعه 970 كشكاً تقدم خدماتها إلى 600 ألف مزارع يمدونها بالصويا، القهوة، القريدس، والقمح من 5000 قرية تنتشر في جميع أنحاء الهند. هذا البرنامج القائم على سياسة نشر الأكشاك Kiosk Program، والمسمى e-Choupal، يساعد على زيادة إنتاجية المزارعين من خلال نشر آخر المعلومات المتصلة بحالة الطقس وبأفضل الأساليب الزراعية، وعن طريق دعم خدمات أخرى مثل فحص التربة والمياه، الأمر الذي ساعد على إمداد المزارعين وشركة ITC في الوقت نفسه بمدخلات Inputs عالية الجودة. وتعمل الأكشاك أيضاً كنظام مشتريات إلكتروني e-procurement system يساعد المزارعين في الحصول على أسعار مرتفعة من خلال الحد من تكاليف إنجاز الصفقات Transactions Costs التي تتطلبها عملية تسويق المنتجات الزراعية. ويورد رئيس قسم التجارة الزراعية في شركة ITC ما مفاده أن تكاليف المشتريات في الشركة قد انخفضت منذ تطبيق برنامج e-Choupal. وبأنه على الرغم من الأسعار المرتفعة التي تدفعها للمزارعين فقد مكن هذا البرنامج الشركة من التخلص من العديد من مراحل عمليات النقل، التعبئة والمناولة - بين المَزارع والأسواق المحلية، وبين الأسواق والوسطاء، وبين الوسطاء والشركات المصنعة Processors، والتي لا تضيف أي قيمة إلى سلسلة التوريد.

الابتكار

تعتبر أسواق قاعدة الهرم أرضاً خصبةً للتجارب التجارية والتكنولوجية. فقد طورت شركة الاتصالات اللاسلكية السويدية، Ericsson، على سبيل المثال، نظام هواتف نقالة صغيرة، اسمه MiniGSM، يمكن للمقاسم المحلية في

أسواق قاعدة الهرم استخدامه لتقديم خدمة الهواتف النقالة للمناطق الصغيرة بتكلفة تقل جذرياً عن التكلفة التي تترتب على التجهيزات التقليدية. إن هذا النظام المصمم بحيث يُنْقَل ويُنْشَر بسهولة، يقدم خدمة اتصال صوتية أو بيانية Data مستقلة أو عبر إحدى الشبكات لأكثر من 5000 مستخدم على منطقة نصف قطرها 35 كيلومتراً. ويمكن أن تنخفض التكاليف الرأسمالية للمقسم إلى حدود 4 دولارات للمستخدم الواحد، بحيث يأخذ شكل نموذج الاستخدام المشترك للهواتف الفردية التي يدير شبكتها مستحدثون محليون. ويطور مخبر MIT Media Lab، بالتعاون مع الحكومة الهندية، وسائل منخفضة التكلفة تسمح للأشخاص باستخدام الأوامر الصوتية في الاتصال، دون الحاجة إلى لوحات المفاتيح - بالعديد من مواقع الإنترنت وبلغات متعددة. وتعدُ وسائل الدخول Access Devices الجديدة هذه بتقليل درجات التعقيد التي تعاني منها الحواسب التقليدية مع إمكانية القيام بالعديد من الوظائف الأساسية التي تقوم بها. وكما رأينا، تعتبر الموصلية Connectivity مسألة لها وزنها بالنسبة للمستهلكين عند قاعدة الهرم. فالشركات التي تستطيع الوصول إلى طرائق تساعد على الحد بشكل جذري من تكاليف الوصل Connection Costs ستحتل مركزاً قوياً جداً في السوق. وهذا بالضبط ما تحاول شركة n-Louge الهندية القيام به. فهي تعمل على وصل المئات من الأكشاك الريفية التي تحمل امتيازها والتي يتكون كل منها من حاسب وجهاز هاتف يتصلان بعقد مركزية تتصل بدورها بشبكة الهاتف الوطنية وبالشبكة الدولية (إنترنت). ويمكن لكل عقدة، أو امتياز Franchise، تخديم ما بين 30000 و 50000 زبون، بحيث تقدم خدمات الهاتف والبريد الإلكتروني والشبكة الدولية، إلى جانب توفير المعلومات المحلية ذات الصلة وبأسعار معقولة للقرويين في أرياف الهند. إن التكاليف الرأسمالية لنظام n-Logue الآن هي بحدود 400 دولار للخط اللاسلكي الواحد، ويتوقع أن تنخفض إلى 100 دولار فقط - وهذا أقل بعشر مرات من التكاليف التقليدية لشركات الاتصال. وعلى أساس تكلفة الزبون الواحد، فهي أقل بما مقداره دولار واحد. ويبدو هذا نموذجاً فعالاً لإنهاء عزلة الأرياف وربط الأسواق الريفية غير المطروقة بالاقتصاد الكوني.

ومن المحتمل أن تشجع التكنولوجيات اللاسلكية الجديدة على المزيد من الابتكارات في نماذج الأعمال وعلى تخفيض التكاليف إلى ما هو أبعد من ذلك. إذ يجري حالياً إعطاء التراخيص لحزم الموجات فائقة الانتشار في الولايات

المتحدة لاستخدامها حصراً في تطبيقات تنخفض فيها نسبة الإشعاع بشكل كبير، ويرجع ذلك في جزءٍ منه إلى أن هذه الحزم تبث إشاراتها (الكهرطيسية) عبر أجزاء مكتظة أصلاً داخل طيف الإرسال. ومع هذا، وفي العديد من البلدان النامية، يتميز الطيف بأنه أقل اكتظاظاً. وفي الواقع تقوم مجموعة Dandin المرتكزة في الولايات المتحدة منذ فترة ببناء نظام اتصالات يعتمد الحزم فائقة الانتشار لمصلحة مملكة تونغا Kingdom of Tonga، التي يبلغ تعداد سكانها 100 ألف نسمة، ينتشرون عبر عشرات الجزر، جاعلةً منها حقل اختبار لتكنولوجيا الجيل المقبل الذي قد يغير من اقتصاديات الوصول إلى الشبكة الدولية.

وتلعب نظم التجارة الإلكترونية E-commerce Systems المستخدمة في الهواتف أو على الشبكة الدولية دوراً كبيراً في أسواق قاعدة الهرم نظراً لأنها تحد من الحاجة إلى سلسلة من الوسطاء. لننظر مثلاً إلى الطريقة التي استطاع بها أحد المشاريع الأمريكية الناشئة ويدعى Voxiva أن يغير من أسلوب التشارك في المعلومات وأداء العمل التجاري في دولة مثل البيرو Peru. إذ أقام هذا المشروع شراكةً مع Telefonica، مزود الخدمة الرئيسي المسيطر على سوق الاتصالات، لإتاحة التطبيقات التجارية المؤتمتة عبر الهواتف. وتشمل هذه الخدمة الرخيصة نواحي مثل: البريد الصوتي، مدخل البيانات، وإصدار الطلبيات. إذ بإمكان الزبائن فحص أرصدة الحسابات والاطلاع على سير عملية التسليم والدخول إلى ملفات المعلومات المسجلة مسبقاً. ووفقاً لمجموعة بوسطن الاستشارية Boston Consulting Group، تستخدم وزارة الصحة البيروفية خدمات شركة Voxiva لتوزيع المعلومات واستقبال طلبيات المواد الصيدلانية والوصل بين موظفي الصحة المنتشرين في 6000 مكتب وعيادة. وتلجأ مؤسسات الإقراض المحدود إلى خدمات شركة Voxiva لمعالجة طلبات القروض والاتصال بالمقترضين. وتقدم Voxiva خدمات الشبكة الدولية أيضاً، ومع ذلك فإن نسبة كبيرة من زبائنها المحتملين في أمريكا اللاتينية تتمتع بمدخل إلى الأجهزة الهاتفية. وليست شركات التجارة الإلكترونية هي الوحيدة التي تحول أوجه القصور في أسواق قاعدة الهرم إلى ميزة استراتيجية. لقد حفز عدم وجود مصدر معتمد للطاقة الكهربائية أحد المشاريع الإنجليزية الناشئة (وهو مجموعة فري بلاي Free-Play) على طرح أجهزة راديو يدوية في جنوب إفريقيا والتي شاعت فيما بعد في أوساط الراجلين Hikers في الولايات المتحدة. وهناك فتوحات رائدة

أخرى يجري ابتكارها في مجال استخدام وسائل تعمل بالطاقة الشمسية مثل شاحنات البطاريات ومضخات المياه. وفي الصين، حيث حدت تكاليف المبيدات الحشرية من استخدام التقنيات الزراعية الحديثة، هناك الآن 13000 من صغار المزارعين- وهو رقم يتجاوز الأعداد الموجودة في العالم أجمع- الذين ينتجون القطن المعدل وراثياً لمقاومة الحشرات.

استراتيجيات خدمة أسواق قاعدة الهرم

إن النجاح في أسواق قاعدة الهرم يتطلب دون ريب من الشركات متعددة الجنسيات أن تفكر بشكل خلاق. إن التغيير الأكبر يجب أن يكون في سلوكيات وممارسات مديريها التنفيذيين. فما لم يواجه كبيرو المديرين التنفيذيين والقادة في مشاريع الأعمال أفكارهم المسبقة، فإنهم من غير المحتمل أن يكونوا قادرين على التغلب على التحديات التي تمثلها أسواق قاعدة الهرم. فقوة العمل التقليدية المكيفة بشكل صارم جداً للعمل في أسواق ترتفع فيها هوامش الربح، لن تكون دون تدريب فعلي قادرة على رؤية الإمكانات الواسعة لأسواق قاعدة الهرم. وهكذا فإن أكثر الحاجات إلحاحاً هي الحاجة إلى التعليم. فربما ينبغي على الشركات متعددة الجنسيات أن تخلق شيئاً من قبيل «فرق السلام» Peace Corps : إذ إن إجبار المديرين الشباب على قضاء سنتين من سنوات التدرب في أسواق قاعدة الهرم سيفتح عيونهم على بشائر النجاح الذي يمكن أن يحققه العمل التجاري هناك والحقائق المتصلة بذلك.

وإلى اليوم لم ينجح إلا البعض من الشركات متعددة الجنسيات بإعداد كادر من الأفراد القادرين على التعامل مع هذه الأسواق. وتعتبر Hindustan Lever أحد الاستثناءات. إذ تتوقع الشركة من المديرين التنفيذيين المستقطبين حديثاً قضاء ثمانية أسابيع على الأقل في قرى وأرياف الهند لاكتساب خبرة ملموسة عن أسواق قاعدة الهرم في الهند. وينبغي على المديرين الجدد الانخراط في بعض المشاريع العامة -كإقامة طريق، تنظيف منابع الأنهار، التعليم في إحدى المدارس، تحسين عمل إحدى العيادات الصحية. والهدف من ذلك هو أن يكون المديرون قريبين إلى السكان المحليين. ولدعم هذا المسعى، تبادر شركة Hewlett Packard بتقديم برنامج مكثف للمديرين في كل المستويات الإدارية- من كبير المديرين التنفيذيين وما دون- بغية إعادة ربطهم بزبائن الشركة من الفقراء. إنهم يتحدثون إلى الفقراء في المناطق الريفية والحضرية، ويقومون بزيارات للمحلات التجارية التي يتردد عليها هؤلاء الزبائن لسؤالهم عن تجربتهم مع منتجات

الشركة ومنتجات الشركات المنافسة.

وإلى جانب توسيع فهم واستيعاب المديرين لأسواق قاعدة الهرم، فلا بد من أن تحدث الشركات بعض التغييرات الهيكلية. فللتركيز على فرص الابتكار التي تقدمها هذه الأسواق، على سبيل المثال، يمكن أن تنشىء هذه الشركات وحدات للبحث والتطوير R&D Units في البلدان النامية التي تركز تحديداً على الفرص المحلية. فعندما افتتحت HP قسم e-Inclusion الخاص بها، والذي يركز على الأسواق الريفية، أسست فرعاً لمخابرها، الذائعة الصيت، في الهند اضطلع بتطوير المنتجات والخدمات لهذه السوق. أيضاً تقوم Hindustan Lever باستمرار بجهود كبيرة في مجال البحث والتطوير R&D في الهند.

وقد تقوم الشركات أيضاً بتشكيل مجموعات استثمارية وصناديق استثمار تهدف إلى إيجاد الدوافع وراء الجهود الابتكارية (الاستحداثية) في أسواق قاعدة الهرم. وتحصد مثل هذه الاستثمارات فوائد مباشرة في مجال خبرة العمل وتطوير الأسواق. وباستطاعتها أيضاً أن تلعب دوراً غير مباشر لكنه حاسم في توسيع السوق الكلي لقاعدة الهرم في قطاعات تعود بالفائدة الجمة على الشركات متعددة الجنسيات. حيث تخطط واحدة على الأقل من الشركات الكبرى الأمريكية لإطلاق واحد من هذه الصناديق (الاستثمارية)، وتدرس وحدة الفرص الرقمية لمجموعة الثمانية الكبار G8' s Digital Opportunity Task Force إطلاق صندوق مماثل يركز على مشاريع الاستثمار في مجال التكنولوجيا الرقمية.

ينبغي على الشركات متعددة الجنسيات أن تأخذ باعتبارها تشكيل وحدات تطوير للعمل التجاري Business Development Task Force تستهدف هذه الأسواق. إن تشكيل مجموعة متنوعة من الأفراد من مختلف مفاصل العمل في الشركة وتمكينها من العمل كفريق عمل ينبذ العقائد التقليدية Conventional Dogma سيفضي إلى قدر أكبر من الابتكار. وقد ذهلت الشركات التي جربت هذا المنهج بمقدار الاهتمام الذي أثارته وحدة العمل تلك. إذ يرغب العديد من العاملين في العمل لدى مشاريع تتمتع بالقدرة على تحقيق فروقٍ حقيقية في تحسين الظروف المعيشية للفقراء. فعندما أعلنت شركة Hewlett-Packard عن قسمها الجديد المسمى e-Inclusion، على سبيل المثال، فقد تدفق عليها قدرٌ من المتطوعين أكبر مما يمكن استيعابه. إن إحداث التغييرات الداخلية مسألة مهمة. وعلى القدر نفسه من الأهمية هناك مسألة البحث عن شركاء خارجيين. إذ يمكن أن يكون الانضمام إلى مشاريع أعمال موجودة

أصلاً في هذه الأسواق استراتيجية دخول فعالة، على اعتبار أن هذه الشركات ستكون قادرة بشكل أفضل على الفهم الحقيقي لديناميكيات السوق. وإلى جانب الحد من المخاطر الفردية، فإن الشراكات تعزز أيضاً البنى التحتية الموجودة- المادية منها والاجتماعية. وينبغي على الشركات المتعددة الجنسية الساعية إلى مثل هذه الشراكات أن تركز على ما هو أبعد من المشاريع التجارية إلى المنظمات غير الحكومية NGOs وفرق العمل الاجتماعي. إذ تعتبر مصادر أساسية للمعلومات عن سلوك الزبائن، وهي تقوم في أغلب الأحيان بأكثر التجارب في مجال الخدمات الجديدة ونماذج التسليم الجديدة. وفي الحقيقة، بلغت نسبة المنظمات غير الحكومية من جملة المشاريع الاجتماعية التي تجري تجاربها على الاستخدامات الابتكارية للتكنولوجيا الرقمية، بناءً على استطلاع قام به «بيت المقاصة الخاص بمشاريع الأرباح الرقمية Digital Dividend Project Clearinghouse»، 80% تقريباً. وفي ناميبيا، على سبيل المثال، ستزود إحدى المنظمات واسمها School Net حلولاً تكنولوجية بديلة منخفضة التكلفة - مثل الطاقة الشمسية والوسائل اللاسلكية- للمدارس ولفرق العمل الاجتماعي في طول البلاد وعرضها. وتربط School Net حالياً ما مقداره 53 مدرسة جديدة كل شهر.

وسيكون المستحدثون Entrepreneurs أيضاً شركاء مهمين. فوفقاً لتحليل أجرته McKinsey & Company، يرجع فضل الانتشار السريع للتلفزيون الكابلي Cable TV في الهند إلى صغار المستحدثين - واليوم هناك 50 مليون وصلة كابلية بعد عقد من بدء خدمة التلفزة الكابلية. وقد كان هؤلاء الأفراد المستحدثون منهمكين في مد آخر ميل من الشبكة، وذلك عن طريق وضع صحن لاقط Satellite Dish على أسطحة مساكنهم ومن ثم مد الكابل ليصل جيرانهم بالإرسال. وعلى أي حال، لا بد من إيراد ملاحظة تحذيرية. إذ يفتقد المستحدثون في أسواق قاعدة الهرم طيفاً من الخدمات المتاحة في العالم الصناعي: كالخدمات الاستشارية، المساعدة التقنية، مصادر تمويل الاستثمارات البادئة، والمرافق اللازمة للعمل التجاري. لذلك قد تحتاج الشركات متعددة الجنسيات للاضطلاع بدور المشرف أو الشريك مع منظمات تطوير العمل التجاري المحلية التي يمكن أن تساعد المستحدثين على خلق فرص الاستثمار والشراكة.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن النساء، يلعبن، وعلى خلاف الرأي الشائع، دوراً مهما في التنمية الاقتصادية لهذه المناطق. لذلك ينبغي على الشركات متعددة الجنسيات أن تعطي اهتماماً خاصاً

للمستحدثات النساء. إذ من المحتمل أن تلعب النساء أيضاً الدور الأكثر حسماً في قبول المنتج، ليس فقط بسبب أعمال رعاية الأطفال وتدبر المنزل الموكلة إليهن، وإنما أيضاً بسبب رأس المال الاجتماعي الذي يؤسسنه في مجتمعاتهن. وبالتالي فإن الإصغاء إليهن وتثقيفهن سيكون إحدى ركائز النجاح في هذه الأسواق.

وبغض النظر عن الفرص التي تتيحها أسواق قاعدة الهرم، فإن العديد من الشركات ستنظر إلى قاعدة الهرم باعتبارها ذات مخاطر مرتفعة. وقد عرضنا كيف يمكن للشراكات أن تحد من عنصر المخاطرة، وهناك خيار آخر وهو الدخول في الاتحادات Consortia. ولنتصور إمكانية تقاسم تكاليف إقامة شبكة اتصالات ريفية بين شركة الاتصالات التي ستشغل الشبكة وإحدى الشركات المنتجة للسلع الاستهلاكية التي تبحث عن قنوات توزيع لزيادة مبيعاتها وأحد المصارف الذي سيمول عملية التشييد ويرغب بتقديم قروضه لسكان الأرياف والحصول على إيداعاتهم.

وسيساعد الاستثمار حيث توجد عمليات التآزر أو التعاون الفعالة في الحد من درجة المخاطرة. وستساعد مبادرة الفرصة الرقمية الكونية Global Digital Opportunity Initiative، وهي تمثل شراكة بين مؤسسة Markle Foundation وبرنامج التنمية التابع للأمم المتحدة UN Development Programme، عدداً قليلاً من البلدان في تطبيق استراتيجية تتيح لها

التكلفة	في دارافي	في واردن رود	التكاليف الإضافية التي يتحملها الفقراء
الاقتراض (فوائد سنوية)	600 % - 1000%	18% -12%	53 ضعفاً
مياه البلديات (لكل متر مكعب)	$ 1.12	$ 0.03	37 ضعفاً
المكالمة الهاتفية (للدقيقة)	$ 0.04-0.05	$ 0.025	1.8 ضعفاً
علاج الإسهال	$ 20	$ 2	10 أضعاف
الرز (لكل كيلوغرام)	$ 0.28	$ 0.24	1.2 ضعفاً

الإفادة من قوة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال لتدفع عملية التنمية قدماً. وسيتم اختيار البلدان في جزء منه على أساس اهتمامها، واستعدادها لإحداث إصلاحات داعمة في الضوابط والأسواق. وبغية حشد الموارد وخلق آثار إيجابية، ستشجع المبادرة وكالات المساعدات الدولية والشركات العالمية على المساعدة في عملية التنفيذ. وستبقى جميع هذه الاستراتيجيات التي عرضناها هنا محدودة الفائدة، على أي حال، ما لم ترفع العوائق الخارجية التي ذكرناها: ضعف البنية التحتية، نقص الموصلية Connectivity، فساد مؤسسات الوساطة، وما شابه ذلك. وتحمل التكنولوجيا معظم بشائرها في مجال المعلومات والاتصالات. إذ يمكن أن تقدم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المدخل إلى التجمعات البشرية المعزولة وأن توفر قنوات التسويق والتوزيع وأن تتخطى مؤسسات الوساطة، الأمر الذي يحد من تكاليف الصفقات ويساعد في حشد الطلب والقوة الشرائية. وتعتبر البطاقات الذكية وغيرها من التقنيات الوليدة طرائق رخيصة تقدم للفقراء من الزبائن تحديداً مأموناً للشخصية، ومعلومات تاريخية عن الصفقة والوضع الائتماني، بل وحتى عنواناً افتراضيا أي كل ضرورات التواصل مع الاقتصاد الرسمي. وهذا يفسر السبب الكامن وراء حقيقة أن الشركات التي تتمتع بتقانة عالية لم تكن الوحيدة التي ينبغي أن تهتم في ردم هوة الانقسام الرقمي العالمي، ذلك أن تشجيع انتشار الشبكات الرقمية ذات التكلفة المنخفضة عند قاعدة الهرم الاقتصادي يعتبر أولوية أمام كل الشركات الراغبة بالدخول الافتراضي إلى هذه الأسواق ومزاولة النشاط التجاري فيها. إن تحسين درجة الموصلية هو حافز مهم لزيادة فاعلية الأسواق التي تعتبر حيوية في زيادة مستويات الدخل وتسريع النمو الاقتصادي.

إلى هذا، تسعى الشركات العالمية للاستفادة من آثار التوسع الشبكي في هذه الأسواق. ووفقاً لقانون ميتكالف (4) Metcalfe's Law فإن «درجة النفع الذي تقدمه الشبكة تساوي مربع عدد المستخدمين». وبالمنطق نفسه، فإن قيمة وقوة النشاط الاقتصادي الذي سينبثق مع إمكانية دخول مئات الآلاف من التجمعات الريفية المعزولة سابقاً في عمليات البيع والشراء بين بعضها بعضا ومع الأسواق الحضرية ستزداد بشكل دراماتيكي بما ينعكس بالفائدة على جميع الأطراف.

وطالما أن أسواق قاعدة الهرم تتطلب قدراً كبيراً من إعادة التفكير بالأساليب الإدارية المستخدمة، فإنه من حق المديرين أن يتساءلوا: هل يستحق ذلك كل هذا الجهد؟

إننا نعتقد أن الجواب هو: نعم. فمن ناحية، ستحل الشركات الكبيرة مشاكل كبيرة. وهل هناك أكثر إلحاحاً من القضاء على الفقر الذي يتمرغ فيه حالياً

(4) ميتكالف (روبرت): مؤسس شركة 3Com ومصمم برتوكول Ethernet - المترجم.

4 بلايين إنسان؟ إن من الصعب أن ندعي أنه من الأفضل توزيع ثروة التكنولوجيا والمواهب التي تتمتع بها الشركات المتعددة الجنسيات الرائدة لإحداث تغييرات إضافية على المنتجات الحالية بدلاً من السعي لمواجهة الحاجات الفعلية والفرص الحقيقية عند قاعدة الهرم. بالإضافة إلى ذلك، من المحتمل أن تُدخِل الشركات متعددة الجنسيات، ومن خلال المنافسة، مستوى من حس المساءلة بخصوص عنصر الأداء والموارد.. وهو أمر لم نره لا من وكالات التنمية الدولية ولا من الحكومات الوطنية طيلة الخمسين عاماً الأخيرة. إن مشاركة الشركات متعددة الجنسيات يمكن أن تضع معياراً ونموذجاً جديدين يقومان على آلية السوق، لمواجهة الفقر.

لقد عرضنا (في هذه المقالة)، وبغض النظر عن النواحي الأخلاقية، أن إمكانية التوسع عند قاعدة الهرم هي إمكانية هائلة لا يمكن تجاهلها. وتحتاج الشركات الكبرى إلى التركيز على الفرص السوقية الكبيرة إذا ما أرادت تحقيق نمو فعلي. إنها ببساطة استراتيجية عمل تجاري ناجعة أن تنخرط الشركات في أسواق كبيرة غير مطروقة تتيح الوصول إلى زبائن جدد وفرص تساعد على خفض التكاليف، ومدخل إلى ابتكار جذري. إن الفرص التجارية عند قاعدة الهرم هي فرص حقيقية وهي في متناول أي شركة متعددة الجنسيات لديها الرغبة والاستعداد للمشاركة والتعلم.

ارتفاع تكلفة اقتصاد الفقراء

عندما نقارن تكاليف المواد الأساسية في دارافي Dharavi، وهي قرية من قرى الأكواخ في قلب مومباي، يزيد عدد سكانها على مليون نسمة، بتلك التكاليف في مجتمع الطبقة العليا القاطنة في شارع واردن رود Warden Road في إحدى ضواحي مومباي الراقية، لبرزت أمامنا صورة تبعث على الإزعاج. فمن الواضح أن بالإمكان تخفيض التكاليف بشكل كبير جداً لو أمكن للفقراء الإفادة من كفاءات المجال، والحجم، وسلاسل التوريد Supply Chains التي تتمتع بها المشاريع الكبيرة، كما يستفيد أمثالهم من أفراد الطبقة الوسطى. هذا النموذج هو نموذج عام في جميع أنحاء العالم، وحتى في البلدان المتقدمة. إذ إن هناك، على سبيل المثال، تبايناً مماثلاً، أقل حدة، بين فقراء المدن الداخلية وأغنياء الضواحي في الولايات المتحدة.

تقاسم المعلومات

ما هي المداخل الجديدة الخلاقة التي أتاحتها التكنولوجيا الرقمية لخدمة أسواق قاعدة الهرم؟ أي القطاعات أو البلدان تشهد أعلى درجات النشاط الاقتصادي أو أعلى معدلات النمو؟ ما

هي نماذج الأعمال الجديدة التي تبدو واعدة ومبشرة؟ ما هي أشكال الشراكات الأكثر نجاحاً في مجال التمويل، التوزيع، والعلاقات العامة؟

إن منظمة Digital Dividend Project Clearinghouse، وعنوانها الإلكتروني digitaldividend.org، تساعد في الوصول إلى إجابة عن هذه الأنماط من الأسئلة. إذ يتتبع موقعها على الشبكة الدولية نشاط المنظمات التي تستخدم الأدوات الرقمية في التزويد بخدمة الوصل الشبكية Connectivity وتقديم الخدمات للمجموعات السكانية التي تفتقد التخديم المناسب في البلدان النامية. وحالياً، يضم الموقع معلومات عن 700 مشروع ناشط حول العالم. وكونه يخضع لرعاية معهد الموارد العالمي، وهو منظمة لا تهدف إلى الربح، يتيح الموقع للمشاركين في المشاريع المختلفة تبادل خبراتهم ومعارفهم بين بعضهم بعضا. علاوةً على أنه يقدم البيانات لتحليل الاتجاهات والدراسات المتخصصة الأخرى التي تسهل إجراء تحليلات السوق وإبرام الشراكات المحلية وإتاحة الفرصة للتعلم السريع بتكلفة منخفضة.







هاجس الفنان جورج كاتلين

بقلم: بروس واتسون

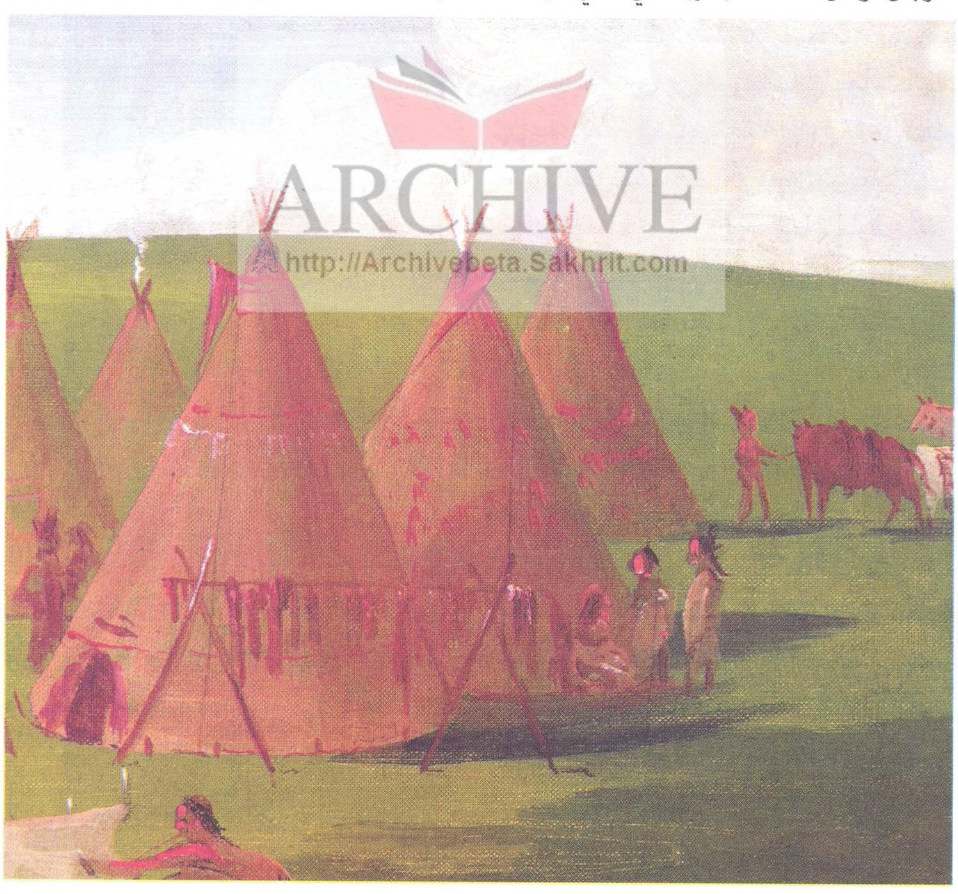
ترجمة: د. عدنان جرجس

العنوان الأصلي للمقال: **George Catlin's Obsession**
ونشر في مجلة **Smithsonian** عدد ديسمبر **2002**

لم يسبق أن كرّس فنان نفسه بشغف كبير لموضوع واحد فقط طوال سيرته الفنية سوى الفنان جورج كاتلين. ويطرح المعرض المقام في صالة عرض رينويغ Renwick في واشنطن تساؤلا مفاده: هل استغل الفنان الهنود الأمريكيين في أعماله أم أنه ارتقى بهم إلى الأعلى؟.

في يوم من أيام عام 1805 كان هناك طفل في التاسعة من عمره يستكشف معالم الغابة الواقعة على طول نهر سسكوهانا Susquehanna River في جنوب شرق نيويورك عندما التقى وجها لوجه أحد أفراد قبيلة أونيدا Oneida الهندية، عندها جمد الصبي في مكانه مذعوراً إلا أن الهندي الشامخ أمامه سارع إلى إلقاء التحية عليه بكل مودة وصداقة. ومنذ ذلك الحين لم ينس هذا الصبي تلك المواجهة أو دماثة ذلك الرجل، ولعل هذه التجربة هي التي طبعت وقولبت حياة جورج كاتلين المهنية.

وتضم اليوم صالة عرض رينويغ التابعة لمتحف فنون سيمسون الأمريكي في واشنطن مجموعة كبيرة من الهنود منتقاة من ما يقارب 50 قبيلة. فهناك هنود من قبيلة السو، والكرو، والكيكابو والكومانشي وكثير غيرها، معروضين بشكل رائع بالزي التقليدي الكامل لتلك القبائل، حيث تختلط وجوه رؤساء القبائل بوجوه النسوة الشابات والعرّافين. وتتوسط هذه المجموعة خيمة التيبة، وهي خيمة ضخمة مخروطية الشكل مصنوعة من



جلود الحيوانات، بينما ينبعث في أرجاء الصالة تسجيل للأصوات التي تصدرها قوافل الجواميس الهائجة. وتزيّن جدران المتحف مئات اللوحات الزيتية إضافة إلى التحف اليدوية مثل غطاء رأس الجاموس والنبال والعباءات المطرزة بالخرز وغيرها. ووسط كل هذا يقف رجل أبيض نصفه فنان ونصفه الآخر عارض للفنون كرّس حياته بأكملها للمحافظة، على حد تعبيره، «على مظاهر وتقاليد هذه الأعراق المندثرة للإنسان الأصلي في أمريكا».

وفي معرض «جورج كاتلين ومتحفه الهندي» (الذي افتتح منذ 19 يناير 2003) ،يطالع الزوار مئات الصور العفوية البسيطة التي تحدق بهم بصمت وسكون. ويحتفي هذا المعرض ، الذي يضم أيضا أساليب عرض كاتلين للطقوس الهندية والمناظر الطبيعية للنجود والسهول التي عبرها بالباخرة أو على ظهور الخيل أو بزورق الكنو في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، للمرة الأولى منذ أكثر من قرن مضى بعرض رسوم كاتلين والأدوات التي جمعها معا بذات الطريقة التي عرضها بنفسه بين عامي 1837 - 1850 في صالات عرض الساحل الشرقي وفي لندن وباريس وبروكسل. وقد قضى هذا الفنان الذي حظي بالمديح والذم على حد سواء خلال حياته عام 1872 وهو يتساءل: ماذا سيحل بمتحفي بعد رحيلي؟ ويقول جورج غيرني، الشريك في إدارة هذا المعرض، «في زمانه كان كاتلين يعتبر رساما من الدرجة الثانية ولكنه كان شخصية معقدة ومدهشة»، «وتعتبر مجموعته الفنية للإنسان الأمريكي الأصلي الأضخم من نوعها في المرحلة التي سبقت ظهور المواد التصويرية، إنه لسجل حافل بالفعل».

وإن لم يكن كاتلين الفنان الأول في رسم الهنود الأمريكيين إلا أنه كان أول من صورهم بكثافة في أقاليمهم الخاصة، وأحد القلائل الذين صوروهم على أنهم بشر مثلنا وليسوا وحوشاً. فقد نبع أسلوبه الأكثر واقعية من تقديره العميق لشعب،حسب ما كتب، «غزي وانتهكت كرامته وسلبت أرضه منه وغيّرت عاداته مما أدى إلى ضياعه في هذا العالم».

إن مثل هذه القناعة لم تكن واردة في عام 1830 الذي شهد إصدار قانون ترحيل الهنود الذي أرغم قبائل الجنوب الشرقي على النزوح إلى ما يعرف اليوم بأوكلاهوما بخط مأساوي سمي «قافلة الدموع».

لم يتلق كاتلين تدريبا رسميا ليصبح فنانا إلا أنه ترعرع وكبر على سماع حكايات الهنود من المستوطنين ومن والدته التي اختطفها هي وأمها أحد الهنود الأمريكيين الشماليين عندما كانت في السابعة من عمرها أثناء إحدى الغزوات على ضفاف نهر ساسيكوانا عام 1778 . وأطلق سراحهما لاحقا دون أن يمسهما سوء، وغالبا ما كانت بولي كاتلين تروي لابنها تفاصيل تجربتها.

رغم امتلاك كاتلين لموهبة الرسم (وهو الخامس بين 14 فرداً في العائلة) إلا أنه

تحت إلحاح وضغط والده درس القانون، وفي عام 1820 افتتح مكتباً لممارسة المحاماة قرب مدينة ويلكس-بار في ولاية بنسلفانيا موطئ قدمه عام 1796 (رغم أن العائلة انتقلت للعيش في مزرعة تبعد ٤٠ ميلا عن مدينة نيويورك عندما كان لا يزال رضيعا). ولكن كاتلين وجد نفسه يرسم القضاة وهيئة المحلفين و«المتهمين» في المحكمة، وبعد بضع سنوات باع كتبه القانونية وانتقل إلى فيلادلفيا ليجرب نفسه في مهنة الرسم.

وقد نجح في كسب مهام خاصة لرسم بعض الشخصيات البارزة آنذاك مثل سام هيوستن Sam Houston و دوللي ماديسون Dolley Madison ولكنه كان يعمل جاهدا للارتقاء بفنه إلى هدف أسمى من ذلك. وقد كتب في مذكراته: «إن تفكيري كان يصبو باستمرار للوصول إلى أحد فروع الفن أو العمل أكرس له عمرا بأكمله لخدمته بإخلاص وتفان». وقد نال ذلك حوالي عام 1828 عندما توقف وفد من الهنود في فيلادلفيا في طريقهم إلى واشنطن دي. سي. وبدأ كاتلين بعد أن سحره «جمالهم الكلاسيكي» في البحث عن مواضيع هندية لرسومه المقبلة. وشعر أن «الحضارة» - ولاسيما المشروبات الروحية ومرض الجدري - ستمحي هذه الكائنات البشرية من الوجود، وأقسم أن «لا شيء سوى الموت سيحول دون زيارته لبلدان هؤلاء الهنود وكتابة تاريخهم». ورغم أنه كان حديث الزواج بكلارا غريغوري Clara Gregory، ابنة أحد الأسر المرموقة في مدينة أولباني في ولاية نيويورك، حزم أمتعته وأدوات رسمه في عام 1830 وترك عروسه الجديدة وانطلق إلى الغرب. (ويعرف



(جورج كاتلين) يبدو في الصورة وهو في الرابعة والسبعين من عمره عام 1807 انطلق في مشواره للوصول إلى «كل قبيلة هندية موجودة في قارة أمريكا الشمالية» كي يرسم «صورا صادقة... مناظر قراهم، وألعابهم، وإلى ما هنالك من أمور أخرى» صورة الهندي من قبيلة السو Sioux في معسكره في ميسوري العليا مرتديا زيا مصنوعا من جلد الجواميس (التفاصيل تعود لعام 1832).



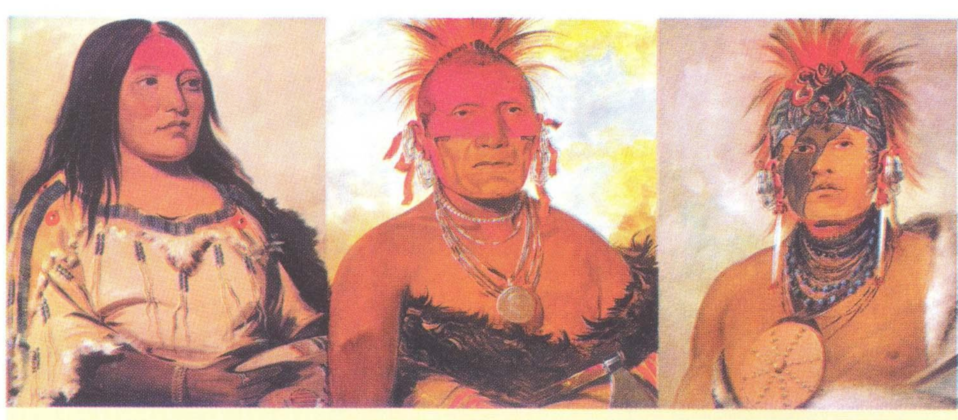
الذئب الصغير، محارب شهير، قبيلة أيوا (1844).

قاتل أفراد قبيلة الأوساج، زعيم القبيلة، ميسوريا، جيويري - ناتوتشي (1832).

الدب الصغير، أحد شجعان قبيلة هونكبابا، السو الغربية، لاكوتا (1832).

عن عائلة كاتلين محبة أفرادها الخالصة لبعضهم بعضاً، وقد كان كاتلين الفنان ممزقا باستمرار بين إخلاصه وحبه لعائلته، التي أصبحت في وقت لاحق مؤلفة من أربعة أولاد، وبين طموحاته الفنية).

كانت مدينة سانت لويس تشكل طرف الحدود الغربية، ولم يمض على وجود كاتلين فيها طويلا حتى حظي بمقابلة أكثر المواطنين شهرة هناك، وهو الجنرال وليام كلارك الذي أصبح المشرف الحكومي على الشؤون الهندية للقبائل الغربية وذلك بعد أن قام باستكشاف منطقة لويزيانا بيرجيس Louisiana Purchase برفقة المستكشف ميريويزر لويس. وقد عرض كاتلين عليه الصور الأولى التي رسمها وطلب منه المساعدة في الاتصال مع الهنود في الغرب. ساورت كلارك الشكوك في البداية إلا أنها سرعان ما تبددت بعد أن أقنعه كاتلين بحسن نيته وراء هذا المطلب. وفي ذلك الصيف اصطحب كلارك كاتلين معه وأبحرا مسافة 400 ميل في نهر المسيسيبي باتجاه حصن كروفورد لحضور اجتماع كانت تعقده هناك عدة قبائل هندية من بينها قبيلة السوك والفوكس والسو. وهناك حيث أصبح محاطا بالجنود الأشداء والهنود العابسين أخرج كاتلين فرشاته وبدأ يرسم. وقد أمضى في الغرب ست سنوات ولكنه كان يعود خلالها إلى أسرته في معظم فصول الشتاء. وخلال تلك السنوات رسم 300 صورة وما يقارب 175 منظرا طبيعيا ومشهدا للشعائر الدينية. وعندما عاد إلى نيويورك عام 1837 عرضها كما تعرض اللوحات في الصالونات، فقد صفها من الأرض إلى السقف، الواحدة فوق الأخرى والصف تلو الصف، معرفا الوجوه المرسومة باسم ورقم، وقد حرص متحف رينويغ على أن يكون أمينا في الحفاظ على



العاقل، المتأنق الكبير، كنساس/كاو (1832).

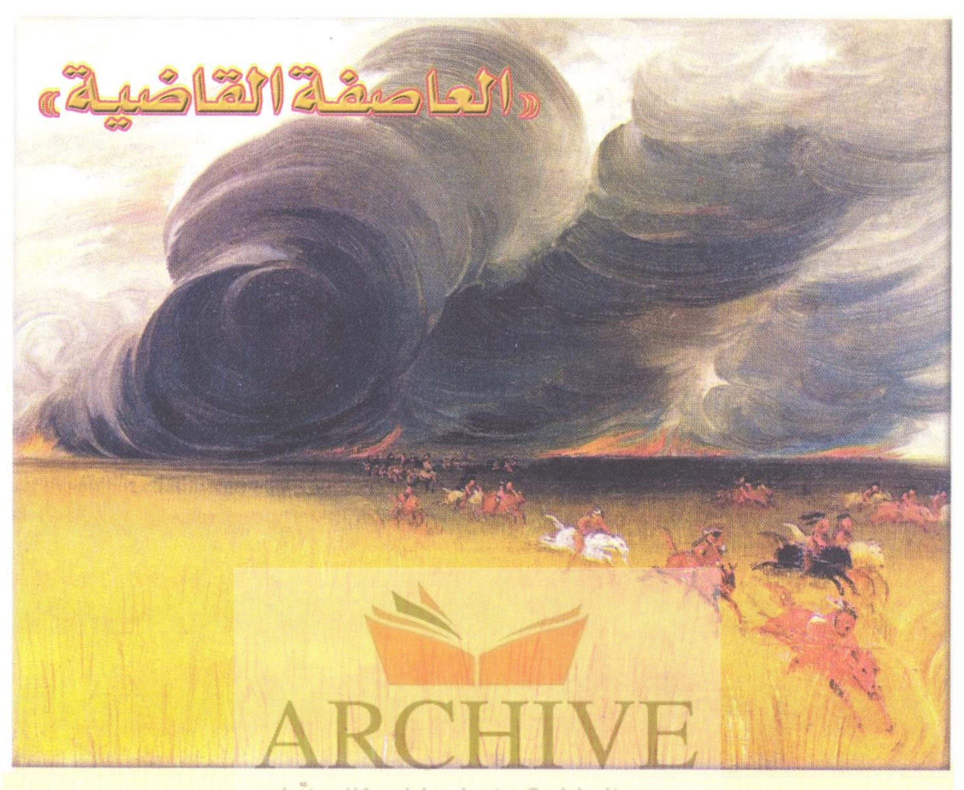
زعيم الفرسان، القائد الأعلى لقبيلة غراند بوني، بوني (1832).

ماسة الكريستال، زوجة زعيم القبيلة، قبيلة بلاك فوت، كايناي (1832).

هذا الترتيب كما كان عليه. فبعد مرور قرن ونصف القرن على ذلك لا يزال هناك شيء من الرهبة والتأثير المباشر في تلك الوجوه المرسومة. فمن اللمحة الأولى تبدو عليها نظرة إدانة وكأنها تتحدانا بالنظر إليها دون الشعور بالذنب، ولكن بعد التأمل بها لبرهة وجيزة تظهر الوجوه أقل تمنعا. وقد سمى كاتلين متحفه «مجموعة أصحاب السمو في الطبيعة»، وما يجعل بعض هذه الشخصيات بارزة بالفعل هو هذا السمو والرفعة التي ظهرت فيها. فزعيم قبيلة السوك والفوكس كي - أو - كوك يقف شامخا باعتزاز وهو يحمل فأسا ودثارا وعكازا. أما المحارب (ثور البوفالو) لا - دو - كيا من قبيلة البوني يقف منتصبا بكل اعتداد بألوانه الاحتفالية الكاملة. ولا تقل المناظر الطبيعية التي رسمها كاتلين إثارة للعواطف عن رسوم الوجوه حيث صوّر فيها الأنهار العذبة والتلال المنحدرة وكأنها تهبط من السماء.

وكان الصحفيون خلال سيرته الفنية يميلون لمدح أعماله رغم أن بعض نقّاد الفن كانوا يعتبرونه «أمريكيا بدائيا» ويعتبرون فنه «ناقصا في الرسم والمنظور والصقل». وما كان مثيرا للجدل هو موقفه من شعب كان في نظر معظم الأمريكيين في ذلك الوقت يعتبرون أناساً بدائيين. فقد شجب كاتلين استخدام هذا المصطلح ونعته بأنه «إساءة استخدام للكلمة وظلم في حق الأناس الذين وصفوا بها». فقد مدح الهنود بأنهم «شرفاء وكرماء وصادقون...» وانتقد الحكومة وتجار الفراء معا بسبب معاملتهم السيئة لهؤلاء السكان الأصليين للبلد. فقد كتب قائلا: «لقد أصبح المجتمع الهندي أدنى منزلة وأكثر فقرا وتغيرت شخصيتهم بالتعليم المتحضر مما أثار ضغينتهم... بسبب سوء المعاملة الممارسة فيما بينهم».

وإن كان كاتلين في حياته قد أثار الجدل



كاتلين، الذي اتهمه البعض باستغلال الهنود الذين رسمهم، يصور هذه اللوحة «العاصفة الغاضبة» في عام (1832).

بسبب حمله لواء الدفاع عن قضايا الشعب الأمريكي الأصلي، فهو اليوم متهم على حد سواء بأنه استغل هذا الشعب. فعلى حد تعبير السيد دبليو ريتشارد ويست مدير المتحف الوطني السميشونيان Smithsonian للهنود الأمريكيين الذي ينتمي أيضا إلى قبائل التشيني والأرافو: «باعتقادي أن المواطن الأصلي مجبر بأن لا يشعر في أعماقه بشيء من الامتعاض تجاه كاتلين، فولعه الكبير بتصوير الهنود له بالغ الأثر في ذلك». أما بشأن الترويج الدؤوب لمتحفه

يضيف ويست: «لا شك أنه كان يستغل الهنود والغرب كسلعة. ولكن من ناحية أخرى، كان قد سبق عصره في اعتناقه الشغوف لقضية الهنود. فقد سبح كاتلين عكس التيار ليخرج إلى النور معلومات عن الهنود تصورهم بدقة بأنهم أناس مهمون ويمتلكون ثقافات مميزة ومهمة».

وما هو رأي الرجال والنسوة الذين رسمهم كاتلين بذلك؟ لقد تفاوتت ردود الأفعال بشأن أعمال كاتلين من قبيلة لأخرى، فقد تنبأ العرافون في قبيلة السو بأن من



مروج لنفسه جريء، اشترى كاتلين جلد الدب هذا من أحد عرافي قبيلة بلاك فوت/سيكسيكا وارتداه ليضيف مزيدا من الحيوية على العرض في متحفه.

رسمهم كاتلين في لوحاته سيلقون نتائج وخيمة جراء ذلك، أما عرافو قبيلة البلاك فوت فلم يترددوا على الإطلاق في تقديم أنفسهم كمادة للرسم. وقد سمته قبيلة الماندان، التي بهرتها قدرة كاتلين على تصوير الأشخاص بشكل يطابق الأصل، بالعراف الأبيض. وفي أحيان أخرى كانت رسومه تثير المشاكل. ففي إحدى المرات كان بين أفراد قبيلة هونك بابا سو الواقعة على نهر ميسوري ورسم وجه زعيم القبيلة بشكل جانبي، وعندما قاربت اللوحة على الانتهاء رآها أحد المنافسين لزعيم القبيلة وانتقده باستهزاء قائلا: «(الرسام) يعرف أنك لست سوى نصف رجل لذا لم يرسم إلا نصف وجهك». ولكن زعيم القبيلة تجاهل هذه الإهانة وعندما انتهت اللوحة أهدى كاتلين قميصا مصنوعا من جلد الغزال ومطرزا بأشواك قنفذ الشيهم. غير أن هذه الإهانة أدت إلى نشوب حرب داخلية بين القبائل راح ضحيتها العديد من أبناء هذه القبائل. وقد ألقت قبيلة السو اللوم على كاتلين وأدانته بالموت، ولكنه وقتها كان قد انتقل إلى مناطق



في عام 1879، أعطي متحف كاتلين الهندي (الذي يضم 450 صورة، وحوالي 160 تحفة يدوية أبدعها وجمعها على مدى السنوات الست التي قضاها في تصوير القبائل في الغرب) إلى معهد سميثسونيان Smithsonian وعرضت هناك (في الصورة أعلاه) من عام 1883 حتى عام 1890. لقد تم اتباع أسلوب عرض الصالونات في المعرض الحالي (الصورة أدناه) في متحف رينويغ (اعتبارا من 19 يناير 2003).



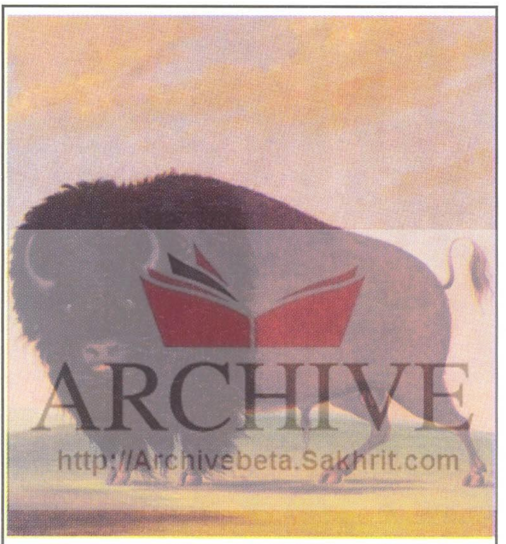


وقد قام رجل المعارض الدائم كاتلين باستئجار الهنود (من قبيلة أوجيبوي مثلا المصورين عام 1851) لتقديم العروض في معارضه، كما كان يروج لمحاضراته عن طريق القصاصات الدعائية المطبوعة

أبعد قرب منبع النهر.

وخلال السنوات الست التي قضاها كاتلين في تلك السهول نجا من هلاك الإصابة بالحمى التي قضت على مرافقيه من الجند. (وفيما بعد روّج أسفاره في كتابات مسهبة نشرها في كتيبات خاصة بالرحالة). رغم أن معظم أعماله الأولى أنجزت على مسافة بضع مئات من الأميال بعيدا عن سانت لويس، قادته إحدى الرحلات إلى مكان لم تؤمه إلا قلة قليلة من البيض. ففي ربيع عام 1832 حجز لنفسه مضجعا على باخرة تدعى يلو ستون Yellow Stone (الماسة الصفراء) كانت ستنطلق من سانت لويس في رحلة تصل إلى 2000 ميل في مجرى نهر ميسوري. وكلما وصلت الماسة الصفراء إلى إحدى المستوطنات الهندية كانت تطلق قذائف مدافعها لترهب السكان الأصليين الذين كانوا يرتمون على الأرض أو يقدمون ذبائح الماشية تضحية لإرضاء الآلهة. وقد كان كاتلين مبهورا بهذه «المشاهد التي تذيب الفؤاد»، فقد رأى قطعان الجواميس والظباء والأيائل وهي تجوب «بلادا شاسعة من المروج الخضراء كل الرجال فيها من الهنود الحمر». لقد أنجز كاتلين خلال ثلاثة

أشهر في نهر ميسوري لا يقل عن 135 لوحة صوّر فيها الشخصيات والوجوه تاركا التفاصيل لينهيها في وقت لاحق. وفي شهر يوليو، قرب ما يعرف اليوم باسم بسمارك، شمال داكوتا، أصبح كاتلين أحد البيض القلائل الذين شهدوا الطقوس التعذيبية الخاصة بالخصوبة التي كانت قبيلة الماندان تمارسها، المعروفة باسم أوكيبا O-kee-pa وهي تتطلب تعليق الشبان من أعلى قمة كوخ العلاج بحبال مربوطة بسهام مغروزة في صدورهم. وعندما عرض كاتلين رسومات هذه الشعائر بعد خمس سنوات أثار ذلك الشك في مصداقيتها. وقد علّق أحد الصحفيين المخضرمين على ذلك قائلا: «لعل هذه المشاهد التي رسمها كاتلين ليست إلا ضربا من الخيال أبدعته بنات أفكاره». ورغم أن كاتلين لم يتمكن من إثبات ما شاهده بسبب مرض الجدري الذي أصاب قبيلة الماندان وأبادها عن بكرة أبيها بعد فترة وجيزة من زيارته لها، قامت بحوث أجريت لاحقا بتوثيق وتأكيد رسوماته الصارخة هذه.



انغمس كاتلين بشغف في النشاطات الهندية إلى درجة شارك فيها في جولات صيد الجواميس. ثيران البوفالو ترعى في المروج (التفاصيل) صورت حوالي عام 1833.

وفي عام 1836 أصرّ كاتلين - رغم الاحتجاجات الشديدة لكبار قبيلة السو - على زيارة مقلع الحجر الأحمر المقدس الذي يزود الهنود بأكر الغليون الذي يستخدمونه في احتفالاتهم الشعائرية إذ لم يقبل أي من الهنود في اصطحابه إلى هناك، كما رفض ذلك أيضا تجار الفراء لغضبهم منه بسبب رسائله التي نشرها في الصحف يدينهم فيها على إفسادهم للهنود. وهكذا قرر كاتلين السفر مع مرافق مسافة 360 ميلاً ذهابا وإيابا ركوبا على ظهر الخيل.

ويحمل حجر الغليون الأحمر الفريد الذي وجده هناك اليوم اسم كاتلينايت catlinite. وكتب كاتلين: «يشعر المرء هنا بإحساس غامر وبعنفوان الحرية اللامحدودة، فهناك شعر في هواء المكان ذاته».

ما عدا خلافه حول زيارة المقلع، أقام كاتلين علاقات طيبة مع مختلف مستضيفيه.



كبرهان على دقة فنه كان كاتلين في بعض الأحيان يكتسب التحف المصنوعة يدويا (مثل مهد الطفل هذا التابع لقبيلة السو) من الأشخاص الذين يصورهم. وكان أثمن ما امتلكه قميصا (ربما فقد لاحقا) أهداه إياه زعيم قبيلة الماندان المسمى الدبب الأربعة وهو يشبه القميص في الصورة أعلاه (من المحتمل أن يكون الفنان ابتدع هذا الشكل).

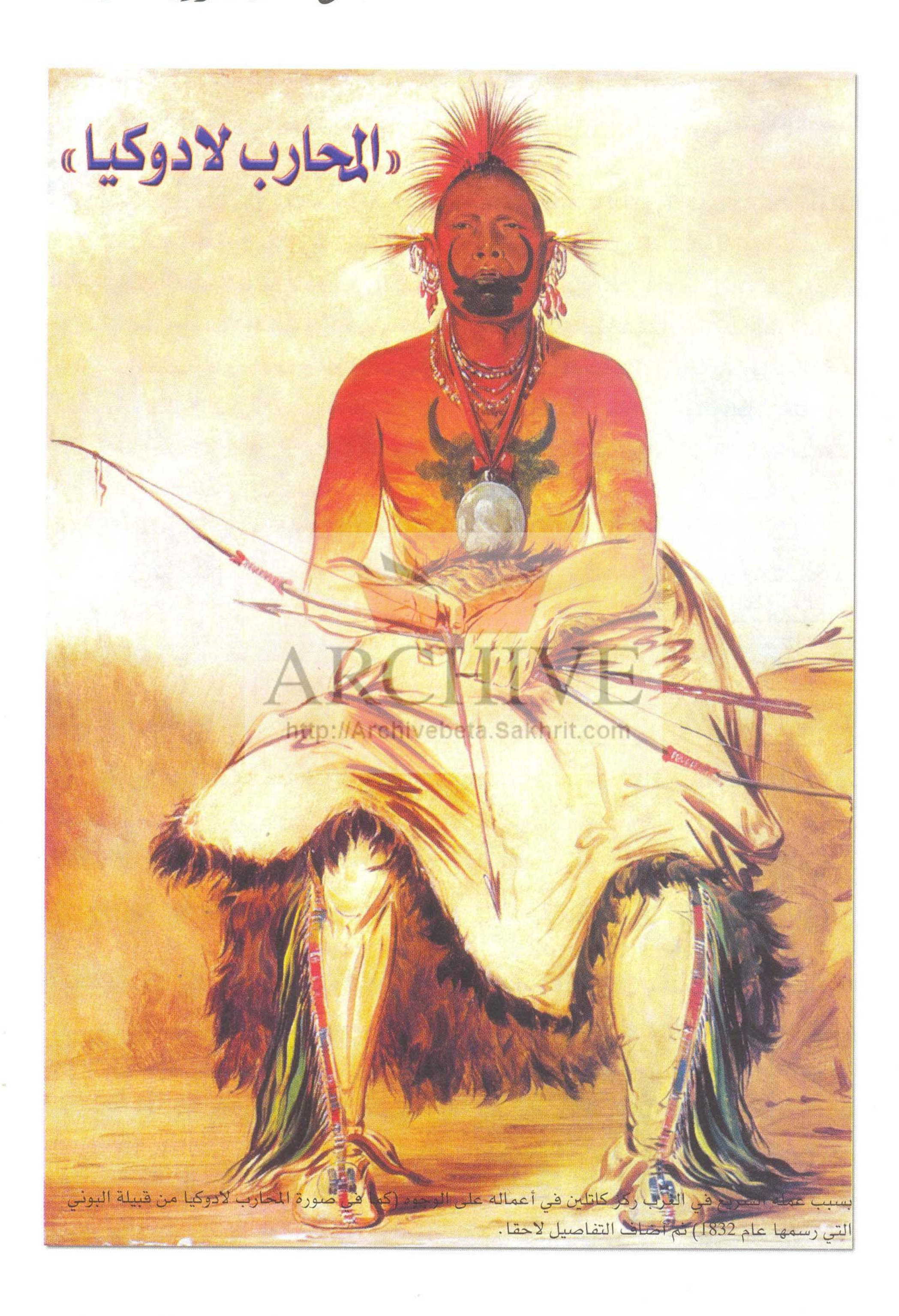
فقد اصطحبوه إلى أراضي خصومهم ودعوه لولائم لحم الكلاب، وذيل حيوان القندس ذي الفرو الثمين، ولسان الجاموس. وكتب كاتلين فيما بعد: «لم يخني أحد الهنود قط، ولم يصفعني أحد أو يسرق مني ولو ما قيمته درهم واحد من ممتلكاتي الخاصة». وفي عام 1836، آخر سنواته في الغرب، زار كاتلين 48 قبيلة. لقد كان مستعدا لقضاء بقية حياته جاهدا لتسويق أعماله ولو قاده ذلك إلى حافة الهلاك.

وفي الثالث عشر من سبتمبر من عام 1837 أعلنت الجريدة الإعلانية التجارية في نيويورك عن افتتاح معرض يقدم محاضرات لكاتلين، وصورا هندية، «إضافة إلى أزياء الهنود الرائعة ورسوم لقراهم، ورقصاتهم، ومطارداتهم للجواميس، وطقوسهم الدينية.. وغيرها». وقد كان رسم الدخول لقاعة كلينتون في مدينة نيويورك 50 سنتا، وكانت هناك جموع من البشر تصطف لدفع رسم الدخول. وعندما انتهى المعرض بعد ثلاثة أشهر، تنقل الفنان بمعرضه في المدن الواقعة على طول الساحل الشرقي. ولكن بعد سنة بدأ الجمهور يتناقص ومر كاتلين بظروف عصيبة وقاسية. وفي عام 1837 حاول بيع معرضه للحكومة الفيدرالية، ولكن الكونجرس تباطأ في تمرير الصفقة. ولذلك قام كاتلين في شهر نوفمبر من عام 1839 - وزوجته كلارا التي كانت تتوقع قدوم وليدها الثاني واعدة أن تنضم إليه في السنة المقبلة، بحزم مجموعته الفنية بما في ذلك خيمة التيبة واثنين من الدببة الأحياء وأبحر متجها إلى إنجلترا.

وفي لندن وبروكسل ومتحف اللوفر في باريس كان كاتلين يملأ القاعات بمعرضه عن «الغرب البري» ويستأجر بعض الممثلين المحليين ليصدروا الأصوات وهم يرتدون ملابس من الريش وملونون بألوان الحرب ويقدمون عروضا صامتة لبعض المشاهد والرسوم. ومع مرور الوقت انضمت إليه عدة مجموعات من الهنود (21 من قبيلة أوجيبوي و14 من قبيلة أيوا) كانوا يجولون أوروبا مع مروجي المعرض. ولقد أعجب بأعمال كاتلين الفنية بعض المشاهير أمثال جورج ساند وفيكتور هوجو وتشارلز بودلير. ولكن الجمهور العام كان يفضل العروض الحية للهنود وخاصة بعد أن أقنع كاتلين الهنود الذين انضموا إليه من قبيلتي أوجيبوي وأيوا إعادة تمثيل جولات الصيد والرقصات وحتى مشاهد سلخ فروة الرأس. وفي عام 1843 قُدم كاتلين إلى الملكة فيكتوريا في لندن وبعدها بسنتين إلى الملك لويس - فيليب في فرنسا. إلا أن استئجار صالات العرض، ونقل ثمانية أطنان من الرسوم والتحف الفنية، وإعالة حاشيته الهندية إضافة إلى عائلته التي أصبحت عام 1844 مؤلفة من ثلاث بنات وصبي واحد، أبقت الفنان رازحا تحت كاهل الديون بشكل أبدي. وفي عام 1845 في باريس أصيبت زوجته المخلصة طوال 17 عاما بمرض ذات الرئة الذي أودى بحياتها. وبعدها أصيب مرافقوه من قبيلة أوجيبوي بداء الجدري الذي أودى بحياة اثنين منهما فيما عاد الآخرون إلى ديارهم. وفي السنة التالية قضى ابنه ذو الثلاث سنوات جراء إصابته بمرض التيفوئيد.

لكتابه حول أسفاره في الغرب، صور كاتلين نفسه وهو يرسم زعيم القبيلة الدبب الأربعة. يقول بعض النقاد إن الحيوية في رسومه تعوض عن اللمسات الفنية المفقودة فيها.

وفي عام 1848 رجع كاتلين وبناته إلى لندن حيث حاول كسب التأييد والمؤازرة وذلك بتنصيب معرضه على ظهر سفينة - كنوع من «متحف بشري» عائم - يزور فيها الموانئ البحرية المتواجدة على سطح المعمورة. غير أن حلمه لم يتحقق وبدأ يحاضر حول هجرة الناس الكبيرة نحو منابع الذهب في كاليفورنيا، وباع نسخا من رسومه بينما كان يستخدم الرسوم الأصلية كرهائن



بسبب عمله السريع في الغرب ركز كاتلين في أعماله على الوجوه (كما في صورة المحارب لادوكيا من قبيلة البوني التي رسمها عام 1832) ثم أضاف التفاصيل لاحقا.

لسحب القروض. وفي عام 1852 نفذت موارده المالية وأودع كاتلين وهو في السادسة والخمسين من عمره في سجن لندن للمديونين. وجاء شقيق زوجته لاصطحاب بناته الصغار والعودة بهم إلى أمريكا. وكتب هذا الرسام المحبط فيما بعد أنه «لا يمتلك أي شيء على وجه الأرض سوى يديه وريشته وأقل من نصف حياة على أبعد تقدير تنتظره». وللمرة الثانية عرض متحفه للبيع (الذي قال عنه السيناتور دانييل وبستر «إنه أكثر أهمية بالنسبة لنا من استكشاف القطب الجنوبي أو أي شيء آخر يمكن استكشافه في البحر الميت..») لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن الكونجرس كان يعتقد أن السعر مرتفع جدا رغم تخفيض كاتلين السعر من 65000 دولار إلى 25000 دولار.

أخيرا في أواخر صيف ذلك العام قام أحد كبار الأثرياء في بنسلفانيا وهو مليونير السكك الحديدية السيد جوزيف هاريسون، الذي أودع لديه كاتلين إحدى لوحات الفنان التاريخي الأمريكي بنيامين ويست، قام بسداد ديون كاتلين كافة، وامتلك متحفه لقاء 20000 دولار، ونقله من لندن إلى فيلادلفيا. وبقيت المجموعة الفنية مودعة في مصنع هاريسون لسخانات المياه، بينما تردد كاتلين على زيارة باريس وفي جعبته حفنة من الألوان المائية وبضع نسخ أصلية من لوحاته كان قد أخفاها عن عيون الدائنين، وانطلق ليبني حياته من جديد ومتحفه. وبين أعوام 1852 و1860 تنقل بين أوروبا والشمال الغربي للمحيط الهادي وأمريكا الوسطى وهو يرسم الهنود من الأمازون إلى باتاغونيا، فهل قام بذلك حقا؟ فهناك بعض العلماء الذين يشكون في أنه غادر أوروبا وذلك نظرا لفداحة الروايات والافتقار للتوثيق. على أية حال، كان هذا الفنان العنيد قد أكمل مع حلول مطلع عام 1870 ما يقارب 300 لوحة للهنود في أمريكا الجنوبية وأعاد إحياء بعض مسودات الرسوم الأصلية لصور متحفه الهندي التي تصل إلى 300 لوحة. وقبل أن يعود إلى أمريكا في عام 1870 كتب لأخيه قائلا: «الآن أنا جورج كاتلين الحقيقي مرة أخرى». وعرض «متحف الرسوم التمهيدية»، وهو الاسم الذي أطلقه على رسومات جنوب أمريكا وأعماله اللاحقة، في نيويورك عام 1871 ولكنه لم يلق قبولا كبيرا لدى الجماهير. ولكن المعرض، رغم ذلك، أكسب كاتلين حليفا قويا عندما نقله إلى معهد سميثسونيان Smithsonian في أواخر ذلك العام.

ورغم أن أمين المعهد السميثسوني السيد جوزيف هنري كان يعتقد أن رسوم كاتلين «لا قيمة فنية كبيرة لها»، إلا أنه كان بحاجة إليها وذلك لأن حريقا شب في المعهد وأتلف معظم مجموعته الفنية للرسوم الهندية (من أعمال جون ميكس ستانلي، وتشارلز بيرد كينغ). قدم هنري لكاتلين الدعم والمأوى، وقد مكث هذا الفنان الذي ناهز عمره منتصف

السبعينيات وقد ابيضت لحيته وبدأ يستند إلى عكاز للمشي مدة تسعة أشهر في قلعة معهد Smithsonian . وفي نوفمبر من عام 1872 غادر كاتلين واشنطن للعيش مع بناته في نيوجرسي. وقد وافته المنية هناك بعد شهرين وهو في سن السادسة والسبعين. ومن بين الكلمات الأخيرة التي قالها: «ماذا سيحل بمتحفي؟» بعد سبع سنوات من رحيله قامت أرملة هاريسون بتقديم الأعمال التي ورثتها عن زوجها هبة لمعهد Smithsonian، (وهي تتضمن حوالي 450 لوحة من رسوم كاتلين الأصلية، وكمية كبيرة من جلود الغزلان والفراء والهراوات الحربية والغلايين وكثير غيرها ما يكفي لملء ثلث شاحنة كبيرة). وقد عرض المتحف هناك لمدة سبع سنوات ابتداء من عام 1883 وهو آخر معرض عام شامل للتحف اليدوية والرسوم حتى خريف هذا العام. معظم الأعمال المعروضة الآن في متحف رينويغ هي من الأعمال الأصلية، ولكن هناك بعض النسخ من مجموعته التمهيدية التي أعيدت في النهاية إلى بناته والتي اشتراها فيما بعد أحد مقتني التحف السيد بول ميللون الذي بدوره وهب معظمها للمتحف الوطني للفنون.

وتبقى سمعة كاتلين اليوم مشوشة كما كانت عليه دائما إذ يقول الشريك في أمانة المتحف السيد غورني «قد ينتهي المطاف باعتبار كاتلين رساما من الدرجة الثانية إلا أن لوحاته تحمل في طياتها كل الحيوية والمباشرة التي توازي أية أعمال أخرى». لا شك أن إسهامه الأكبر كان في دوره البارز في المساعدة على تغيير المفهوم السائد عن الأمريكيين الأصليين. فقد كتب: «قد يحزن الفن عندما يرحل هذا الشعب عن وجه الأرض، وقد يبحث فنانو العصور القادمة ولكن دون جدوى عن عرق آخر يمتلك تلك الفتنة والروعة في الأزياء والأسلحة والألوان الألعاب الرجولية والمطاردة».



التجريب الاستكشافي: غوته، لاند، ونظرية اللون

بقلم: نيل رايب، فريدريك تينل *

ترجمة: معين رومية

مراجعة: د. عدنان جرجس

العنوان الأصلي للمقال:

Exploratory Experimentation: Goethe, Land, and Color Theory

ونشر في مجلة **Physics today**، المجلد **55** العدد **7** يوليو **2002**

رغم أن أسلوب الاستقصاء الذي مثلته تجارب غوته على اللون لم ينل في الغالب حقه من التقدير، لكنه كان يثبت جدارته مرة بعد مرة، استمر كتاب نظرية الألوان theory of colors لجون ولفغانغ غوته في سحر ألباب الفيزيائيين طوال أكثر من قرنين منذ أن نشر في عام 1801.

* نيل رايب Neil Ribe: باحث في مجموعة العمل حول ديناميك المنظومات الجيولوجية في معهد الجيوفيزياء في باريس. فريدريك ستينل Friedrich Steinle: زميل باحث في معهد ماكس بلانك لتاريخ العلم في برلين، ألمانيا. يعمل حاليا في جامعة سويسرا.

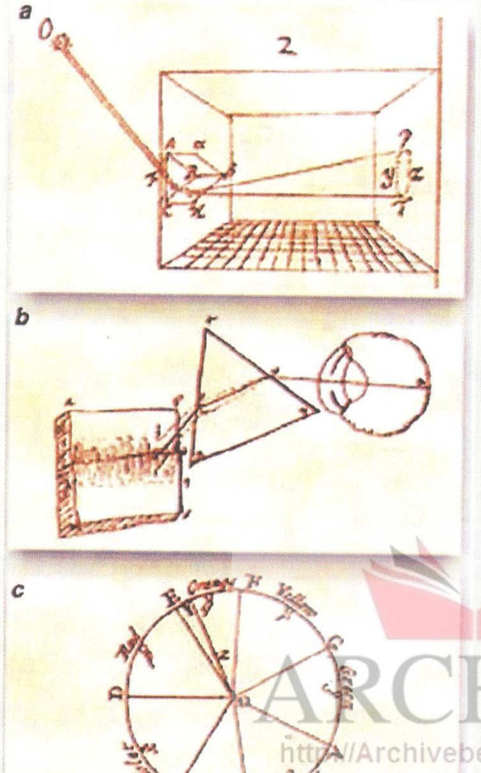
ومن بين الذين كتبوا مقالات مهمة عن غوته، كل من هيرمان فون هلموهلتز وفيرنر هايزنبرغ ووالتير هيتلر وكارل فريدريك فون ويساكر. ومؤخرا قام مايكل فيغنباوم، العالم في نظرية الشواش (1)، بمراجعة عمل غوته واكتشف مذهولا أن «غوته قد أجرى فعليا مجموعة استثنائية من التجارب في استقصائه عن الألوان»، ليس هذا فقط، بل إن فيغنباوم توصل إلى القناعة بأن «غوته كان على حق في مسألة اللون!».

إننا نتفق مع فيغنباوم على أن التجارب التي تضمنها كتاب نظرية الألوان هي ما أعطى لعمل غوته أهميته الدائمة. في هذه المقالة، نقترح أن غوته كان ممثلا لافتا لأسلوب البحث الذي ندعوه التجريب الاستكشافي exploratory expermentation. فعلى الرغم من أن مؤرخي وفلاسفة العلم قد تجاهلوا طويلا التجريب الاستكشافي إلا أنه لعب دورا جوهريا في تاريخ الفيزياء. ومن بين بحوث أخرى، اتبعت استقصاءات مايكل فاراداي عن الكهرباء المغناطيسية المنهج الاستكشافي، وقد ناقشناهما في الملحقين 1 و2، إلا أننا سوف نسرد في صلب هذه المقالة قصة التجريب الاستكشافي من خلال النظر في استقصاءين عن اللون من فترتين تاريخيتين مختلفتين. تجارب غوته على الألوان الموشورية وتجارب إدوين لاند على رؤية اللون. وكي نفهم بالضبط عملهما، ينبغي أن ندرس أولا مثالا كلاسيكيا يتبع منهجا مختلفا تماما لفهم اللون. ألا وهو منهج إسحق نيوتن.

المنهج التجريبي لنيوتن

أعلن نيوتن للمرة الأولى «نظريته الجديدة حول الضوء والألوان» في رسالة شهيرة بعث بها إلى الجمعية الملكية في لندن. وقد وصف فيها تجارب عديدة من بينها التجربة الكلاسيكية - انظر الشكل 1.a - التي تتكسر فيها حزمة من ضوء الشمس بوساطة الموشور مما يؤدي إلى ظهور طيف ملون مستطيل الشكل على جدار، وانطلاقا من ملاحظته أن الصورة الناتجة لم تكن دائرية كما هو حال حزمة الضوء الأصلية، فقد استنتج نيوتن مبادئ نظريته الجديدة: إن الضوء الشمسي مزيج من الأشعة ذات «قابلية انكسار refrangibility» متباينة، وإن الألوان ليست «أوصافا للضوء.. بل خصائص أولية أصلية»، ويمكن أن تكون الألوان إما بسيطة أو مركبة. كان العنصر الجوهري في نظرية نيوتن يكمن في توسيعه للمفهوم التقليدي للشعاع عندما ربطه مع درجة محددة من قابلية الانكسار. وقد خدم اعتماد نيوتن على هذا المفهوم الجديد كدليل لتفسير تجاربه، وكذلك في إقصاء التفسيرات المنافسة. وكان من أهم هذه التفسيرات تلك

(1) نظرية الشواش chaos theory: من أحدث الفروع العلمية وتعالج التعقيد في المنظومات الطبيعية. وقد امتدت تطبيقاتها لتصل إلى العلوم الاجتماعية أيضا - المترجم.



الشكل (1)

توضح مخططات إسحق نيوتن بعضا من استقصاءاته عن اللون. (a) حزمة دائرية من أشعة الشمس تتكسر عبرَ موشور وتنتج صورة مستطيلة الشكل. استنتج نيوتن، من هذه التجربة ومن تجارب أخرى، أن اللون خاصة كامنة في الضوء، وأن كل لون طيفي له درجته الخاصة من قابلية الانكسار، وأن الألوان يمكن أن تكون بسيطة أو مركبة (الصورة مأخوذة من مخطوطة 4002. Add Cambridye.U.1.buary). (b) شوهدت أهداب ملونة على الحد الفاصل بين مساحتين مختلفتي اللون على لوحة كرتون. (مأخوذة عن مخطوطة و3996. Add مكتبة جامعة كامبريدج). (c) دائرة نيوتن للون. تتناسب حجوم القطاعات السبعة مع الفواصل في السلم الموسيقي الدياتوني(2) diatonic. توضح الدائرة حساب «مركز جاذبية» اللون المركز الذي ينتج عن مزج ألوان الطيف. إن مساحات الدوائر v، t، s، x وx متناسبة مع «عدد الأشعة» من كل لون في المزيج. إن مركز الجاذبية هو النقطة z وزاوية سمته تتنبأ بلون المزيج، ونصف قطره، بدرجة إشباع اللون. (المرجع 5).

النظريات التي تعزو اللون إلى نوع من التعديل يطرأ على الضوء خلال انكساره، كأن يمتزج بالظلال، أو (كما افترض رينيه ديكارت) أن يخضع معدل دوران الجسيمات الضوئية لتباطؤ احتكاكي. لقد نسب نيوتن إلى تجاربه قوة إثبات استثنائية: فنظريته، كما قال في رسالته، ليست فرضية، بل نتيجة صلبة إلى حد بعيد، «إذ لم يؤخذ بها تخمين لأنه ليس ثمة نتيجة أخرى غيرها أو لأنها تفي بكل الظواهر... بل لقد ثبتت بتوسط التجارب واستنتجت منها مباشرة ومن دون أدنى ريب». وفي الواقع، فقد اختار نيوتن أن يصمم كتابه اللحق البصريات Opticks على غرار كتاب العناصر لإقليدس، فكل قضية مركزية فيه اتبعها «ببرهان من التجربة».

تكشّف دور الافتراض المسبق في عمل

(2) السلم الموسيقي الدياتوني (يسمى السلم الكبير major scale): هو السلم الطبيعي في الموسيقا وتكون فيه الفواصل بين العلامات الصوتية فواصل طبيعية - المترجم.

نيوتن على البصريات من خلال دفتر ملاحظات أقدم عهدا (1664 - 65) يعطي صورة أكثر مصداقية عن ممارسته البحثية من تلك الرسالة المكتوبة بعناية في عام 1672. كتب نيوتن: (في دفتر الملاحظات) أنه عندما نظر من خلال الموشور إلى لوحة كرتون طلا نصفيها بلونين مختلفين، فقد لاحظ أهدابا ملونة على الحد الفاصل بين النصفين، كما هو واضح في الشكل 1.b غيّر نيوتن ألوان النصفين ودوّن في جدول ألوان الأهداب الناتجة. وقد ربط هذه الملاحظات مع اعتبارات تقول إن سرعات مختلفة «للكريات» الضوئية تسبب إحساسات لونية مختلفة. من الواضح أن النظرية الجسيمية في الضوء شكلت الأساس لتجارب نيوتن وخدمت في توجيه تصميمها وفي تأطير نتائجها نظريا. فعلى سبيل المثال، تضمنت الفرضية الجسيمية أن الأشعة الأسرع ستكون أقل انكسارا بوساطة الموشور من الأشعة الأبطأ لأنه من المتوقع أن تتعرض لتأثير الموشور زمنا أقصر.

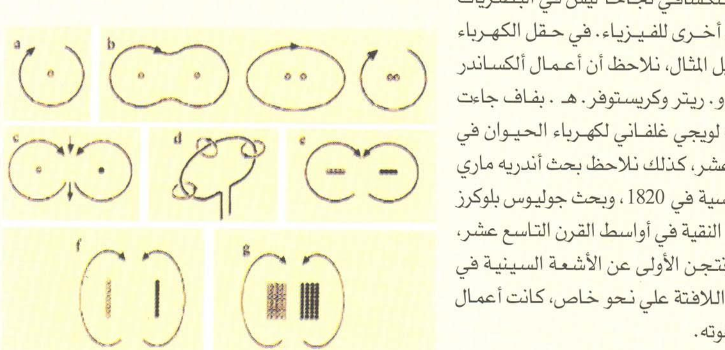
على عكس غوته ولاند، لم يكن نيوتن مهتما في المقام الأول باللون بحد ذاته، بل اعتبره مؤشرا لخصائص رياضياتية أكثر تجريدا لأشعة الضوء. فمن بين عدة قضايا في كتاب البصريات تتعامل مع اللون بحد ذاته، ثمة واحدة (الكتاب الأول، الجزء 2 القضية 6) تقترح إجراء هندسيا لتحديد اللون المركب الذي ينتج عن مزج ألوان طيفية بسيطة. ويوضح الشكل 1.c دولاب الألوان الذي استخدمه نيوتن لهذا الغرض. ومع ذلك، فقد بقيت من دون توضيح كيفية تحديد «العدد النسبي للأشعة» من كل لون في المزيج، وقد اعترف نيوتن أنه لم يكن قادرا على استخراج اللون الأبيض من مزج لونين على الرغم من أن مخططه يتنبأ بهذه الإمكانية. لكن هذه الإخفاقات لم تقلقه: إن مشكلات مزج الألوان هذه، كما كتب ملاحظا، كانت «أمورا غريبة قليلة أو عديمة الأهمية في فهم ظواهر الطبيعة».

تجارب غوته على اللون

إن الاهتمام العلمي لغوته باللون استحثته الظواهر البصرية الطبيعية والتقاليد التلوينية للتصوير الزيتي في عصر النهضة والتي اطلع عليها خلال زيارته الأولى إلى إيطاليا (1786 - 88). وقد نشر كتاب غوته الأول حول نظرية اللون إسهامات في البصريات contributions to optics بعد سنين عدة من تلك الرحلة. تمحور كتاب الإسهامات على سلسلة من التجارب كان غوته ينظر فيها من خلال الموشور إلى صور متنوعة مرسومة على ورقة. وكما هي الحال مع نيوتن من قبله، فقد لاحظ أهدابا ملونة على الحدود الفاصلة، ولكن على خلاف نيوتن، غير غوته بانتظام الشروط التجريبية - الشكل، الحجم، اللون، اتجاه الصور، زاوية انكسار الموشور، وبعد الموشور عن الصورة - وذلك كي يحدد كيف كانت تؤثر على ما رآه.

ملحق 1

أثبت التجريب الاستكشافي نجاحا ليس في البصريات وحسب، بل في ميادين أخرى للفيزياء. في حقل الكهرباء والمغناطيسية، على سبيل المثال، نلاحظ أن أعمال ألكساندر فون همبولدت وجوهان. و. ريتر وكريستوفر. هـ. بفاف جاءت كرد فعل على اكتشاف لويجي غلفاني لكهرباء الحيوان في تسعينيات القرن الثامن عشر، كذلك نلاحظ بحث أندريه ماري أبير المبكر حول الكهرطيسية في 1820، وبحث جوليوس بلوكرز حول التفريغ في الغازات النقية في أواسط القرن التاسع عشر، واستقصاءات ويلهلم رونتجن الأولى عن الأشعة السينية في العام 1895. لكن الحالة اللافتة على نحو خاص، كانت أعمال مايكل فاراداي المعاصر لغوته.

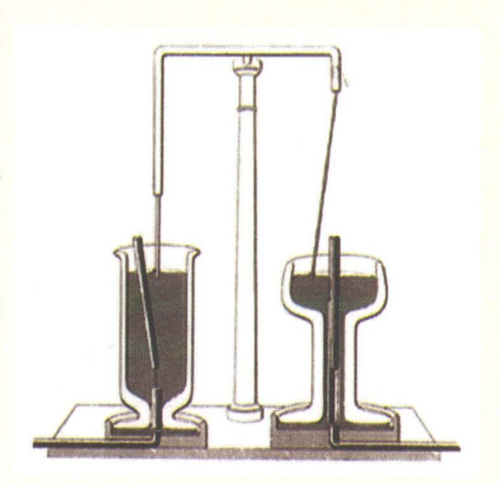


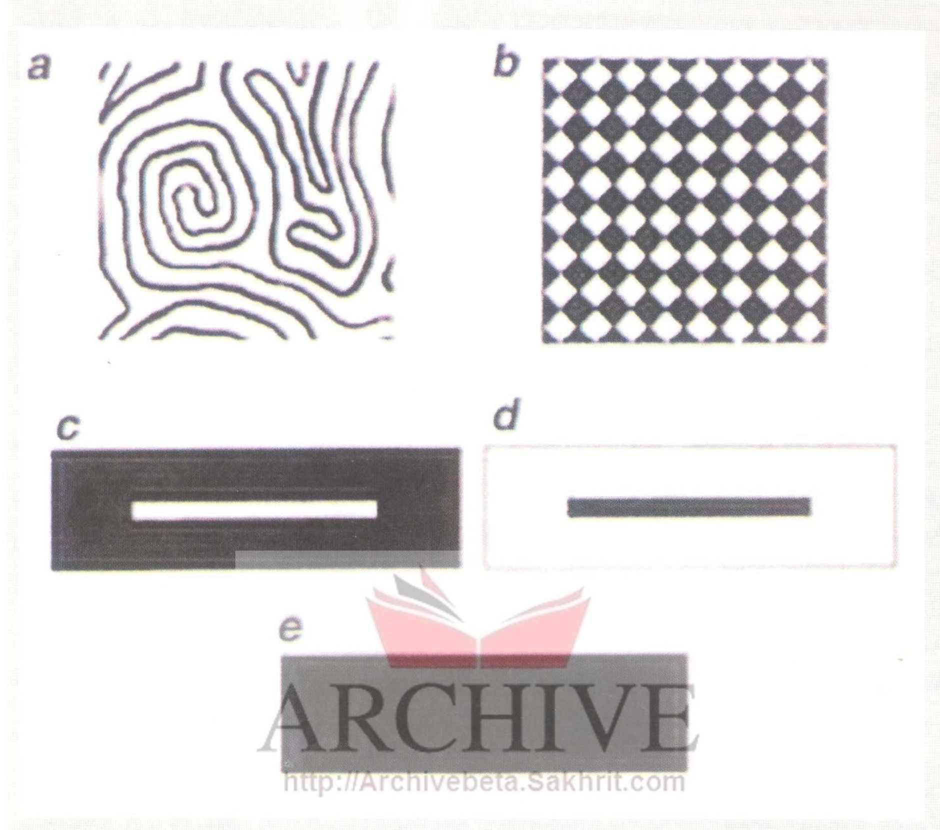
بدأ فاراداي استقصاءاته عن الكهرطيسية في 1821، بعد عام فقط من اكتشاف هانز كريستيان أورستد اللافت للتفاعل بين التيار الكهربائي لبطارية فولتا والإبر المغناطيسية.

بداية، ركز فاراداي على سلوك إبرة مغناطيسية أفقية معلقة قرب سلك شاقولي، وهي مشكلة درسها أمبير بإيجاز وتركها دون حل. وجد فاراداي أن اللغة التقليدية التي تصف التجاذب والتنافر لم تكن مناسبة لالتقاط السلوك الملاحظ للإبرة، بل الأفضل منه هو مفهوم الحركة الدائرية للسلك حول قطب مغناطيسي أو العكس بالعكس. وبعد محاولات عديدة تحقق من نوعي الدوران تجريبيا، ثم عرضهما لاحقا معا في الوقت نفسه من خلال الجهاز المبين أعلاه. ولكن، بقي من غير الواضح، كيف ترتبط بالضبط الحركة الدائرية مع الظواهر الكهرطيسية الأخرى، مثل الآثار المغناطيسية المعروفة جيدا للأسلاك الحلزونية أو الوشائع. حل فاراداي هذه العلاقة بإحداث سلسلة من الآثار المرتبطة ببعضها بشكل وثيق (انظر الشكل الثاني) التي وضحت كيف يمكن الحصول على أثر الوشيعة بتغيير متتابع للحالة البسيطة لقطب مغناطيسي يدور حول سلك كهربائي. وقد وضح تحليله بشكل سلس منهجه العام لمجال كامل من الظواهر، يتضمن حركات الأسلاك أو حلقات سلكية باتجاه مغناطيس مجاور، ودوران حلقة شاقولية حرة باتجاه غرب - شرق، ودوران مغناطيس أسطواني حول محورة عندما يجتازه تيار كهربائي.

بدأ فاراداي بتنويع شروط التجربة البسيطة - في الشكل (a) يدور قطب مغناطيسي حول سلك كهربائي. ثم باستخدام سلكين متوازيين بفواصل متغيرة وتيارات في الاتجاه نفسه (b)، وجد أن سرعة الدوران كانت تزداد دون أن يتبدل الأثر جوهريا.

ولكن، إذا كانت التيارات في اتجاهات متعاكسة (c)، فإن شيئا يشبه التجاذب والتنافر يحدث في مستوى التناظر بين الأسلاك. أدرك فاراداي أن هذا الأثر الجديد يمكن فهمه ببساطة كمجموعة مؤتلفة من الحركات الدائرية. وكانت آثار التجاذب والتنافر تشتد عندما تستبدل الأسلاك المستقيمة بحلقة (d). وكان اشتداد إضافي يحصل باستخدام شكل حلزوني، مقطعه العرضي مبين في (e)، أو حلزون أسطواني (f)، مما يؤدي بشكل فعال إلى اتحاد الآثار المشتدة لسلك مزدوج وحلقة. يقود اتحاد الحلزون واللولب في النهاية إلى تشكيل (g) يكون سلوكه مشابها لقضيب مغناطيسي. في نهاية هذه السلسلة من التجارب استنتج فاراداي أن «ظواهر الحلزون أو الأسطوانة الصلبة يمكن اختزالها إلى دورة بسيطة لقطب مغناطيسي حول سلك متصل ببطارية...».





الشكل (2)

تتابعت الاستقصاءات التحليلة عند غوته من المعقد إلى البسيط. في الشكل ترى خمس صور أبيض ـ أسود مختارة من سلسلة درسها غوته، ونظر إليها بالعين المجردة (الصور العليا، مأخوذة من كتابه إسهامات في البصريات، المرجع 1) ثم من خلال موشور زاوية انكساره متجهة نحو الأسفل (الصور السفلية) إن تسلسل جميع الألوان من الأعلى للأسفل ينعكس إذا كانت زاوية الانكسار متجهة نحو الأعلى. (a) ترتيب غير منتظم للأسود والأبيض يظهر أهدابا ملونة دون نظام واضح. (b) الألوان المولدة من خلال نموذج رقعة شطرنج مبسط كانت دورية وأظهرت تغيرات منتظمة كلما جرى تدوير الرقعة، لكن لا تزال معقدة إلى درجة لا يمكن التعبير عنها بوساطة قانون. (c) إن الأهداب الملونة التي ولدها مستطيل أبيض اعتمدت على عرض المستطيل وعلى بعده عن الموشور. إن مستطيلا ضيقا جدا أو على مسافة كبيرة يُظهر طيفا من ثلاثة ألوان فقط. والمستطيلات الأكثر اتساعا، كما هو المستطيل المبين في الشكل، أظهرت أهدابا ألوانها ـ الأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والبنفسجي ـ كانت متفقة مع ألوان الطيف النيوتوني. (d) مستطيل أسود على خلفية بيضاء أظهر طيفا ـ أزرق، بنفسجيا، أرجوانيا، أحمر، أصفر ـ متمما للطيف الحاصل في c. الأرجواني الموجود في مركز الطيف متمم، ودعاه غوته «أحمر صافيا» وهو غير موجود في الطيف النيوتوني. (e) عملت الحدود الفاصلة في المستطيلات الأوسع كما لو أنها تضارب في الألوان أسود ـ أبيض معزولة مظهرة أهدابا حمراء وصفراء عندما يكون الأسود في الأعلى، وأهدابا زرقاء وبنفسجية عندما يكون في الأسفل. لم تظهر ألوان على حدود الأسود ـ الأبيض الشاقولية.

الملحق (2)

عند رجوعه لبحث الكهرطيسية في عام 1831 بعد انقطاع لمدة تسع سنوات، ركز مايكل فاراداي على التحريض الكهرطيسي، وهو الأثر المنشود والذي كان صعب المنال منذ اكتشاف هانز كريستيان أورستد لتأثر الإبر المغناطيسية بالتيارات الكهربائية. نجح فاراداي سريعا في تحقيق التحريض في المختبر باستخدام حلقة معدنية ملساء ومجموعة واحدة من الوشيعات مرتبطة ببطارية وأخرى مرتبطة مع مقياس غلفانومتر(3). كما هو موضح في التخطيط أعلاه. لكن هذا الأثر طرح أسئلة عدة. هل التيار المتحرض في إحدى الوشيعات تسببه مغناطيسية الحلقة التي نتجت عن التيار في الوشيعة الثانية، أم أن هناك نوعا من التأثر المباشر بين الوشيعتين؟ ثم، لماذا لا يلاحظ التحريض إلا عند فصل أو وصل التيار وليس عندما يكون التيار ثابتا؟ بدلا من نشر اكتشافه مباشرة، أبقاه فاراداي سرا ثم باشر عملا تجريبيا استكشافيا استمر شهورا عدة. ففي تحليله للتيارات المتحرضة بوساطة المغانط (باعتبار ذلك معاكسا للتحريض بوساطة التيارات)، غيّر شكل المغانط وقوتها وكذلك شكل وثخانة الأسلاك والترتيبات الإجمالية. وبإدراكه السريع لكون الحركة النسبية للسلك والمغناطيس عاملا ضروريا، فقد غيّر اتجاههما وسرعتهما، لكن المبدأ الأساسي بقي عصيا على الإثبات. فعلى نحو خاص، لم يكن واضحا تماما ما هي مكونات الأدوات التي يجب استخدامها لوصف الحركة. اختبر فاراداي كلا من الأقطاب المغناطيسية واتجاهات السلك والمغناطيس واتجاهات البوصلة، بل وحتى التيارات الدائرية الافتراضية لأندريه ماري أمبير ضمن المغناطيس. ولكن لم يستطع في أية حال أن يصوغ منظومة متسقة مع النتائج التجريبية. أخيرا جرب مجموعة من «المنحنيات المغناطيسية» التي تمثلها برادة الحديد المتجمعة حول مغناطيس (انظر مخطط فاراداي بالشكل) والتي كانت معروفة منذ مدة طويلة ولم ينظر إليها أبدا إلا كصفة غريبة مثيرة للفضول. كان النجاح فوريا: أصبح بالإمكان فهم النتائج التجريبية جميعا تحت مبدأ وحيد، وهو «قانون التحريض الكهرطيسي» الذي ينص على أن التيارات الكهربائية تتحرض عندما يعترض السلك منحنيات المغناطيس.

فيما بعد، شرع فاراداي في استقصاءات تركيبية في محاولة منه لاستنتاج آثار تحريضية أخرى انطلاقا من قانون التحريض الكهرطيسي. عموما، كانت الطريقتان التحليلية والتركيبية متشابكتين في عمل فاراداي، مؤيدة، وأحيانا معارضة بعضها بعضا.

اشترك فاراداي وغوته بأكثر من مجرد منهج تجريبي. فكما أن غوته لم يحاول التنظير حول الطبيعة «الخفية» للضوء، كذلك رفض فاراداي التخمين حول الطبيعة «الحقيقية» للتيارات الكهربائية والمغانط. فبدلا من ذلك، رمى الاثنان إلى تطوير مفاهيم لصياغة انتظامات الظواهر، وفي السياق، إلى التشديد على تأسيس روابط تجريبية بين الظواهر المعقدة والبسيطة. وقد لاحظ هيرمان فون هيلمو هلتز هذه التشابهات المنهجية بين العالمين في محاضرة ألقاها عام 1881 عن فاراداي، إذ أكد فيها أن هدف فاراداي كان التعبير فقط عن «الوقائع الملاحظة والقابلة للملاحظة، متجنبا بحذر شديد أي تدخل لعناصر افتراضية» ولاحظ أيضا على نحو صريح التشابه بين منهجي فاراداي وغوته.

تضمن الإجراء التجريبي عند غوته مرحلتين: مرحلة تحليلية analytic تنتقل من المظاهر المعقدة مرورا بالمظاهر الأبسط إلى المبدأ الأول، ومرحلة تركيبية synthetic تنتقل بترتيب معاكس، موضحة كيف تتصل المظاهر الأكثر تعقيدا مع المبدأ الأول. تمثلت المرحلة التحليلية بوساطة مجموعة من التجارب باستخدام صور بالأبيض والأسود. يبين

(3) غلفانومتر: مقياس للكشف عن التيار الكهربائي أو تعيين اتجاهه ـ المترجم.

الشكل 2 كيف تبدو صور عدة استخدمها غوته عندما ينظر إليها من موشور زاوية انكساره تميل نحو الأسفل. وقد نص القانون العام الذي حدده غوته على أن الأهداب الملونة تظهر عند حواف الأبيض - الأسود موازية لمحور الموشور: الأصفر والأحمر عندما يكون الأبيض تحت الأسود، والأزرق والبنفسجي عندما يكون أعلاه، كما هو ظاهر في الشكل 2.e لمنظر الموشور. بالنسبة لغوته، شكلت هذه الأهداب مظهرا أوليا للون الموشوري الذي يمكن أن تشتق منه كل الألوان الأخرى. على سبيل المثال، أظهرت تجارب غوته باستخدام مستطيلات سوداء وبيضاء أن كلا من خطوط الطيف النيوتونية والمتتامة(4) commplementary (انظر الشكل 2) كانت تتولد عندما تتلاقى الأهداب الملونة الناتجة عن كون المسافة الفاصلة بين الأبيض والأسود صغيرة: تمتزج الأهداب الصفراء والزرقاء كي تعطي الأخضر، وأما الحمراء والبنفسجية فتعطي الأحمر الأرجواني، لذا، اعتبر غوته أن خطوط الطيف النيوتونية والمتتامة كانت ظواهر مركبة يمكن اشتقاقها من قانون الأهداب الملونة.

تمثلت المرحلة التركيبية من استقصاء غوته بوساطة التجارب على الأهداب الملونة التي تظهر عندما ننظر من خلال الموشور إلى صور ملونة وصور رمادية موضوعة على خلفيات متنوعة. يظهر الشكل 3 كيف يبدو جزء من أحد مخططات غوته، في كتاب نظرية الألوان، عندما ينظر إليه من خلال موشور تميل زاوية انكساره نحو الأسفل. وقد أظهرت التجارب على أشكال مربعة متدرجة اللون الرمادي وموضوعة على خلفيات بيضاء وسوداء أن كثافة الأهداب الملونة تزداد مع تغير الإضاءة عند الحد الفاصل. وقد شوهدت ظواهر أكثر تعقيدا عند استخدام أشكال مربعة ملونة، والتي أظهرت أهدابا ذات ألوان جديدة لم تشاهد في التجارب السابقة. ويرى غوته، على نحو مقبول ظاهريا، أن تلك الألوان الجديدة تعود إلى امتزاج الألوان الهدبية الأولية مع ألوان المربعات ذاتها. اعتبر غوته أن الامتزاج هو التفسير الصحيح للملاحظة التي ذكرها نيوتن بأن المربع الأحمر، إذا نظر إليه من خلال موشور على خلفية سوداء، يبدو منزاحا قليلا إلى أعلى الأزرق. وفي حين أورد نيوتن هذه الملاحظة كي يثبت أن الألوان المختلفة للضوء تمتلك قابليات انكسار مختلفة - القضية الأولى في كتابه البصريات - فإن غوته رأى أنها لا تعدو كونها حالة خاصة من القانون العام للأهداب الملونة.

إن التجارب التي وصفناها للتو هي جزء صغير فقط من تلك التي أجراها غوته خلال سيرته العلمية. ويتضمن بعضها تجارب جديدة على ضوء الشمس المنكسر والتي أظهرت للوهلة الأولى نشوء خطوط الطيف

---

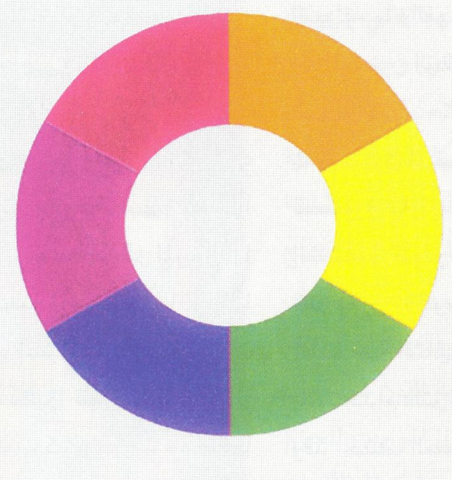
(2) الألوان المتتامة: complementary colors أزواج من الألوان إذا مزجت بنسب متساوية أعطت لونا أبيض أو رماديا _ المترجم.

النيوتونية والمتامة باعتباره تابعا للبعد عن الموشور، وكذلك تضمنت إعادات حذرة للتجارب وتغييرات في العديد من التجارب التي وصفها نيوتن في الكتاب الأول من البصريات. وتمتلك التجارب التي أجراها غوته على الظلال الملونة أهمية خاصة، مثل تلك التي يلاحظ فيها أن ظل القلم الذي تحدثه شمعة مضاءة وشمس غاربة يكون أزرق لامعا. كان غوته من بين الأوائل الذين أدركوا أهمية هذه الظاهرة التي لا تقدم نظرية نيوتن تفسيرا لها.

اقترح غوته كخلاصة لبحثه دائرة ألوان متناظرة، موضحة في الشكل 4، وتطبق في كل المجالات التي درسها. في المقابل، إن دائرة الألوان التي وضعها نيوتن وتتألف من سبعة ألوان في زوايا متقابلة غير متساوية لا تظهر التناظر والتتامية اللتين اعتبرهما غوته خاصيتين أساسيتين للون. فبالنسبة لنيوتن، يمكن اعتبار ألوان الطيف فقط أساسية. وفي المقابل، إن منهج غوته التجريبي قاده إلى إدراك الدور الأساسي للأحمر الأرجواني magenta (غير الطيفي) في دائرة اللون الكاملة، هذا الدور الذي ما زال معتبرا في جميع منظومات اللون الحديثة. يشعر الحرفيون عموما، كالدهانين والصباغين والدباغين الذي يعالجون اللون عمليا، بانجذاب أكبر نحو دائرة اللون التي وضعها غوته بدلا من تلك التي وضعها نيوتن. كان ج. م. دبليو تيرنر (1775 - 1851) أحد الرسامين الذين تأثروا بقوة بأعمال غوته، وقد ظلت تعليقاته وحواشيه باقية على نسخة من كتاب نظرية الألوان، وكذلك ظل ما رسمه بعنوان «الضوء واللون (نظرية غوته)» معروضا في صالة عرض تيت Tate في لندن.

استراتيجيات بحث متعارضة

يمثل منهجا نيوتن وغوته المتعلقان بمسألة اللون منهجان مختلفان تماما في البث التجريبي. نحن ندعوهما التجريب الموجه نظريا theory - oriented experimentation والتجريب الاستكشافي exploratory experimentation. وغالباً ما اعتبر التجريب الموجه نظريا النوع الوحيد المناسب: فهو يتطابق تقريبا مع النظرة «القياسية» في فلسفة العلم التي ترى أن التجارب تصمم بوجود نظريات مصاغة مسبقا في الذهن وتخدم في المقام الأول في اختبارها وإثباتها. ومن طرح وجهة النظر هذه بقوة هو كارل بوبر الذي كتب: «يضع العالم النظري أسئلة محددة واضحة للمجرب، ويحاول هذا بتجاربه أن يستخرج جوابا حاسما عن هذه الأسئلة وليس عن غيرها... تهيمن النظرية على العمل التجريبي منذ تخطيطه الابتدائي وإلى اللمسات الأخيرة في المختبر». وفقا لهذه النظرة، يكون من المنطقي إجراء تجربة منفصلة، وعلى الخصوص تجربة حاسمة، تصمم للحكم بين الفرضيات المتنافسة. وقد اتبع نيوتن على نطاق واسع مثل هذا المنهج في تجاربه على اللون.



الشكل (3)

تتضمن دائرة اللون عند غوته كلا من الطيف النيوتوني والطيف المتتام اللذين لوحظا في التجارب الموشورية. وبالإضافة إلى ذلك، تكون الأزواج الثلاثة من الألوان المتعاكسة في الدائرة متتامة في سياقات متنوعة، بما في ذلك توليد اللون الموشوري، والظلال الملونة، والصور التي تبقى في المخيلة بعد عرضها (5) afterimages ومزج الألوان. (نظرية الألوان، المرجع 1)

في المقابل، أهمل مؤرخو وفلاسفة العلم التجريب الاستكشافي إلى حد نسبي، وتتمثل خاصيته الواضحة في التغيير الواسع والمنتظم للشروط التجريبية بغية اكتشاف ما هو مؤثر منها أو ضروري للظواهر موضع البحث. فيكون التركيز أقل على ربط تجارب منفصلة مع نظرية رئيسية، وأكثر على الصلات بين تجارب مترابطة. يهدف التجريب الاستكشافي لإظهار التعقيد والتنوع المفصل في ميدان ما، ومن ثم تطوير مفاهيم جديدة وفئات تسمح بترتيب أساسي لهذا التنوع الوافر، يأتي التجريب الاستكشافي نموذجيا في المقدمة في تلك الحالات التي لا يتوافر فيها إطار نظري مصاغ جيدا للظواهر موضع الاستقصاء، بل بدلا من ذلك تنشأ التجارب والمفاهيم سوية، إما لتقوي أو تضعف بعضها بعضا على نحو متناغم.

غالبا ما يفضي التجريب الاستكشافي إلى تأسيس تسلسل هرمي ضمن عالم الظواهر. في القمة، تتوضع الظواهر التي يدعوها غوته أصلية والتي تتضمن الشروط الضرورية فقط، ولذلك تعزى لها وضعية خاصة. وكل التأثيرات الأخرى يمكن أن تستنتج أو تشرح بوساطة تلك الشروط الأولية عبر التعقيد التصاعدي للترتيبات التجريبية وإضافة شروط جديدة. إن الترابط بين تأثير جزئي وظاهرة أولية

(5) الصور المتبقية هي إحساس بصري يحدث بعد أن يكون المنبه الخارجي الذي سببه قد كف عن العمل ـ المترجم.

يتكشف من خلال تأسيس سلسلة من التأثيرات الوسيطة. في مقالته المنهجية «التجربة كوسيط بين المادة والموضوع»، وصف غوته نتيجة هذا المنهج «كسلسلة من التجارب تتجاور عن قرب وتلامس بعضها بعضا مباشرة، والتي بالفعل، عندما ينظر المرء إليها جميعا بدقة ويتفحصها، تأتلف كما لو أنها تجربة مفردة...»، لقد اعتبر هذه العناية بربط «الأقرب إلى الأقرب» نظيرا تجريبيا للاستنتاج الرياضي، والذي «بسبب كونه متأنيا ومحضا يظهر كل خطوة بشكل مؤكد». في ذلك السياق، لا تخبرنا التجارب المنفصلة كثيرا من المعلومات، بغض النظر عن قوتها الإثباتية، وهذا هو الحال في العمل ذي التوجه النظري. وقد توضح الفرق بشكل جيد في المناظرة التي جرت بين نيوتن وأحد النقاد المبكرين، أنطوني لوكاس اليسوعي، الذي قدم تجارب جديدة كثيرة (تتضمن تغييرات في تجارب نيوتن) زعم أنه لا يمكن تعليلها بوساطة نظرية نيوتن. وقد كان رد نيوتن بأن أكد أنه على المرء أن يجرّب تجربة حاسمة واحدة فقط (البصريات، الكتاب 1، الجزء 1، التجربة 6) لأنه «طالما أن تجربة واحدة تفي بالغرض، فلماذا نحتاج المزيد؟».

إدوين لاند ورؤية اللون

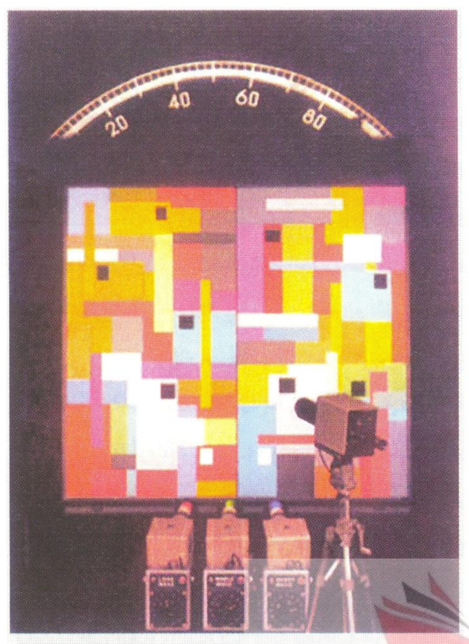
إن التجارب على رؤية اللون التي بدأها إدوين لاند في الخمسينيات، والتي تعتبر الآن من الكلاسيكيات، ليست فقط مثالا رائعا على التجريب الاستكشافي عند الحد الفاصل بين البيولوجيا والفيزياء، بل هي على صلة مباشرة مع المضمون النظري لكتاب غوته نظرية الألوان. استهل لاند بحثه بتجربة بسيطة مستخدما شريحتين شفافتين من النوع أسود - أبيض للصورة الملونة ذاتها. وقد أخذ الشريحة الشفافة الأولى، «السجل الطويل»، باستخدام فلتر يمرر الضوء طويل الموجة فقط. والشريحة الشفافة الثانية، «السجل القصير» أخذت باستخدام فلتر يمرر الموجات القصيرة فقط. وقد اختلف السجلان في درجة إضاءة أو إعتام النقاط المتناظرة دون أن يحويا أي لون. ثم وضعت الشريحتان الشفافتان على شاشة بحيث تكون الواحدة فوق الأخرى مباشرة، وسلط على السجل الطويل حزمة ضوئية من القسم الأحمر من الطيف، وعلى السجل القصير حزمة من الضوء المتوهج. وفقا لنظرية اللون الكلاسيكية المبنية على أعمال نيوتن وتوماس يونغ وجيمس كلارك ماكسويل، وهيرمان فون هلموهلتز، يمكن أن تكون الصورة الظاهرة على الشاشة أحد درجات الأحمر الوردي فقط. لكن ما رآه الملاحظ كان خيالا ملونا على نحو لامع ومتنوع ويشبه الصورة الأصلية تقريبا.

علي الرغم من أن لاند لم يكن أول من لاحظ نتائج الإسقاط ثنائي اللون، إلا أن ملاحظته استهلت برنامجا من التجريب الاستكشافي استغرق أكثر من عقدين. وقد بدأ بإجراء سلسلة من 22 تغييرا على تجربة أداة الإسقاط الثنائية. أثبتت تلك التجارب أن الألوان غير المتوقعة أو «غير الكلاسيكية»

ظهرت لحظيا بشكل أساسي، وبالتالي لا يمكن تفسيرها بوساطة تكيفات للعين معتمدة على الزمن. وأظهرت التجارب أيضا أن الألوان لم تتأثر جوهريا بعوامل من قبيل شدات الإنارة الخارجية أو حزم الإسقاط أو الزاوية المقابلة للخيال أو الفلترات المستخدمة لإنتاج السجلات القصيرة والطويلة. بعد ذلك أجرى لاند بدقة أكبر سلسلة من التجارب باستخدام أداة إسقاط مزدوجة أحادية اللون سمحت للمجرب بأن يغير بحرية أطوال الموجات للحزم المسقطة ويدرس بالتالي تشكيلة الألوان الملاحظة كتابع (دالة) لتلك الأطوال الموجية.

استنتج لاند من التجارب أن نظرية اللون الكلاسيكية تسري فقط على بقع الضوء التي تتم ملاحظتها في محيط مظلم كليا، وأن لها صلة محدودة فقط مع الإدراك الحسي للون في الحالات الطبيعية عندما تكون الأشياء متنوعة والإنارة متغيرة. وقد استنتج على نحو خاص بأن منبه رؤية اللون في نقطة ما من صورة لم يكن، كما افترض عادة، تركيب الطول الموجي للطاقة المشعة التي تصل العين من تلك النقطة. وهدفت تجاربه التالية إلى كشف طبيعة المنبه. وقد استعمل في أغلب هذه التجارب «موندريانات(6) Mondrians»، وهي ملصقات من مستطيلات ورقية ذات أشكال وألوان مختلفة.

بدأ لاند بتجارب على موندريانات غير ملونة، بيضاء وسوداء ورمادية، وكان ينظر إليها عبر نظارات سوداء تسمح لمنظومة عصيات شبكية العين (المخصصة للرؤية الليلية) بأن تتنشط. وبضبط إنارة الموندريانات، بيّن لاند أن اللصاقات حافظت على ترتيب متسلسل ثابت من الإضاءة المدركة



الشكل (5)

كانت الملصقات التي تشبه لوحات موندريان Mondrian عناصر أساسية في تجارب إدوين لاند على رؤية اللون. كانت الموندريانات تنار بثلاث أدوات إسقاط projectors موضوعة إلى الأسفل تصدر ضوءا يشتمل على نسب متنوعة من الأمواج القصيرة والمتوسطة والطويلة. ويرى في يمين الشكل مقياس ضوئي مقرب يقيس الأمواج المكونة للضوء المنعكس عن بقعة ملونة محددة باتجاه العين. بيّن لاند أن اللون الذي تحسه العين لا يحدده تركيب أمواج الضوء المنعكس عن البقعة. (الصورة مأخوذة من قبل ح. سكاربيتي بإذن من معهد رولاند في كامبريدج).

(6) نسبة إلى الفنان الشهير موندريان Mondrian (1872-1944) الذي اشتهر بلوحاته التجريدية التي تتكون من خطوط ومساحات لونية متنوعة - المترجم.

حسيا، على الرغم من أن اللصاقة التي تبدو عاتمة ربما ترسل إلى العين ضوءا أكثر من تلك التي تبدو فاتحة. أوحى هذا إلى لاند بأن العين كانت قادرة على اكتشاف قيم إضاءة مستقلة عن تدفق الطاقة الذي تتلقاه، أي أن معامل الانعكاس reflectance، وهو المحدد الفيزيائي للإضاءة، ربما يكون منبه اللون الذي يبحث عنه. وقد قادت هذه الفكرة لاند إلى سلسلة من التجارب سلط فيها على موندريانات ملونة ضوءا ذا أطوال موجية قصيرة ومتوسطة وطويلة ويمكن مزجها بأية نسبة (انظر الشكل 5). في إحدى هذه المجموعات من التجارب، كانت الإنارة مضبوطة بحيث إن، على سبيل المثال، مساحة بيضاء من إحدى الموندريانات، ترسل إلى العين الثلاثي ذاته تماما من الطاقة المشعة الذي ترسله مساحة خضراء من إحدى الموندريانات الأخرى. وقد استمرت المساحتان بالظهور باللونين الأبيض والأخضر، وهذا إثبات مثير على أن اللونين اللذين تم استقبالهما العين مستقلين عن دفق الطاقة الذي أصدراه كتابع لطول الموجة. في مجموعة أخرى من التجارب، طلب من المراقبين أن يختاروا من بين مجموعة قياسية من 1150 رقاقة لونية الرقاقة الأكثر تطابقا مع اللون الموجود على مساحة معينة في إحدى الموندريانات المنارة. وجد لاند أنه عند حصول تطابق يكون معاملا الانعكاس لكلتا المساحتين هما اللذان تطابقا وليس ثلاثيات الطاقة المشعة التي أرسلت إلى العين في الحزم الموجية المنيرة الثلاث.

إن نظرية «الشبكية retinex» لرؤية اللون التي طورها لاند على قاعدة من تجاربه تمتلك عنصرين جوهريين: فهي تعتبر أن الضيائية (أي، معامل الانعكاس) هي المنبه الأساسي للون، كما تؤكد على أهمية الحدود boundries التي تتيح للعين تقدير الضيائية من خلال التقاط الخصائص المتميزة في نسبة تدفق الطاقة من النقاط المتجاورة مكانيا. ويبدو التماثل مع نظرية غوته التي تؤكد أيضا على الأدوار الجوهرية للضيائية والحدود لافتا إلى درجة كبيرة.

منظومات معقدة

غالبا ما تسلّط دراسات الكتب المنهجية لتاريخ الفيزياء الضوء على اكتشافات تتعلق بمنظومات بسيطة، أي تلك التي تتكون إلى حد ما من بضعة عناصر متفاعلة. وهذه المنظومات تكون مناسبة للدراسة بوساطة تجارب معزولة مصممة كي تثبت على نحو مباشر مبدأ فيزيائيا تعتمد عليه. إن التجارب الفيزيائية الشهيرة منذ غاليليو وكراته على السطوح المائلة إلى تجارب روبرت ميليكان على قطرات الزيت، هي من هذا النمط. فعلى نحو متعمد، يزيل الفيزيائي الذي يدرس منظومة بسيطة التأثيرات المعقدة، مثل من يعبّد طريقا باجتهاد وتركيز يشق الطريق مباشرة دون أن يعير اهتماما كبيرا للمنظر الطبيعي المحيط.

كانت استقصاءات نيوتن في البصريات موجهة باعتقاد ميتافيزيقي بأن اللون مجرد رابطة ذاتية للخصائص الميكانيكية لأشعة الضوء. لذلك فقد جرد نيوتن من العالم المعقد للإدراك البصري العادي العمل في حجرة مظلمة منارة فقط بحزمة مفردة من أشعة الشمس. لذلك كانت المنظومة التي درسها بسيطة، وتتألف من كيانات من نوع واحد - أشعة

ذات قابليات انكسار متنوعة. تفاعلاتها المشتركة، كامتزاج اللون مثلا، كانت متراكبة مع بعضها بعضا بشكل محض. كان منهج نيوتن معقولا تماما بالنظر إلى هدفه: فإخضاعه اللون والضوء إلى الرياضيات يهرب في أفضل حالاته من بضعة تأثيرات خاصة. لكن الثمن الذي دفع تمثل في أن هذه التجارب كانت على صلة محدودة فقط مع اللون المدرك عادة.

يواجه الفيزيائيون الذين يدرسون منظومات معقدة ذات عناصر كثيرة متفاعل مهمة مختلفة في نوعها عن تلك التي واجهت نيوتن. فهم غالبا ما يبدؤون بعدد وافر من المكتشفات التجريبية التي تكون ترابطاتها المتبادلة ومبادئها الأساسية غير واضحة. فعليهم أن يستخدموا تجاربهم ليس لإثبات قضايا، بل بالدرجة الأولى لتطوير مفاهيم مطلوبة كي تعطي معنى للكثرة. والتجربة المعزولة التقليدية ذات فائدة قليلة هنا. فبدلا منها، يجب على من يدرس التعقيد أن يكون مستكشفا، يقوم بتجارب مخبرية أو عددية كثيرة تحت شروط مختلفة، «قريبة» من بعضها بعضا على نحو كاف بحيث لا يضيع أي مظهر مهم للسلوك المدروس. ولا يشبه هذا الفيزيائي إلى حد بعيد معبّد الطريق، بل هو أكثر شبها بمن يرسم خريطة إذ يكون اهتمامه الأول تفحص ملامح وتفاصيل الموقع الطبيعي المعقد.

إن الدور الذي يلعبه التعقيد النسبي في حفز الاختيار بين الاستراتيجيات التجريبية يمثله بوضوح التعارض بين نيوتن والحالات الاستكشافية التي ناقشناها. لقد أولى لاند وغوته اهتماما باللون كخاصية غير قابلة للاختزال وليس كظاهرة ثانوية ملحقة epiphenomenon وبإدراكهما أن العين البشرية والعالم الخارجي يشكلان منظومة تفاعلية معقدة، قد اختار الاثنان أن يستكشفاها في وجوهها المتنوعة، وأجريا بالفعل مئات التجارب طوال حياتهما المهنية. وكانت النتيجة فهما أعمق لتعقيد الشروط التي بموجبها تظهر الألوان في عالم الخبرة اليومية المعاشة. كان فاراداي أيضا قد درس ظوهر أظهرت تنوعا محيرا وتعقيدا لعبت فيه عوامل عديدة متفاعلة أدوارا مهمة: شكل الأسلاك الكهربائية وقوة المغانط وسرعة واتجاه الحركة النسبية بينها وقوة واتجاه التيارات الكهربائية واعتمادها على الزمن. وعلى الرغم من أن القوانين التي تصف هذه الظواهر قد تبدو بسيطة لنا اليوم، إلا أن هذه البساطة لم تكن واضح بالنسبة لفاراداي الذي اختار اتباع السبيل الاستكشافي.

والتجريب الموجه نظريا والتجريب الاستكشافي ليسا صنفين حصريين، بل الأحرى هما عنصران في طيف من استراتيجيات البحث التجريبي، وأيهما يكون أكثر إنتاجا في سياق ما، يعتمد على كثير من العوامل، بما فيها درجة تطور الحقل المبحوث ونوع المعرفة التي يسعى الفيزيائي إليها (مثلا، الآليات الضمنية في مقابل انتظامات الظواهر)، وتعقيد المنظومة موضع البحث. إن هدفنا من التركيز على على السبيل الاستكشافي كان لإلقاء الضوء على أسلوب تجريبي لعب دورا مهما، ولكن حتى اليوم مهملا، في تاريخ الفيزياء.